

مشروع إعداد نسخة إلكترونية لمجلة كلية

اللغة العربية بإيتاي البارود جامعة الأزهر

إعداد وإشراف

أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب

رئيس قسم الأدب والنقد

جامعة الأزهر

مجلة

كلية اللغة العربية
إيتاي البارود

بدمنهوور

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

العدد الخامس

مشروع إعداد نسخة إلكترونية لمجلة كلية

اللغة العربية بإشراف البارود جامعة الأزهر

إعداد وإشراف

أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب

رئيس قسم الأدب والنقد

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بدمهور

مجلة

كلية اللغة العربية

إشراف
أ.د. محمود علي السمان
عميد الكلية

● أسرة التحرير
أ.د. محمد سعد فشوان
د. عبد الفتاح أبو الفتوح إبراهيم
د. الشحات محمد عبد الرحمن أبو سمينة

العدد الخامس

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

افتتاحية العدد

بقلم أ.د. محمود السمان
عميد الكلية

أحمد الله تعالى — وأصلى على رسوله الكريم وبعد ...

فقد قيل ان قيمة العلم تتحدد بشرف مقصده ، وسمو هدفه ،
وشدة الحاجة اليه ، وكثرة الانتفاع به ، ولهذا صدرت علوم الحديث
وال تفسير والفقه ، لأنها ترتبط ارتباطا وثيقا مباشرة بالقرآن الكريم
والسنة النبوية المطهرة ، فهما ودراسة وشرحاً وحكماً .. ولهذا كذلك
قدمت علوم اللغة والأدب والبلاغة ، لأنها تتصل اتصالا مبينا وقويا
بكتاب الله وسنة رسول الله تحليلا وتعليلا وتذوقا .

فبلاغة القرآن والحديث ليست مقصورة على ما فيهما من أحكام
وعبادات ومعاملات وعقائد وشرائع ، ولكنها تشمل ذلك كله ثم تتعداه
الى جمال الألفاظ ودقتها ، وحسن الأساليب وروعيتها ، ومن هنا كان
كثير من سحر القرآن الكريم حين نزل على العرب — وهم أفصح
الأمم قاطبة — فلم يأسرهم ما جاء به من الاخبار عن الله وعن الأمم
السابقة — وقد نزل على الرسول النبي الأمي فحسب — ولكن أسرهم
وسحرهم ما صيغ به من لغة وما احتوى عليه من أدب وبلاغة — وهم
اللسن المقاول ، وأرباب اللغة الفصحاء .

وقد كان القرآن كذلك بالفعل فقد تتحداهم من نزل عليه أن يأتيوا
بمثله أو بسورة من مثله أو بآية منه فعجزوا ، بل لقد نطق بذلك

منهم المنصفون من أهل الشرك ، وها هو أحدهم يسمع من رسول الله صلوات الله عليه وسلامه لبعض آيات القرآن فيعود الى قومه تختلط الدهشة في نفسه بالاعجاب ، قائلاً : والله لقد سمعت من محمد كلاماً أنفاً ، ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، وان له للحلاوة وان عليه لطاوة ، وأن أعلاه لثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه يعلم ولا يعلم عليه .

وقد كان سماع عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل أن يسلم لبعض آيات كريمات من سورة طه — وكان هو من هو عداء للإسلام والمسلمين ، وكان قد ذهب لمعاقبة أخته وزوجها اللذين سمع عنهما أنهما أسلما — كان سماع عمر لآيات من القرآن الكريم من تلك السورة الكريمة سبباً في إسلامه .

وليس ما ذكرناه الا مثلين لألوف من الأمثلة التي تأثرت بلغة القرآن وبلاغته قديماً في عهد رسول الله وصحابته وحديثاً في العصور الحديثة ، وسيظل أثر القرآن في ذلك قائماً ودائماً الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فكليات اللغة العربية بالأزهر الشريف اذا قامت بمهمة تعليم اللغة وأصولها وبلاغتها وآدابها — انما تقوم بمهمة جليلة ، لأنها تخدم بذلك كتاب الله في جانب من جوانب اعجازه الكثيرة المتنوعة ، فتعد أبنائها لحمل رسالة لغة القرآن ، وأدب القرآن وبلاغة القرآن ينشرونها في الناس ، ويعلمونها لكل الأجيال المتعاقبة ، فيظل القرآن نشيد المرتلين والمتعبدین يرطبون به ألسنتهم ، ويهددون به مشاهيرهم ، ويثجون به صدورهم ، ويريحون به أفئدتهم .

ولكن كلية اللغة العربية بدمهور وهكذا بقية كليات جامعة الأزهر — حفظها الله — ترى أن المهمة الكبرى التي تقوم بها ينبغي أن تعم

•
جماهير القراء ولا تخص خاصة الطلاب من الملتحقين بها ، فهي لذلك
تعقد الندوات الأدبية ، وتقيم المهرجانات الشعرية •• وهي لذلك
تصدر المنشورات والمجلات التي تؤدي بعض ما يؤديه الدرس المنتظم في
إشاعة الكلمة الصحيحة ، واللغة الفصيحة ، والأدب الرائق •

وقد صدرت الكلية أربعة أعداد من مجلتها ، كانت لها أصداء طيبة
على المستويين العام والخاص بما حوت من بحوث جديدة ومبتكرة لغة
وأدبا وبلاغة •

واليوم تصدر الكلية خامس أعداد مجلتها حاملة ما يحقق بعض
أهدافها من نشر الوعي اللغوي والأدبي والنقدي والبلاغي للناس
كافة •

وأنا لندعو الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ،
وأن يثيب القائمين على هذه المجلة كفاء ما يقدمون للناس من عطاء •
والله سبحانه وتعالى من وراء القصد ، وهو نعم المولى ونعم
النصير •••

د• محمود علي السمان
عميد الكلية

التقديم والتأخير بين الإمام عبد القاهر والمنأخرين

د. الشحات محمد عبد الرحمن أبو سنيت

تقديم:

لم تنل قضية التقديم والتأخير حقها من البحث والدراسة عند البلاغيين إلا في القرن الخامس الهجري على يد الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ) في كتابه «دلائل الإعجاز».

وليس معنى هذا أن هذه القضية لم تطرح على بساط البحث قبل عبد القاهر، فقد أشار لها كثير من العلماء السابقين عليه، ولكنهم لم يتوسعوا في دراستها ولم يهتموا بكشف أسرارها مثله.

فشيخ النحاة سيبويه (ت: ١٨٠ هـ) يروي عن الخليل بن أحمد (ت: ١٧٥ هـ) حكمه على بعض أمثلة التقديم بالحسن، وعلى بعضها بالقبح (١).

وسيبويه يتناول التقديم والتأخير بالحديث في أكثر من موضع من كتابه، فيقول في باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول: فان قدمت المفعول وأخرت الفاعل كقواك: ضرب زيداً عبد الله... وكان حد اللفظ فيه أن يكون مقدماً، وهو عربي جيد كثير، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أئنى، وإن كان جميعاً يهملهم ويعنيانهم (٢). واستحسن تقديم الاسم إذا كان المسؤلاً

(١) أثر النحاة في البحث البلاغي: ٥٨.

(٢) الكتاب: ١٤/١، ١٥.

عنه ، وتقديم الفعل اذا كان السؤال عنه (٣) وأشار الى التقديم في أبواب كثيرة من النحو (٤) •

وقد أشار عبد القاهر الى كلام سيبويه عن التقديم والتأخير ، وتركيزه على أن التقديم يكون للعناية والاهتمام وحكى ما ذكره أن تقديم المحدث عنه يفيد التنبيه له ، كما في قولك : عبد الله ضربته ، فانما قلت : «عبد الله» فنبهته له ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء (٥) •

وأشار الفراء الى التقديم والتأخير (٦) كما أشار اليه أبو عبيدة (٧) وعرض له ابن جنى في كتابيه : « الخصائص » و « المحتسب » (٨) •

وأكثر ما ذكره السابقون على عبد القاهر في قضية التقديم والتأخير خاص بالقواعد النحوية ، ومن ثم ظلت أسرار هذا الباب مكتونة حتى برزت على يد الامام عبد القاهر •

وهذا البحث يتناول بالدراسة قضية التقديم والتأخير بين عهد القاهر والمتأخرين كالسكاكي والخطيب وغيرهما •

وقد عرضنا فيه آراء الامام عبد القاهر في هذا الباب بمختلف فصوله ، وبيننا موقف المتأخرين منها ، ووازننا بين الآراء مؤيدين ما مؤشحه الأدلة وتقويه الحجج ، كما سيرى القارئ لهذا البحث •

(٣) السابق : ٤٨٣/١ ، ٤٨٧ •

(٤) ينظر الكتاب : ١٩/١ ، ٦١/١ ، ٢٨٥/١ •

(٥) ينظر دلائل الاعجاز ١٠٧ ، ١٣:١ ، ١٤٥ ، والكتاب : ٤١/١ •

(٦) ينظر معاني القرآن : ١٩٥/٢ •

(٧) مجاز القرآن : ١٨٥/١ •

(٨) الخصائص : ٣٨٢/٢ ، والمحتسب : ٦٥/١ ، ٦٦ ، ١٣٥ •

التقديم التأخير عند الامام عبد القاهر

تناول الامام عبد القاهر في بحثه للتقديم والتأخير أهمية هذا الباب ، واغفال المتقدمين له ، وقسم التقديم ، وتكلم عن أسرار التقديم والتأخير في الأساليب المختلفة ، وسنمضي معه في رحلته مع هذا الباب ، لنقف على آرائه ، ونقائل ما أظهره من أسرار .

أهمية هذا الباب واغفال المتقدمين له :

بدأ الامام عبد القاهر تناوله التقديم والتأخير بالإشارة الى أهمية هذا الباب فقال : هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن ، واسع التصرف، بعيد الخيانة، لا يزل يفترق من بديعة ، وينفض بك الى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرا يروك مسمعه ، ويلطف ليدك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن أراقك ولطف عندك ، أن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان الى مكان (٩) .

وبين عبد القاهر عدم اهتمام المتقدمين ببحث أسرار هذا الباب واكفائهم بقولهم في الشيء المقدم : انه قدم للعناية ولما كان بيانه أهم . كما قال سيبويه وهو يذكر الفاعل والمفعول (١٠) : كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، هم ببيانه أغنى ، ان كانا جميعا يهمانهم وبغنيانهم « ولم يذكر في ذلك مثالا (١١) » .

وذكر عبد القاهر تفسير النحويين لكلام سيبويه فقالوا : اذا كان يعنى الناس في فعل ما من وقع عليه هذا الفعل دون الذي أوقعه فانهم يقدمون المفعول على الفاعل ، واذا كان يعنيه في فعل ما من الذي أوقعه وانهم أوقعه وأحدثه فانهم في هذه الحالة يقدمون الفاعل على المفعول ...

(٩) دلائل الاعجاز : ١٠٦ .

(١٠) الكتاب : ١٥/١٤/١ .

(١١) دلائل الاعجاز : ١٠٧ .

واستجاد عبد القاهر هذا التفسير وقال : انه ينبغي أن يعرف في كل شيء قدم في موضع من الكلام مثل هذا المعنى ويفسر وجه العناية فيه هذا التفسير .

وبين عبد القاهر أنه لا يكفي أن يقال في الشيء : انه قدم للعناية ولأن ذكره أهم من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ؟ وبم كان أهم .

ولظن الناس أن هذا كاف في بيان سر التقديم صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم وهونوا الخطب فيه ، حتى رأى أكثرهم أن تتبعه والنظر غيه ضرب من التكلف ! وكذلك صرفوا النظر عن سائر أبواب البلاغة الهامة ، كالحذف والتكرار والاظهار والاضمار ، والفصل والوصل (١٢) ش

وينبغي الامام على هؤلاء متساهلهم في أمر هذه الأبواب ، وبين أن ظنهم هذا قد أضرى بهم ، وذهب بهم عن معرفة البلاغة ومنعهم أن يعرفوا : مقاديرها ، وصددهم عن الجهة التي هي فيها .

ويتساءل الامام في عجب : ان كانت هذه أموراً هينة ميسورة ، من أين كان نظم أشرف من نظم ؟ وبم عظم التفاروت واشتد التباين وترقى الأمر الى الاعجاز ، والى أن يقر أعناق الجبابرة ؟

أو وهنا أمور تحيل في المزيه عليها ، ونجعل الاعجاز كان بها ، فتكون تلك الحوالة لنا عذرا في ترك النظر في هذه التي معنا، والاعراض عنها ، بوقلة المبالاة بها ؟

ويشتد الامام على هؤلاء المتساهلين ويعظم افكاره عليهم فيقرر

أن هذا التهاون أن نظر العاقل ، خيانة منه لعقله ودينه ، ودخولا فيما
بذى الخطر ويغض من قدر ذوى القدر •

ويزداد عجب عبد القاهر من أمر هؤلاء الناس حيث يهتمون
بالأمور التى لا تدل على الاعجاز ولا يضر عدم معرفتها ، ويتهاونون فى
موضوعات البلاغة التى هى دلائل الاعجاز آيات الفضل والامتنياز
فيقول :

وهل يكون أضعف رأيا ، وأبعد من حسن التدبر منك إذا أهملك
أن تعرف الوجوه فى « أفذرتهم » والامالة فى « رأى القمر » وتعرف
« الصراط » و « الزراط » وأشباه ذلك مما لا يعدو علمك فيه اللفظ
وجرس الصوت ، ولا يمنعك أن لم تعلمه بلاغة ولا يدفعك عن بيان ،
ولا يدخل عليك شك ، ولا يغلق دونك باب معرفة ولا يقضى بك الى
تحريف وتبديل ، والى الخطأ فى تأويل ، والى ما يعظم فيه المعاب
عليك ، ويحطيل لسان القادح فيك ، ولا يعنيك ولا يهملك أن تعرف ما
إذا جهلته عرضت نفسك لكل ذلك ... وكان أكثر كلامك فى التفسير ،
وحيث تخوض فى التأويل ، كلام من لا يبنى الشئ على أصله ،
ولا يأخذه من مأخذه ، ومن ربما وقع فى الفاحش من الخطأ الذى
يبقى عاره وتشنع آثاره (١٣) •

والقديم فى الأساليب البليغة لابد من سر يقتضيه ، وعلة ترجحه ،
ومن ثم بين الامام أن من الخطأ أن يجعل التقديم مفيدا فى بعض
الكلام ، وغير مفيد فى بعض ، وأن يعطل قارة بالعناية وأخرى
بأنه توسعة على الشاعر والكاتب حتى تطرد لهذا قوافيه ، ولذلك
سجعه ، ذلك لأن من البعيد أن يكون فى جملة المنظوم ما يدل قارة
ولا يدل أخرى ، فتمنى ثبت فى تقديم المفعول مثلا فى كثير الكلام أنه

نقد اختص بمساعدة لا تكون تلك الفائدة مع التأخير فقد وجب أن تكون تلك القضية في كل شيء وكل حال (١٤) •

ونظرة فيما نقلناه من نصوص عن الإمام عبد القاهر نجده يقرر ما يلي :

١ - تهاون كثير من الناس في فهم الموضوعات البلاغية وتفريطهم في العلم بها والبحث في أسرارها •

وإذا كان هذا مما لاحظته الإمام وعابه على المتقدمين ، فإنه قد تجد وزاد في هذا العصر حتى برزت الدعوات إلى هدم البلاغة العربية ، وهجر اللغة الفصحى بوجه علم ، مما يقتضي من العلماء والمهتمين بأمر الإسلام والعروبة وقفة صلبة في وجه هذه الدعوات •

٢ - طرح الأحكام العامة في الحكم على الأساليب ، ورفض النقد الذي لا يقوم على التحليل والتعليق ، وكشف أسرار التراكيب وأظهار خصائص الأساليب •

٣ - تفاوت النظم تبعاً لما فيه من خصائص وسمات ، وارتقاء النظم على غيره بسبب اشتماله على هذه الخصائص حتى فصل إلى أعلى نظم وأرفعه ، والذي بانح حد الإعجاز وهو القرآن الكريم •

٤ - علوم البلاغة هي التي تكشف عن إعجاز القرآن الكريم ، وتعين المفسر على فهم كتاب الله فهمها صحيحاً خالياً من الخطأ ، ومن ثم يتعين على الناظر في كتاب الله لتفسيره أن يحيط علماً بها •

ولا تغنى المعرفة بوجوه القراءات وغيرها من الأهرار اللفظية في فهم القرآن ، بل لابد من البراعة في البلاغة والبيان ، لتتحقق السلامة من الأخطاء في تفسير آيات الله وتأويلها •

ولا يفهم من كلام عبد القاهر أنه يدعو إلى إهمال علم من العلوم كعلم القراءات أو غيره ، فهذا ما لا يقصده بحال ، إنما يقصد بكلامه بيان أهمية البلاغة في كتاب الله ومعرفته اعجازه ، وانها أولى بالمعرفة والاتقان في هذا المجال .

وقد تأثر الزمخشري بهذه الفكرة ، وذكرها في مقدمة تفسيره قبين أن علم التفسير لا يتم تعاطيه ، واجالة النظر فيه إلا لرجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما : علم المعاني وعلم البيان (١٥) .

٥ - للتقديم والتأخير في الأساليب فوائد وأسرار تتطلب البحث عنها ، ولا يصح الاكتفاء بتعليقها بالعناية ، أو ببعض الألفاظ كمرعاة السجع والقوافي وغير ذلك ، ومن ثم نرى أن تعليل البلاغيين لبعض صور التقديم والحذف بأنها للمحافظة على السجع ، أو الفاصلة ، تعليل سطحي ، ينبغي عدم الاقتصار عليه ، ويلزم التأمل في الأساليب التي عللوا بها ذلك للبحث فيها عن أسرار معنوية عميقة .

أقسام التقديم :

قسم الامام التقديم إلى قسمين (١٦) :

أولهما : تقديم على نية التأخير ، وذلك في كل شيء أقررت مع التقديم على حكمه الذي كان عليه وفي جنسه الذي كان فيه كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ والمفعول إذا قدمته على الفاعل ، كقولك : منطلق زيد ، وضرب عمرا زيد ، فمعاوم أن « منطلق » و « عمرا » لم يخرجوا بالتقديم عما كانا عليه ، من كون هذا خبر مبتدأ ومرفوعة بذلك وكون ذلك مفعولا ومنصوبا من آجله ، كما يكون إذا أخرت .

(١٥) الكشف : ١٥/١ ، ١٦ .

(١٦) دلائل الاعجاز : ١٠٦ .

ثانيهما : تقديم لا على نية التأخير وذلك في كل شيء نقل بسبب التقديم من حكم ومن اعراب الى اعراب : ومثال ذلك : أن تجيء الى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ، ويكون الآخر خبرا لله ، فتقدم تارة هذا على ذاك ، وأخرى ذاك على هذا ومثال ذلك : ما تصنعه يزيد والمنطلق ، حيث تقول مرة : زيد المنطلق وأخرى : المنطلق زيد ، فأنت في هذا لم تقدم « المنطلق » على أن يكون متروكا على حكمه الذي كان عليه مع التأخير ، فيكون خبر مبتدأ كما كان ، بل على أن تنتقله عن كونه خبرا الى كونه مبتدأ ، وكذلك لم تؤخر « زيدا » على أن يكون مبتدأ كما كان ، بل على أن تخرجه عن كونه مبتدأ الى كونه خبرا .

ثم تناول الامام عبد القاهر بعد ذلك أسرار التقديم في الأساليب المختلفة ، فتكلم عن التقديم في الاستفهام ، والتقديم في النفي ، والتقديم في الخبر المثبت والنفي وتقديم مثل وغير ، وتقديم النكرة وتقديم ألفاظ العموم وسنعرض لما ذكره في كل ذلك .

أولا : التقديم والتأخير في الاستفهام :

١ - تقديم المسند اليه وتأخيره :

تحدث عن عبد القاهر عن تقديم المسند اليه وتأخيره على الفعل الماضي ، والفعل المضارع في حال الاستفهام الحقيقي وغير الحقيقي ومحور كلامه في كل ذلك : أن المستفهم عنه هو ما يلي الهمزة ، فإذا قدمت الفعل وبدأت به كان الشك في الفعل نفسه وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده ، وإذا قدمت الاسم وبدأت به كان الشك في الفاعل من هو ، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم من هو الفاعل .

وبدا ببيان في الاستفهام الحقيقي فقال : تقول : أينيت الدار التي كنت على أن تبنيها ؟ أقلت الشعر الذي كان في نفسك أن تقوله ؟

أفرغت من الكتاب الذى كنت تكتبه ؟ تبدأ فى هذا ونحوه وبالفعل لأن السؤال عن الفعل نفسه ، والشك فيه ، لأنك فى جميع ذلك متردد فى وجود الفعل وانتفائه ، فيجوز أن يكون قد وقع ، وأن يكون لم يقع .

وتقول : أنت بنيت هذه الدار ؟ أنت قلت هذا الشعر ؟ أنت كتبت هذا الكتاب ؟ فتبدأ فى هذا كله بالاسم ، لأنك لم تشك فى وقوع الفعل ، بدليل أنك أشرت إليه واقعاً ، وإنما شككت فى الفاعل من هو ؟ أنت أم غيرك (١٧) .

وعلى هذا النحو تجيء الأساليب العربية ، فيقدم فيها ما يستفهم عنه ، وما يشك فيه ، من فعل ، أو فاعل ، أو مفعول ، أو حال ، أو غير ذلك .

فاذا قدم المتكلم ما لا يشك فيه ، ولا يستفهم عنه ، كان كلامه فاسداً وقد بين عبدالقاهر هذا فقال : فلو قلت : أنت بنيت الدار التى كنت على أن تبنيها ؟ أنت قلت الشعر الذى كان فى نفسك أن تقوله ؟ أنت فرغت من الكتاب الذى كنت تكتبه ؟ — وأنت تشك فى المفعول وتساءل عن وقوعه من عدمه — خرجت من كلام الناس .

وكذلك لو قلت : أبنييت هذه الدار ؟ أقلت هذا الشعر ؟ أكتبت هذا الكتاب ؟ — وأنت تشك فى الفاعل وتساءل من هو ؟ — قلت ما ليس بقول ؟ ذلك فساد أن تقول فى الشيء المشاهد الذى هو نصب عينيك أموجود أم لا (١٨) .

وقد علل الامام فساد الكلام الأخير بعلّة عقلية قوية ، فان إشارة المتكلم الى الفعل تقتضى وجوده ، وتقديم الفعل يقتضى الاستفهام عن

(١٧) ١ ، ٢ دلائل الاعجاز ١١١ ، ١١٢ .

(١٨) دلائل الاعجاز : ١١١ ، ١١٢ .

وجوده، وفي هذا تناقض ، كذلك لا يعقل أن يستفهم الإنسان عن وجود شيء موجود وهو يشاهده ويشير إليه .

ولم يعمل عبد القاهر فساد الكلام الذي قبله ، وعلّة فساده ظاهرة وهي : أن تقديم الفاعل يقتضي وقوع الفعل ووجوده ، وأن الاستفهام عن فاعله من هو ؟ وقولك : القى كنت على أن تبنيها وما يشبهها في باقى الأمثلة يفيد أن الشك في الفعل وأن المطلوب معرفة وقوعه من عدم وقوعه (١٩) .

ورأى عبد القاهر في فساد الأمثلة السابقة وما شاكلها مخالف لرأى سيبويه الذي أجازها وحكم عليها بالصحة ، وبين أن المسئول عنه في قولك : أزيد عندك أم عمر ؟ وأزيدا لقيت أم بشرا ؟ هو أحد الشخصين، وفي هذه الحالة يكون تقديم الاسم أحسن ، ولو قلت فيه : أعندك زيد أم عمرا ؟ وألقيت زيدا أم بشرا ؟ كان جائزا حسنا ولكن تقديم الاسم أحسن منه وإذا سألت عن الفعل قلت : أضربت زيدا أم قتلته ؟ فتبدأ بالفعل وهو الأحسن (٢٠) .

ومن هذا نرى أن رأى عبد القاهر مخالف لرأى سيبويه في الحكم على هذه الأمثلة ونحوها .

وقد ذكر الدماميني رأى سيبويه السابق ، وقال ان مثل هذا الرأى لابن عصفور في المقرب ، وعلق الشمس الأنجاسى على ما ذكره الدماميني بقوله : ان كان مراده بيان طريقة النحاة فالأمر ظاهر ، وان كان مراده معارضة كلام المصنف بكلامهم ففيه أنه لا يعترض بمذهب

(١٩) ينظر دلالات التراكيب : ٢١٧ .

(٢٠) الكتاب ١/ ٤٨٣ ، ٤٨٧ .

- على مذهب ، لأنه قد يكون الأحسن عند النحوى واجبا عند البلاينغ .
- على أنه يمكن حمل كلام المصنف على الأحسنية (٢١) .

وناقش الأستاذ / الدكتور محمد أبو موسى هذه المسألة في كتابه « البلاغة القرآنية » ولم يسلم بحمل كلام عبد القاهر على الأحسنية ، وقال أن عبارته صريحة في أن هذا الأسلوب فاسد وخطأ وخارج من كلام الناس ، وأيد رأى سيديويه في صحة هذا الأسلوب لأنه شافه الأعراب ونقل عنهم ولم ينتهيا مثل هذا لعبد القاهر (٢٢) .

وعاد الدكتور أبو موسى لهذه المسألة في كتابه « دلالات التراكيب » وقال : أن الجواز الذي ذكره سيديويه لا مشاحة فيه ، وما ذكره عبد القاهر مما يتصادم مع كلام سيديويه إنما هو الأسلوب الأشهر والأفصح ، وإن عبد القاهر مخالفته خروجاً عن كلام الناس ، وفي عبارة سيديويه ما يشير إلى ضعف الأسلوب الذي رفضه عبد القاهر (٢٣) وأرى بعد عرض هذه الآراء أن كلا من الشيخين قد حكم على الأساليب بمقتضى مذهبه : فسيديويه يحكم على التركيب من منطلق الصحة النحوية ومن ثم رأى جواز هذه الأساليب لعدم مخالفتها للقواعد النحوية .

وعبد القاهر يحكم على التركيب من منطلق الصياغة البلاغية التي ترتفع فوق مستوى الصحة النحوية لتنتقى أفضل الأساليب الجائزة وأفصحها ، وترفض ما عداها .

ومن ثم قد يجيز بعض الفصاة أسلوباً ، ويرى فيه البلاغيون خروجاً عن قواعد الفصاحة ومراسم البلاغة ، كما في أمثلة ضعف التأليف والتعقيد .

(٢١) تجريد البناني مع تقرير الشمس الانبائى : ١١٤/٣ .

(٢٢) البلاغة القرآنية : ١٠٢ - ١٠٤ .

وعلى أساس الصياغة البلاغية التي تبحث عن أفضل الأساليب
رض عبد القاهر الأمثلة السابقة دون نظر إلى جوازها نحويًا .

ويمكن أن يكون قول عبد القاهر : خرجت من كلام الناس ،
مؤيداً لما ذكرناه من حيث يكون قصده بكلام الناس : كلام الفصحاء
والبلغاء لا الكلام .

ويؤكد الأمام عبد القاهر ما سبق أن ذكره من أن المستقيم عنه
هو ما يلي الهمزة ، وأن تقديم الفعل يقتضى أن يكون الشك فيه ،
والسؤال عن وقوعه أو عدم وقوعه ، وأن تقديم الاسم يقتضى أن يكون
الشك فيه والمطلوب ببيان من هو ؟ فيقول :

ومما يعلم به ضرورة أنه لا تكون البداية بالفعل كالبداية بالاسم ،
أنك تقول : أثقلت شعرا قط ؟ رأيت اليوم انسانا فيكون كلاما مستقيما ،
ولو قلت : انت قلت شعرا لا معنى للسؤال عن الفاعل من هو في مثل هذا ،
بالمحال — وذاك انه لا معنى للسؤال عن الفاعل من هو في مثل هذا ،
لأن ذلك انما يتصور اذا كانت الاشارة الى فعل مخصوص نحسو أن
تقول : من قال هذا الشعر ؟ ومن بنى هذه المدار ؟ ومن أثاك اليوم ؟
ومن أذن لك فى الذى فعلت ؟ وما أشبه ذلك مما يمكن أن ينص فيه
على معين ، فأما قيل شعر على الجملة ، ورؤية انسان على الإطلاق
فمحال ذلك فيه ، لأنه ليس مما يختص بهذا دون ذاك حتى يسأل عن
عين فاعله .

ولو كان تقديم الاسم لا يوجب ما ذكرنا ، من أن يكون السؤال
عن الفاعل من هو ؟ وكان يصح أن يكون سؤالا عن الفعل أكان أم لم
يكن ؟ لكان ينبغى أن يستقيم ذلك (٢٤) .

(٢٣) دلالات التراكيب : ٢١٩ .

(٢٤) دلالات الاعجاز : ١١٢ .

الاستفهام الحقيقي ، أخذ في بيان ذلك في الاستفهام التقريري ، فذكر أن الأمر فيه لا يختلف عن سابقه ، فإذا قدم الاسم كان الغرض التقرير به ، وإذا قدم الفعل كان الغرض التقرير به .

ومثل للتقرير بالفاعل بقوله تعالى حكاية عن قول نمرود : (أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم) (٢٧) فلا شبهة في أنهم لم يقولوا ذلك لإبراهيم عليه السلام وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد وقع منه بدليل أنهم أشاروا إلى الفعل في قولهم : «أنت فعلت هذا؟» وقال هو في الجواب : (بل فعله كبيرهم هذا) (٢٨) ، ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب : فعلت ، أو : لم أفعل (٢٩) .

وقد استدل عبد القاهر على أن التقرير في الآية تقرير بالفاعل بداليتين :

أولهما : أشارتهم إلى الفعل واقعا وحادثا ، ولا يعقل أن يسألوا عنه وهم يشيرون إليه .

ثانيهما : جواب إبراهيم عليه السلام بتعيين الفاعل ، ولو كان سؤالهم عن الفعل لقال : فعلت أو لم أفعل .

ويشير الامام سؤالا عن الفرق بين التقرير بالفاعل والتقرير بالفعل هو : أنك إذا قلت : أنت فعلت ؟ كان غرضك أن تقرره بأن الفعل كان منه ، لا بأنه كان على الجملة ، فأى فرق بين الحالين ؟

ويجيب عن هذا التساؤل بقوله : إذا قال : أفعلت ؟ فهو يقرره بالفعل من غير أن يردده بينه وبين غيره ، وكان كلامه من يومهم أنه

(٢٧) الأنبياء ٦٢ .

(٢٨) السابق : ٦٣ .

(٢٩) دلائل الإعجاز : ٢١٣ .

لا يدري أن ذلك الفعل كان على الحقيقة ، وإذا قال : أنت فعلت كان قد ردد الفعل بينه وبين غيره ، ولم يكن منه تردد في وقوع نفس الفعل ، وكلامه لا يوهم أنه لا يدري أوقع ذلك الفعل أم لم يقع ، بدليل أنه يقول ذلك ، والفعل ظاهر موجود مشار إليه كما في الآية (٣٠) .

الاستفهام الانكاري :

وخرج عبد القاهر من الاستفهام التقريرى الى بيان سر التقديم في الاستفهام الانكارى وأنه لا يختلف عن الأصل الذى ذكره ، فإذا قدم الفعل كان الانكار موجه الى الفعل ، وإذا قدم الاسم كان الانكار موجه الى الاسم ، ومثل في ذلك بقوله تعالى : (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا انكم لتقولون قولا عظيما) (٣١) وقوله تعالى (اصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون) (٣٢) وبين أن الانكار فيهما منصب على الفعل وهو انكار أن يكون الفعل قد كان من أصله وقد سماه البلاغيون : الانكار التكذيبى .

وأشار الى أن الاسم اذا قدم في هذا صار الانكار في الفاعل كقواك للرجل قد انتحل شعرا : أنت قلت هذا الشعر ؟ كذبت ، لست ممن يحسن مثله ، فأنكرت أن يكون القائل ، ولم تتذكر الشعر (٣٣) .
وتحدث عن صورة أخرى من صور انكار الفعل ، يأتي التركيب فيها على صورة انكار الفاعل ، وضابطها كما يفهم من كلام عبد القاهر : أن يلى الهمزة معمول الفعل المنكر ، ويكون المراد انكار الفعل ، ولا يكون للفعل غير ذلك المعمول من كونه واقعا منه أو عليه ، أو زمانا

(٣٠) السابق : ١١٤ .

(٣١) الاسراء : ٤٠ .

(٣٢) الصافات : ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٣٣) دلائل الإعجاز : ١١٥ .

له ، أو مكانا ، فحيث انتفى ذلك المعمول انتفى الفعل لزوم لأنه ليس له الا ذلك المعمول . ومنها قوله تعالى : (قل الله أذن لكم أم على الله تفترون) (٣٤) ، الاذن راجع الى قوله تعالى (قل رأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا) (٣٥) ومعلوم ان المعنى على انكار أن يكون اذن من الله فيما قالوه من غير أن يكون هذا الاذن قد كان من غير الله تعالى فأضافوه الى الله ، الا أن اللفظ أخرج على هيئة انكار الفاعل ، لأنه لا فاعل للفعل غيره ، فاذا انتفى الفاعل فقد انتفى الفعل من أصله .

ومنه قوله تعالى : (قل الذكركم حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين) (٣٦) أخرج اللفظ مخرجه اذا كان قد ثبت تحريم في أحد أشياء ، ثم أريد معرفة عين المحرم ، مع أن المراد انكار التحريم من أصله ونفى أن يكون قد حرم شيء مما ذكروا أنه محرم وذلك أن الكلام وضع على أن يجعل التحريم كأنه قد كان ثم يقال لهم : أخبرونا عن هذا التحريم الذي زعمتم ، فيم هو ؟ أفى هذا أم ذاك أم في الثالث ؟ ليتبين بطلان قولهم ، ويظهر مكان الفرية منهم على الله تعالى (٣٧) .

التقديم في الاستفهام والفعل مضارع :

كان حديث الامام فيما سبق عن التقديم في الاستفهام والفعل مضارع ، ومن ثم أخذ في الحديث عنه والفعل مضارع .

(٣٤) سورة يونس : ٥٩ .

(٣٥) سورة يونس : ٥٩ .

(٣٦) الأنعام : ١٤٣ .

(٣٧) دلائل الإعجاز : ١١٥ .

والأصل الذى قرره بعد القاهر من أن المقدم هو المذوط بالكلام
فعلا أو اسما أصل يجرى فى جميع الحالات ولا يختلف الكلام إلا فى
الأغراض التى يفيدها كل أسلوب .

وقد بين أن الفعل المضارع قد يراد به الحال أو الاستقبال .

فاذا قلت : أتفعل ؟ وأنت تريد الحال ، كان المعنى على أنك أردت
أن تقرره بفعل هو يفعله ، وكنت كمن يوهم أنه لا يعلم بالحقيقة
أن الفعل كائن .

وإذا قلت : أنت تفعل ؟ كان المعنى على أنك تريد أن تقرره
بأنه النازل وكان أمر الفعل فى وجوده ظاهرا ، ولا يحتاج إلى الاقرار
بأنه كائن .

وان كنت تريد بالمضارع المستقبل ، وبدأت بالفعل فقلت : أتفعل ؟
كان المعنى أنك عمدت بالانكار إلى الفعل نفسه ، وتزعم أنه لا يكون
أو أنه لا ينبغى أن يكون فمثال الأول قول الشاعر :

أبقتلنى والمشرقى مضاجعى ومسنونة زرق كانياب أغوال

فهذا تكذيب منه لانسان تهدده بالقتل ، وانكار أن يقدر على
ذلك ويستطيعه ومثال الثانى قولك لرجل يركب الخطر : أتخرج فى
هذا الوقت ؟ أتذهب فى غير الطريق ؟ أتغرر بنفسك ؟

وقد سمي البلاغيون القسم الأول : الانكار التذيبى ، وهو ما
يتوجه الانكار فيه إلى نفس الفعل ، والقسم الثانى : الانكار
التوبيخى ، وهو ما يتوجه الانكار فيه إلى الانبغاء .

وإذا بدأت بالاسم فى المضارع المستقبل فقلت : أنت تفعل ؟
أو قلت : أهو يفعل ؟ كت وجهت الانكار إلى نفس الاسم المذكور

وأبليت أن تكون بموضع أن يجيء منه الفعل ومن يجيء منه ، وأن يكون
بمقتك المثابة (٣٨) •

وبهذا يؤكد الامام الأصل الذي ذكره في أول الباب من أن تقديم
الفعل يقتضى أن يكون الكلام موجهًا الى الفعل وتقديم الاسم يقتضى
أن يكون الكلام موجهًا الى الاسم •

٢ - تقديم المفعول في الاستفهام :

والأمثلة التي ذكرها الامام فيما سبق كانت في الحديث عن المفعول
والفاعل ، والأصل الذي ذكره ومضى في اثباته أصل عام لا يخص
الفعل والفاعل فقط ولكنه ينطبق على المفعول والفاعل غير ذلك ، ومن
ثم أخذ الامام في تعميم هذا الأصل ، فتحدث عن تقديم المفعول
وأسراره •

وقد بين أن حال المفعول في كل ما ذكره بحال الفاعل ، فتقديم
المفعول يقتضى أن يكون الكلام موجهًا اليه •

فاذا قصدت الإنكار وقلت : أزيذا تضرب ؟ كنت قد أنكرت
أن يكون زيد بمثابة أن يضرب ، أو بدو وضع أن يجتريه عليه ويستجاز
ذلك فيه ، ومن أجل ذلك قدم « غير » في قوله تعالى (قل أغير الله
أأخذ وليا) (٤٠) وكان له من الحسن والمزية والفخامة ما لا يكون له أو
آخر فقيل : قل أأخذ غير الله وليا ؟ وأتدعون غير الله ؟ وذلك لأنه قد
حصل بالتقديم معنى قواك : أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا ؟
وأيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ؟ وأيكون جهل أجهل وعمى أعمى

(٣٨) دلائل الإعجاز : ١١٦ ، ١١٧ •

(٣٩) الأنعام : ١٤ •

(٤٠) الأنعام : ٤٠ •

من ذلك ؟ ولا يكون شيء من ذلك اذا قدم الفعل وذلك لأن الانكار حينئذ سينصب على أن يكون الفعل فقط ولا يزيد على ذلك (٤١) وبهذا ينتهي حديث الامام عن التقديم في الاستفهام .

ثانيا : التقديم والتأخير في النفي :

١ - تقديم المسند اليه وتأخيره :

تحدث الامام في هذا الفصل عن تقديم المسند اليه وتأخيره على الفعل في حال مجيء المسند اليه بعد النفي .

ويبدو حديثه حول أصل ثابت هو :

أن تقديم الفعل في النفي يقتضي نفي الفعل عن الفاعل ولا يقتضي ثبوت وقوع هذا الفعل ؟ وأن تقديم الفاعل يقتضي نفي الفعل عن الفاعل ويقتضي ثبوت هذا الفعل ووقوعه من غيره .

يبين الامام ذلك فيقول : اذا قلت : ما فعلت ، كنت نفيت عنك فعلا لم يثبت أنه مفعول ، واذا قلت : ما أنا فعالت ، كنت نفيت فعلا ثبت أنه مفعول .

تفسير ذلك : انك اذا قلت : ما ضربت زيدا ، كنت نفيت عنك ضربه ، ولم يجب أن يكون قد ضرب ، بل يجوز أن يكون ضربه غيرك وأن لا يكون قد ضرب أصلا ، واذا قلت : ما أنا ضربت زيدا ، لم تقله الا وزيد مضروب ، وكان القصد أن تنفي أن تكون أنت الضارب (٤٢) وبهذا يكون تقديم الفاعل على الفعل في النفي مفيدا للتخصيص في رأي الامام عبد القاهر .

(٤١) دلائل الاعجاز : ١٢١ ، ١٢٢ .

(٤٢) دلائل الاعجاز : ١٢٤ .

ويؤكد على أن تقديم الاسم يقتضى وجود الفعل بمثال بين هو قول المتنبي :

وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضربت في القلب نارا

فالمعنى كما لا يخفى ، على أن السقم ثابت موجود ، وليس القصد بالنفى اليه ، ولكن الى أن يكون هو الجالب له ، ويكون قد جره الى نفسه (٤٣) ويترتب على هذا الفرق بين تقديم الفعل وتقديم الاسم صحة بعض الأساليب وفساد بعضها ، وهى فى نفس الوقت دليل على وجود هذا الفرق .

ففى حالة تقديم الفعل يصلح أن يكون المنفى عاما كقولك : ما قلت شعرا قط ؟ وما أكلت اليوم شيئا ؟ وما رأيت أحدا من الناس .

وفى حالة تقديم الاسم لا يصلح ذلك ، فيكون قولك : ما أنا قلت شعرا قط ؟ وما أنا أكلت اليوم شيئا ؟ وما أنا رأيت أحدا من الناس ، فاسدا .

وقد عأل الامام فساد هذا بقوله : لأنه يقتضى المحال ، وهو أن يكون ههنا انسان قد قال كل شعر فى الدنيا ، وأكل كل شيء يؤكل ، ورأى كل أحد من الناس ، فنقيت أن تكونه (٤٤) ولتفصيل هذه المسألة نقول : ان الامام عبد القاهر وجمهور البلاغيين يرون أن قولك ما أنا أهنت خالدا يقتضى ثلاثة أمور هى :

- ١ - التخصيص ، أى قصر نفى الفعل على الاسم المتقدم .
- ٢ - ثبوت لما فعل وتسلم حصوله ، وأنه منفى عن المسند اليه المقدم .

(٤٣) السابق : ١٢٥ .

(٤٤) السابق : ١٢٤ .

٣ - أن ثبوت الفعل لغير المسند إليه يكون على حسب النفي
عموما وخصوصا (٤٥) •

وبناء على هذا الأهر الثالث كانت الأمثلة السابقة فاسدة وذلك
لأن القائل نفى عن نفسه الأفعال نفيا عاما ، ويترتب على ذلك أن تثبت
لغيره ثبوتا عاما ، فيكون انسان قد قال كل شعر في الدنيا ، وأكل كل
شيء يؤكل ، ورأى كل أحد من الناس •

وانما صحت الأمثلة التي قدم فيها الفعل مع أن النفي فيها عام ،
لأن ثبوت الفعل فيها غير مسلم ، فصح نفيه ، ولا يلزم من ذلك
الفساد ، لأنه منفي من أصله فلم يثبت بصورة العموم لأحد
مطلقا (٤٦) •

وساق عبد القاهر دليلان آخرين يؤكد بهما الفرق بين تقديم
الفعل وتقديم الاسم في النفي •

أولهما : أنه يصح لك أن تقول : ما قلت هذا ، ولا قاله أحد من
الناس ، وما ضربت زيدا ولا ضربه أحد سوى ، ولا يصح أن تقول :
ما أنا قلت هذا ولا قاله أحد من الناس ، وما أنا ضربت زيدا ولا ضربه
أحد سوى ، بتقديم الاسم على الفعل لما في الأسلوب من التناقض •
وإذا قلت بعده : ولا قاله أحد من الناس ، حدث تناقض بين
مفهوم الجملة الأولى ومنطوق الجملة الثانية •

وكذلك إذا قلت : ما أنا ضربت زيدا ، أفدت نفى ضرب زيد عن
نفسك وأثبتته لغيرك ، فإذا قلت بعده : ولا ضربه سوى ، حصل
تناقض بين مفهوم الجملة الأولى ومنطوق الجملة الثانية (٤٧) •

(٤٥) نظرات في البلاغة : ١٥٥ •

(٤٦) السابق : ١٥٧ ، وينظر المطول : ١١١ •

(٤٧) ينظر دلائل الإعجاز : ١٢٥ •

ولبطلان هذا الأسلوب وجه آخر هو : أن هذا التركيب يفيد ثبوت القول والضرب ، ونفيهما عنك ، ونفيهما عن جميع من عداك ، وعليه يازم ثبوت قول من غير قائل ، وضرب من غير ضارب ، وهذا محال (٤٨) .

ثانيهما : أنه يصح أن تقول : ما ضربت الا زيدا ، بتقديم الفعل ، ولو قلت : ما أنا ضربت الا زيدا ، كان لغوا من القول لا يصح .

وقد علل عبد القاهر فساد هذا القول بأن نقض النفي بـ « الا » يقتضى أن تكون ضربت زيدا ، وتقديمه ضميرك ، وإيلاؤه حرف النفي يقتضى أن لا تكون ضربته ، فهما يتدافعان (٤٩) وقد علل السكاكي فساد هذا الأسلوب بنفس هذه العلة (٥٠) .

وعلل الخطيب فساد هذا القول بعلّة أخرى هي : أن هذا التعبير يفيد نفي ضرب المتكلم لكل واحد منهم سوى زيد ، ويترتب على هذا أن انسانا غير المتكلم قد ضرب كل واحد منهم ماعدا زيدا وهذا محال (٥١) .

وبهذين الدليلين ، والدلائل السابق عليهما أثبت عبد القاهر الفرق بين تقديم الفعل وتقديم الاسم في النفي .

وقد رأينا أنه حكم على بعض الأساليب بالفساد ، وبين علة فسادها ، ويازم لتصحيح هذه الأساليب أن يقدم الفعل فيها على الاسم ، فيقال : ما قلت شعرا قط ، أو ما قلت أنا شعرا قط ، أو ما ضربت أنا الا زيدا أو ما رأيت أنا أحدا من الناس .

(٤٨) دراسات تفصيلية : ٢٦٧ .

(٤٩) دلائل الإعجاز : ١٢٦ .

(٥٠) مفتاح العلوم : ١١١ .

(٥١) الايضاح : ٥٤/٢ .

أو يقدم الاسم على النفي فيقال : أنا ما قلت شعرا قط ، وأنا ما رأيت
أحدا من الناس ، وبهذا تصح هذه الأساليب (٥٢) .

ويرى الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى أن الذي ذكره
عبد القاهر من أن تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى مع كونه واليا
حرف النفي يفيد التخصيص قطعا ليس على إطلاقه ، وإنما هو أمر
غالب لا لازم ، لأن المتكلم حتى يسلط النفي على الفاعل لا يلزم منه
ثبوت الفعل ، لأن الفعل مسكوت عنه ، فيمكن أن يكون ثابتا كما
في أمثلة الاختصاص التي ذكرها عبد القاهر ، وقد يكون غير ثابت كما في
قولنا : ما أنا قلت هذا ، أي هذا الذي تزعمون أنه قيل ، وقد
جاء هذا التركيب في القرآن الكريم من غير أن يكون دالا على الاختصاص
وذلك كقوله تعالى : (أو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم
النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهم
فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) (٥٣) فقوله : « ولا هم ينصرون »
« ولا هم ينظرون » قدم فيه المسند إليه على الخبر الفعلى وهو
مسبوق بحرف النفي ومع هذا يفيد التقوية فقط ، لأن الاختصاص
يعنى أن غيرهم ينصر من عذاب الله وينظر حين تأتية الساعة وذلك
لا يكون (٥٤) .

وأرى أنه يمكن فهم ما في الآيتين على التخصيص ، ويكون
المراد — والله أعلم — أنه فرض أن هناك من ينصرون ومن ينظرون
فهؤلاء الكافرون لا ينصرون ولا ينظرون ، مع اليقين بأنه لا نصر
ولا انظار لأحد ، وفي هذا الأسلوب تنديد وتعريض بهم ، وتقطيع
لحالهم ببيان اختصاصهم بذلك ، نظرا لما ارتكبوه من ذنب عظيم .

(٥٢) المطول : ١١١ ، والإيضاح : ٥٣/٢ ، ٥٤ .

(٥٣) الأنبياء : ٣٩ ، ٤٠ .

(٥٤) خصائص التراكيب : ١٧٩ .

٢ - تقديم المفعول في النفي :

وهذا الأصل الذي ذكره الامام في تقديم المسند اليه وتأخير في النفي طبقه أيضا على تقديم المفعول وتأخير ، فقال : اذا قلت ما ضربت زيدا ، فقدمت الفعل كان المعنى انك قد نفيت أن يكون قد وقع ضرب منك على زيد ولم تعرض في أمر غيره لنفي ولا اثبات ، وتركته مبهما محتملا .

واذا قلت : ما زيدا ضربت ، فقدمت المفعول كان المعنى على أن ضربا وقع منك على انسان ، وظن أن الانسان زيد ، فنفيت أن يكون أياه (٥٥) .

فتقدم الفعل على المفعول يفيد نفي ضربك لزيد ، ولا يثبت أنك ضربت أحدا غيره أو بنفسه .

وتقديم المفعول على الفعل يفيد نفي ضربك لزيد ، ويثبت أنك ضربت أحدا غيره .

ويترتب على هذا أنه يصح أن تقول : ما ضربت زيدا ولا أحدا من الناس ، لأن الفعل غير متعين ثبوته ، فيصح نفيه من أصله . ولا يصح ان تقول : ما زيدا ضربت ولا أحدا من الناس ، لوقوع التناقض بين مفهوم الجملة الأولى ومنطوق الجملة الثانية ، لأن تقديم المفعول يفيد وقوع ضرب منك على أحد غير زيد تحقيقا لمعنى الاختصاص وقولك : ولا أحدا من الناس ينفي ذلك (٥٦) وبهذا يقسم التناقض المؤدى الى فساد الأسلوب .

وبناء على الأصل المذكور أيضا يصح لك أن تقول : ما ضربت زيدا ولكنى أكرمته ، فتعقب الفعل المنفي بإثبات فعل هو ضده ، لأن الفعل

(٥٥) دلائل الإعجاز : ١٢٦ .

(٥٦) المطول : ١٩٨ .

الأول غير ثابت ، فالخطأ وقع في الفعل فرددت الكلام الى الصواب وهو الاكرام .

ولا يصح أن تقول : ما زيدا ضربت ولكني أكرمته ، وذلك لأن الخطأ وقع في المضروب لا في الفعل ، فكان عليك أن ترد الكلام الى الصواب بتعيين المضروب ، حيث أن الضرب ثابت كما هو مقتضى تقديم المفعول ومن ثم كان عليك أن تقول : ما زيدا ضربت ولكن عمرا (٥٧) .

ومما سبق نرى أن تقديم المفعول على الفعل يفيد التخصيص في رأى الامام عبد القاهر .

والجار والمجرور يأخذ حكم المفعول في ذلك ، وقد أشار عبد القاهر لاي هذا فقال : وحكم الجار والمجرور في جميع ما ذكرنا حكم المنصوب ، فاذا قلت : ما أمرتك بهذا ، كان المعنى على نفى أن تكون قد أمرته بذلك ، ولم يجب أن تكون قد أمرته بشيء آخر واذا قلت : ما بهذا أمرتك ، كنت قد أمرته بشيء غيره (٥٨) .

فالفعل ثابت في حال تقديم الجار والمجرور عليه ، وغير مقطوع بثبوته أو نفيه في حال تقديمه على الجار والمجرور .

وبناء على هذا فلا يصح أن تقول : ما بهذا أمرتكم ولا غيره لوقوع التناقض بين مفهوم الجملة الأولى ومنطوق الثانية ، كما قدمنا .

وتسرى هذه الأحكام على الظروف والحال ونحو ذلك (٥٩) .

(٥٧) دلائل الاعجاز : ١٢٧ .

(٥٨) دلائل الاعجاز : ١٢٧ .

(٥٩) المطول : ١٩٨ .

ثالثا : التقديم في الخبر المثبت :

بعد أن فرغ الإمام من الحديث عن التقديم والتأخير في النفي عقد فصلا للحديث عن التقديم والتأخير في الخبر المثبت ، وقد بين في أوله أن تقديم الفاعل على الخبر الفعلي يقتضي أن يكون القصد بالحديث إلى الفاعل ، كما سبق في الاستفهام والنفي .

ثم قسم الغرض من تقديم الفاعل وقصده بالحديث إلى قسمين :

الأول : أن يكون الغرض قصر الفعل المذكور على المسند إليه المقدم .

والثاني : أن يكون الغرض إفادة تقوية الحكم وتوكيده .

والقسم الأول كما قال عبد القاهر ظاهر جلي لا يشكل ، قد بينه بقوله : هو أن يكون الفعل فعلا قد أردت أن تنص فيه على واحد فتجعله له ، وتزعم أنه فاعله دون واحد آخر ، أو دون كل أحد ومثال ذلك أن تقول : أنا كتبت في معنى فلان ، وأنا شفعت في بابہ تريد أن تدعى الانفراد بذلك والاستبداد به ، وتزيل الاشتباه فيه وترد على من زعم أن ذلك كان من غيرك ، أو أن غيرك قد كتب فيه كما كتب ، ومن المبين في ذلك قولهم في المثل : أتعلمني بصب أنا حرشته — أي صدته — وقد أوحى كلام عبد القاهر في هذا القسم إلى البلاغيين بتقسيم القصر إلى حقيقي وإضافي وتقسيم الإضافي إلى أفراد وقلب وتعين .

والقسم الثاني : قد فصل الإمام الحديث فيه فنذكر ضابطه ومثل له بعدد من الأمثلة وحللها دقيقا ، وذكر السر في أن هذا القسم يفيد التأكيد والتقوية ، ثم ساق ثمانية أدلة لاثبات أنه يفيد التقوية والتأكيد

وهي تدور حول استعمال هذا الأسلوب في المقامات التي تحتاج الى تقوية الكلام وتأكيده .

وضابط هذا القسم كما قال الامام : أن لا يكون المقصد الى الفاعل على معنى القصر ، ولكن على أنك أردت التحقق على السامع أنه قد فعل ، وتمنعه من الشك ، فأنت لذلك تبدأ بذكره وتوقعه أولاً ومن قبل أن تذكر الفعل في نفسه ، لكي تباعده بذلك من الشبهة، وتمنعه من الانكار ، أو من أن يظن بك الغلط أو التزيد .

ومثاله قولك : هو يعطى الجزيل ، وهو يحب الثناء لا تريد أن ترغم أنه ليس هنا من يعطى الجزيل ويحب الثناء غيره ، ولا أن تعرض بانسان وتخطئه عنه وتجعله لا يعطى كما يعطى ، ولا يرغب في الثناء كما يرغب ، ولكنك تريد أن تحقق على السامع أن اعطاء الجزيل وحبه الثناء دأبه ، وأن تمكن ذلك في نفسه (٦١) .

ومثاله في الشعر :

هم يفرشون اللبد كل طمرة وأجود سباح يبذ المغالبا
لم يرد أن يدعى لهم هذه المصفة دعوى من يفردهم بها . . .
وانما أراد أن يصفهم بأنهم فرسان يمتهدون صهوات الخيل ويقتعدون الجياد منها وأن ذلك دأبهم من غير أن يعرض لنفيه عن غيرهم ، الا أنه بدأ بذكرهم لينبه السامع لهم ويعلم بديا قصده اليهم بما في نفسه من المصفة ليمنعه بذلك من الشك ، ومن توهم أن يكون قد وصفهم بصفة ليست هي لهم ، أو أن يكون قد أراد غيرهم فغلط اليه
ومن البين فيه قول عروة بن أذينة :

سليمى أزمعت بينا فأين تقولها أيننا

(٦١) دلائل الاعجاز : ١٢٨ - ١٣٠ .

وذلك أنه ظاهر معلوم أنه لم يرد أن يجعل هذا الإجماع لها خاصة ، ويجعلها من جماعة لم يزعم البين منهم أحد سواها هذا محال ولكنه أراد أن يحقق الأمر ويؤكد ، فأوقع ذكرها في سمع الذي كلم ابتداء ومن أول الأمر ، ليعلم قبل هذا الحديث أنه أرادها بالحديث فيكون ذلك أبعد له من الشك (٦٢) .

وذكر عبد القاهر لذلك مثالين من القرآن الكريم فقال : وأبين من الجميع قوله تعالى : (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) (٦٣) وقوله تعالى (٦٤) (وإذا جاءكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) (٦٥) .

ولم يعلق عليهما لظهور أن التقديم فيها لتحقيق الحكم وتأكيده فمحال أن يكون قوله تعالى « وهم يخلقون » أنهم قد انفردوا بذلك واختصروا به ، كذلك لا يمكن أن يكون قوله تعالى « وهم قد خرجوا به » مقصودا به معنى القصر والاختصاص بهذه الصفة دون غيرهم .

السر في أن هذا القسم يثبث التأكيد والتقوية :

وبين عبد القاهر السر في أن هذا القسم من تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي يفيد تقوية الحكم وتأكيده فقال : إن ذلك من أجل أنه لا يئتي بالاسم معرى من العوامل إلا لحديث قد نوى اسناده إليه ، وإذا كان كذلك ، فإذا قلت : عبد الله ، فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه ، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلا : قام أو قلت : خرج ، أو قلت : قدم ، فقد علم ما جئت به ، وقد وطأت له

(٦٢) دلائل الإعجاز : ١٢٨ - ١٣٠ .

(٦٣) الفرقان : ٣ .

(٦٤) المائدة : ٦١ .

(٦٥) دلائل الإعجاز : ١٣١ .

وقد تمت الاعلام فيه ، فدخل على القلب دخول الأنفوس به ، وقبله قول
المهيا له المطمئن ، وذلك لا محالة أشد لثبوته ، وأنفى للشبهة وأمنع
للسك ، وأدخل في التحقيق •

وجملة الأمر أنه ليس اعلامك الشيء بغتة عقلا مثل اعلامك به
بعد التنبيه والتقدمة له ، لأن ذلك يجرى مجرى تكرير الاعلام
في التأكيد والاحكام ، ومن هنا قالوا : ان الشيء اذا أضمّر ثم فسر ،
كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدمه اضمار •

ويدل على صحة ما قالوه أنا نعلم ضرورة في قوله تعالى :
(فانها لا تعمى الأبصار) (٦٦) • فخامة وشرفا وروعة لا تجد منها
شيئا في قولنا : فان الأبصار لا تعمى ، وكذلك السبيل أبدا في كل
كلام كان فيه ضمير قصة ... ولم يكن ذلك كذلك الا لأنك تعلمه آياه
من بعد تقدمه وتنبيه أنت به في حكم من بدأ وأعاد ووطد ، ثم بنى
ولوح ثم صرح ولا يخفى مكان المازية فيما طريقه هذا الطريق (٦٧) •

فبسبب التقوية في هذا الأسلوب في رأى الامام : ما فيه من
تشويق المخاطب الحاصل بسبب تقديم المسند اليه على الخبر وتنبيهه
على أن حديثا سيدور بشأنه ليلتفت اليه ، فيتحقق الحكم لديه، ويثبت
في ذهنه ، وهذا الاعلام والتنبيه بمثابة التكرير في تأكيد الكلام ،
وتبع الرازي الامام في هذا السبب (٦٨) •

وعلى السكاكي هذه التقوية بعلة أخرى هي : أن المبتدأ يستدعى
أن يستند اليه شيء فاذا جاء بعده ما يصلح أن يستند اليه صرفه الى

(٦٦) الحج : ٤٦ •

(٦٧) دلائل الاعجاز : ١٣٢ ، ١٣٣ •

(٦٨) نهاية الايجاز : ١٢٣ •

نفسه ، فيعتقد بينهما حكم ، فاذا كان ما بعده متضمنا لضميره صرفه ذلك الضمير اليه ثانيا فيكتسى الحكم قوة (٦٩) •

فبسبب التقوية في رأيه تكرر الاسناد لأنك اذا قلت : أنا خرجت ، فقد أسندت الخروج مرة الى تاء الفاعل في خرجت ، وأسندت جملة خرجت الى الضمير « أنا » وهذا الضمير هو المقصود بقاء الفاعل وبذلك تكرر الاسناد وهذا يؤدي الى تقوية الحكم وتأكيده ، وتبعه في هذا السبب « الخطيب » و « السعد » (٧٠) وغيرهما •

الأدلة على أن هذا القسم يفيد التقوية :

واستدل الامام على أن هذا القسم من تقديم المسند اليه على الخبر الفعلي يفيد تأكيد الحكم وتقويته ودفع الشك عنه بثمانية أدلة تدور حول استعمال الفصحاء لهذا الأسلوب في المواطن التي تحتاج الى تأكيد الكلام وتقويته ، وتحقيقه ، وهي (٧١) :

١ - أن هذا الضرب من الكلام يجيء فيما سبق فيه انكار من مذكر نحو أن يقول الرجل : ليس لي علم بالذي تقول : فنقول له : أنت تعلم أن الأمر على ما أقول ولكنك تميل الى خصمي ، ومنه قوله تعالى : (ويقولون على الله الكذب هم يعلمون) (٧٢) وذلك أن الكاذب ، لا سيما في الدين ، لا يعترف بأنه كاذب ، واذا لم يعترف بأنه كاذب ، كان أبعد من ذلك أن يعترف بالعلم بأنه كاذب ، فالمقام مقام انكار وهو يقتضي التأكيد وقد حصل التأكيد بتقديم المسند اليه على الخبر الفعلي •

(٦٩) مفتاح العلوم : ١٠٦ •

(٧٠) الايضاح : ٥٧/٢ والمطول : ١٨٢ •

(٧١) تنظر هذه الأدلة في دلائل الاعجاز : ١٣٣ - ١٣٥ •

(٧٢) آل عمران : ٧٥ •

٢ - أنه يجيء فيما اعترض فيه شك ، نحو أن يقول الرجل :
كأنك لا تعلم ما صنع فلان ، فتقول له : أنا أعلم ولكنى أداريه • فلما
تشكك في ذلك أكدت له الكلام بالتقديم •

٣ - أنه يجيء في تكذيب مدع ، كقوله تعالى : (وإذا جاءكم
قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) (٧٣) ذلك أن قولهم
« آمنا » دعوى منهم أنهم لم يخرجوا بالكفر كما دخلوا به فالموضع
موضع تكذيب •

٤ - أنه يجيء فيما القياس في مثله ألا يكون أى فيما يقتضى
العقل والمنطق ألا يكون (٧٤) كقوله تعالى : (واتخذوا من دونه آلهة
لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) (٧٥) وذلك أن عبادتهم لها تقتضى
ألا تكون مخلوقة •

٥ - أنه يجيء في كل شيء كان خبراً على خلاف العادة ، وعمما
يستغرب من الأمر ، نحو أن تقول : ألا تتعجب من فلان ؟ يدعى
العظيم ، وهو يعبأ باليسير ، ويزعم أنه شجاع ، وهو يفزع من
أدنى شيء •

٦ - أنه يحسن ويكثر في الوعد والضمن ، كقول الرجل : أنا
أعطيك ، أنا أكفيك ، أنا أقوم بهذا الأمر • وذلك أن من شأن من تعدده
وتضمن له ، أن يعترضه الشك في تمام الوعد وفى الوفاء به ، فهو من
أحوج شيء الى التأكيد •

٧ - أنه يكثر في المدح والفخر ، كقولك : أنت تعطى الجزيل ،
أنت تجود حين لا يجود أحد ، وكقول زهير :

(٧٣) المائدة : ٦١ •

(٧٤) أسرار التقديم والتأخير : ٤٣ •

(٧٥) الفرقان : ٣ •

ولا أنت تفري ما خلقت وبعض المقوم يخلق ثم لا يفري
وكقول طرفة :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الأدب فينا ينتقر

وذلك أن من شأن المادح أو المفتخر أن يمنع السامعين من الشك
وبياءدهم من الشبهة فيما يمدح به أو يفتخر .

٨ - أن هذا الضرب من الكلام لا يكاد يجيء إذا كان الفعل مما
لا يشك فيه ولا يفكر ، بل يؤتى بالفعل مقدما غير مبني على الاسم فإذا
أخبرت بالخروج عن رجل من عادته أن يخرج في كل غداة قلت : قد
خرج ، ولم تحتاج أن تقول : هو قد خرج ، ذاك لأنه ليس بشيء يشك فيه
السامع فتحتاج أن تحققه وإلى أن تقدم فيه ذكر المحدث عنه لتأكيد .

ويقف عبد القاهر أمام هذا الدليل طويلا يتأمل بعض الأساليب
تأمل الخبير المذوقة ، ويجعل لكل مقام أسلوبه الملائم له ، فهذا مقام
لا شك فيه ولا تردد فيناسبه أن يقدم فيه الفعل ، وذاك مقام فيه شك
وتردد فيلائمه أن يقدم فيه الاسم وينبنى عليه الفعل ، ولا يصلح
تعبير في موضع آخر ، والا كان نابيا غريبا عن موضعه .

نصغى إليه وهو يتأمل ويقول : إذا علم السامع من حال رجل
أنه على نية الركوب والمضى إلى موضع ، ولم يكن شك وتردد أنه
يركب أولا يركب ، كان خبرك فيه أن تقول : قد ركب ، ولا تقول : هو
قد ركب .

فإن جئت بمثل هذا في صلة كلام ، ووضعته بعد واو الحال حسن
حينئذ ، وذاك قولك : جئته وهو قد ركب ، وذاك أن الحكم يتغير إذا
صارت الجملة في مثل هذا الموضع ، ويصير الأمر بمعرض الشك وذاك
أنه إنما يقول هذا من ظن أنه يصادفه في منزله ، وأنه يصل إليه
من قبل أن يركب .

قلت : أن الشك حينئذ لا يقوى قوته في الوجه الأول : أفلا ترى
أذك إذا استبطأت انسانا فقلت : أتانا والشمس قد طلعت ، كان ذلك
أبلغ في استبطائك له من أن تقول : أتانا وقد طلعت الشمس ؟ وعكس
هذا أنك إذا قلت : أتى والشمس لم تطلع ، كان أقوى في وصفك له
بالعجلة والمجيء قبل الوقت الذي ظن أنه يجيء فيه من أن تقول :
أتى ولم تطلع الشمس بعد .

هذا ، وهو كلام لا يكاد يجيء إلا نابيا ، وإنما الكلام البليغ هو
أن تبدأ بالاسم وتبنى الفعل عليه كقوله :

« قد أغتدى والطير لم تكلم »

فإذا كان الفعل فيما بعد هذه المواضع التي يراد بها الحال مضارعا ،
لم يصلح إلا هبينا على اسم ، كقولك : رأيته وهو يكتب ودخلت عليه
وهو يملأ الحديث وكقول النابغة الجعدي :

تمزقتها والديك يدعو صباحه إذا ما بنو نعش دنوا فتصوبوا

فليس يصلح شيء من ذلك إلا على ما تراه ، ولو قلت : رأيته
ويكتب — ودخلت عليه ويملى الحديث ، وتمزقتها ويدعو الديك
صاحبه لم يكن شيئا .

ومما هو بهذه الأنزلة في أنك تجد المعنى لا يستقيم إلا على ما جاء
عليه من بناء الفعل على الاسم قوله تعالى : (ان وليي الله الذي نزل
الكتاب وهو يتولى الصالحين) (٧٦) وقوله تعالى : (وقالوا أساطير
الأولين اكتتبتها فهي تملأ عليه بكرة وأصيلا) (٧٧) وقوله تعالى :

(٧٦) الأعراف : ١٩٦ .

(٧٧) الفرقان : ٥ .

(وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون) (٧٨)
فانه لا يخفى على من له ذوق أنه لو جىء في ذلك بالفعل غير مبنى على
الاسم فقيل : ان وليى الله الذى نزل الكتاب ويتولى الصالحين ،
وأكتبها فتولى عليه ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير
فيوزعون ، لوجد اللفظ قد نجا عن المعنى ، والمعنى قد زال عن صورته
والحال التى ينبغى أن يكون عليها •

وبهذا التأمل والتذوق بين لنا عبد القاهر أن تقديم الاسم وبناء
الفعل عليه يبيد التأكيد والتقوية ، ومن ثم فلا يأتى الا فى المقامات
التى تحتاج الى تأكيد وتحقيق ، واذا كان المقام فى حاجة الى تأكيد
وتقوية ولم يبين فيه الفعل على الاسم المقدم كان الكلام نابيا عن
موضعه ، ولهذا اذا جئنا الى الامثلة التى قدم فيها الاسم وبنى عليه
الفعل فغيرنا صورتها وقدمنا الفعل ، لوجدنا أن الكلام غير مستقيم
لخروجه عما يجب أن يكون عليه •

والآيات الثلاث التى مثل بها الامام عبد القاهر فى ختام حديثه
قد وردت فى مقامات تحتاج الى تأكيد وتحقيق ومن ثم قدم فيها
الاسم وبنى الفعل عليه ليتلاءم مع المقامات الواردة فيها ، وتناسب
مع سياق الآيات التى قبلها •

فالآية الأولى جاءت فى سياق آيات فيها استهانة بآلهة الكافرين ،
وتسفيه لها ولعابديها ، وقد أشارت الآية الى القوة التى تدفع عن
الرسول وتتولى نصرته رجاء صدرها مؤكدا (ان وليى الله الذى نزل
الكتاب) ولهذا جاء قوله (وهو يتولى الصالحين) مؤكدا محققا بتقديم
الاسم على الفعل ليتلاءم مع السياق •

وشىء آخر فى هذا التقديم هو أن قوله (وهو يتولى الصالحين) دال على أن الله يقولاه عليه السلام بطريق الكناية لأنه يلزم من توليته سبحانه الصالحين أن يكون وليه عليه السلام لأنه سيد الصالحين وطريق الكناية أوكد فى اثبات المعنى من طريق التصريح ، فاقضى حسن السياق أن يجىء بناء العبارة على ما هو عليه ، حتى لا تكون الصياغة فائرة فى هذا السياق التى علت فيه نبرة التوكيد (٧٩) •

والآية الثانية وردت فى مقام يحتاج الى تأكيد ، حيث ان الكافرين ادعوا أن القرآن (افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) وقالوا أنه (أساطير الأوليين اكتتبها) فهم فى حاجة الى تأكيد كلامهم وتحقيق دعواهم فجاء النظم (فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) مقدما فيه الاسم على الفعل لافادة التأكيد والتحقيق الذى يحتاجه المقام (٨٠) •

والآية الثالثة بنى الفعل فيها على الاسم المقدم (فهم يوزعون) لأنها تتضمن خبرا غريبا هو حشر الجن والانس والطير لسليمان على هذه الهيئة من الايزاع والداخل ، وهذا الأهر الغريب محتاج النفوس الى ما يؤنسها به ، ويقرر عندها ، ومن ثم جاء على هذه الصورة التى تفيد التأكيد والتحقيق (٨١) •

رابعاً - التقديم فى الخبر المنفى :

وتحدث عبد القاهر عن صورة أخرى من صور التقديم ، وهى تقديم المسند اليه على الخبر المنفى ، والكلام فيها كالكلام فى تقديم المسند اليه على الخبر المثبت ، وعلى هذا فالتقديم فيها يحتمل وجهين :

الأول : أن يكون الغرض من تقديم المسند اليه قصر نفى الفعل على المقدم ، واثباته لغيره ، ولم يهتم عبد القاهر ببيان هذا الوجه

(٧٩) خصائص التراكيب : ١٧٤ •

(٨٠، ٨١) خصائص التراكيب : ١٧٤ : ١٧٥ •

والتمثيل له ، لأنه كما سبق في الخبر المثبت أمره واضح جلي لا اشكال فيه .

والثاني : أن يكون الغرض من تقديم المسند اليه تقوية الحكم وتأكيده ودفع الشك عنه كقولك : أنت لا تحسن هذا ، وهذا الأسلوب أشد لنفي احسان ذلك عنه من أن تقول : لا تحسن هذا ، واو أتيت بـ « أنت » بعد « تحسن » فقلت : لا تحسن أنت ، لم يكن له من القوة والشدة في النفي ما للأسلوب الأول .

ولذلك يستعمل الأسلوب الاول مع من هو أشد اعجابا بنفسه وأعرض دعوى في أنه يحسن ، فتورد عليه بالأسلوب المؤكد بتقديم الاسم لنكزيه في دعواه .

ومن أمثلة تقديم الاسم على الخبر المنفي لقصد تقوية الحكم وتأكيده قوله تعالى : (والذين هم بربهم لا يشركون) (٨٢) . وهو يفيد التأكيد في نفي الاشراك عنهم ، بخلاف ما لو قيل : والذين لا يشركون بربهم ، أو بربهم لا يشركون ، فانه لا يفيد ذلك .

وكذلك قوله تعالى : (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) (٨٣) وقوله تعالى : (فعهدت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون) (٨٤) وقوله تعالى : (٨٥) ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون) (٨٦) .

(٨٢) المؤمنون : ٥٩ .

(٨٣) يس : ٧ .

(٨٤) القصص : ٦٦ .

(٨٥) الأنفال : ٥٥ .

(٨٦) دلائل الإعجاز : ١٣٨ .

والسر في أن تقديم المسند اليه على الخبر المنفي يفيد تقوية الحكم وتأكيده عند الامام ما سبق أن قررته في الخبر المثبت من أن تقديم المسند اليه فيه تنبيه وإيقاظ واعلام بما يأتي من كلام ليلتقاء المخاطب بعد تقديم واعلام فيدخل في قلبه دخول المأنوس به ويستقر في ذهنه ويكون هذا بمثابة تكرار الكلام .

والسر عند السكاكي ومن تبعه هو ما فيه من تكرار الاسناد كما قدمنا .

خامساً - تقديم الفكرة على الفعل وتأخيرها :

وتحدث الامام عبد القاهر عن تقديم النكرة على الفعل ، وتقديم الفعل : أيها في الاستفهام وفي الخبر ، وبدأ بالحديث عن تقديمها وتأخيرها في الاستفهام ، فقال : اذا قلت : أجاءك رجل ؟ فأنت تريد أن تسأله هل كان مجيء من واحد من الرجال اليه ، فان قدمت الاسم فقلت : أرجل جأءك ؟ فأنت تسأله عن جنس من جاءه ، أرجل هو أم امرأة ؟ ويكون هذا منك اذا علمت أنه قد أتاك آت ولم تعلم جنس ذلك الآتي ، فسبيلك في ذلك سبيلك اذا أردت أن تعرف جنس الآتي فقلت : أزيد جأءك أم عهرو ؟ (٨٧) فبين أن المسئول عنه هو ما يلي الهمزة ، كما سبق في أول الباب ، فاذا قدم الفعل على الفاعل النكرة كان الشك في الفعل ، وكان السؤال عن وقوعه واذا قدم الفاعل على الفعل كان الشك موجهاً اليه ، وكان السؤال عنه ولأجل أنه نكرة فان السؤال يكون مطالباً به ببيان الجنس ، أو العدد لا ببيان عين الفاعل كما سبق في المعرفة . ولا يجوز عند قصد السؤال عن الفعل تقديم الاسم وقد بين عبد القاهر ذلك فقال :

« ولا يجوز تقديم الاسم في المسألة الأولى ، لأن تقديم الاسم يكون إذا كان السؤال عن الفاعل ، والسؤال عن الفاعل يكون أما عن عينه أو عن جنسه ولا ثالث ، وإذا كان كذلك ، كان محالاً أن تقدم الاسم النكرة وأنت لا تريد السؤال عن الجنس لأنه لا يكون لسؤالك حينئذ متعلق ، من حيث لا يبقى بعد الجنس إلا العين ، والنكرة لا تدل على عين شيء فيسأل بها عنه » (٨٨) •

فتقديم الاسم يعني السؤال عن الفاعل ومن ثم لا يجوز عند قصد السؤال عن الفعل تقديم الاسم : وبين عبد القاهر أن السؤال عن الفاعل يكون إما عن عينه وإما عن جنسه ، فإذا كان معرفة يكون السؤال عن عينه ، وإذا كان نكرة يكون السؤال عن جنسه •

لأن النكرة لا تدل على عين شيء فيسأل بها عنه ، فلم يبق إلا أن يكون السؤال بها عن الجنس •

وإذا خصت النكرة بوصف من الأوصاف كان السؤال منصرفاً إلى هذا الوصف ، وقد بين عبد القاهر ذلك فقال : فإذا قلت : أرجل طويل جاءك أم قصير ؟ كان السؤال عن أن الجائي كان من جنس طوال الرجال أم قصارهم ؟ فإن وصفت النكرة بالجملة فقلت : أرجل كنت عرفت من قبل أعطك هذا أم رجل لم تعرفه ؟ كان السؤال عن المعطى ، أكان ممن عرفه قبل ، أم كان انساناً لم تتقدم منه معرفة له (٨٩) •

فالسؤال في النكرة المخصصة بوصف يكون مقصوداً به هذا الوصف ومن ثم كان السؤال في المثالين السابقين عن الوصف المخصص للنكرة لا عن جنس النكرة لأن الجنس معاروم من السؤال •

وقد يكون السؤال بالإنكرة عن العدد لا عن الجنس ، كما إذا قلت : أرجل أتك أم رجلان ؟ فإن المقصود بالسؤال هنا هو كونه واحداً أو اثنين لا كونه رجلاً ، وذلك أن الأصل في الإنكرة أن تكون للأواحد من الجنس ، ومن ثم يقع المقصد بها تارة إلى الجنس فقط كما إذا كان المخاطب قد عرف أنه أتك آت ولم يدر جنسه أرجل هو أم امرأة فتقول له : أرجل أتك ؟ فيكون السؤال عن الجنس ، وقد يكون المقصد بها إلى الوحدة فقط ، كما إذا كان المخاطب قد عرف أنه قد أتك من هو من جنس الرجال ، ولم يدر أرجل هو أم رجلان ؟ فتقول له : أرجل أتك أم رجلان ؟ فيكون السؤال عن العدد (٩٠) •

ثم تحدث الإمام عبد القاهر عن تقديم الإنكرة وتأخيرها في الخبر فقال : إذا قلت : رجل جاءني لم يصلح حتى تريد أن تعلمه أن الذي جاءك رجل لا امرأة ، ويكون كلامك مع من قد عرف أنه قد أتك آت • فإن لم ترد ذلك كان من الواجب أن تقول : جاءني رجل ، فتقدم الفعل •

وكذلك إن قلت : رجل طويل جاءني لم يستقم حتى يكون المسامع قد ظن أنه قد أتك قصير ، أو نزلته منزلة من ظن ذلك (٩١) •

فبين أن أمر الخبر كأمر الاستفهام ، فإذا كان الكلام عن الفعل قدم الفعل وإذا كان الكلام عن الاسم قدم الاسم • وعند تقديم الاسم يكون الفعل ثابتاً وواقعاً ، ويكون كلامك مع من يعلم وقوع الفعل ومقصده أن تبين له جنس الفاعل أو عدده •

وتقديم الإنكرة على الفعل في الخبر يفيد تخصيص الجنس أو العدد كما هو واضح في كلام عبد القاهر ، فإذا قلت : رجل زارني يمكن

(٩٠) دلائل الإعجاز : ١٤٤ •

(٩١) دلائل الإعجاز : ١٤٣ •

أن يكون رداً على من زعم أن الزائر امرأة ، ويمكن أن يكون رداً :
من زعم أن الزائر رجلان أو أكثر .

ويتضح ذلك أكثر من كلامه على قول العرب : شر أهر ذا ناب ،
وهو مثل يضرب عندما تلوح أمارات شر كبير : حيث قال : انما قدم
فيه « شر » لان المراد أن يعلم أن الذي أهر ذا الناب هو من جنس
الشر لا جنس الخير ، فجرى مجرى أن تقول : رجل جائع ، تريد
أنه رجل لا امرأة ، وقول العلماء انه انما يصلح — للابتداء به وهو
نكرة — لأنه بمعنى : ما أهر ذا ناب الا شر ، بيان لذلك ، الا ترى
أنك لا تقول : ما أتاني الا رجل ، الا حيث يتوهم السامع أنه قد أتتك
امرأة ، ذاك لأن الخبر ينقض النفي يكون حيث يراد أن يقصر الفعل
على شيء وينفي عما عداه ، فإذا قلت : ما جاءني الا زيد ، كان المعنى
أنك قد قصرت المجيء على زيد ، ونفيته عن كل من عداه ، وإذا يتصور
قصر الفعل على معلوم ، ومتى لم يرد بالنكرة الجنس لم يقف منها
السامع على معلوم ، حتى تزعم أني أقصر له الفعل عليه ، وأخبره أنه
كان منه دون غيره (٩٢) .

فبين أن تقديم النكرة يفيد التخصيص وأن التخصيص في قولهم
شرا أهر ذاناب منصرف الى الجنس ، وهو بمعنى : ما أهر ذاناب الا شر
كما قال العلماء .

وأشار الى أن معنى التخصيص في المعرفة يختلف عن معنى
التخصيص في النكرة ، ففي المعرفة يكون التخصيص موجهاً الى معين
بذاته ، وفي النكرة يكون موجهاً الى الجنس ، وبرهن على ذلك ، بأنه
انما يتصور قصر الفعل على معلوم ، والمعلوم الذي تفيد النكرة
هو الجنس .

وذكر السعد أن كلام الشيخ عبد القاهر لا يشعر بالفرق بين النكرة والمعرفة ، وأن النكرة إذا قدمت على الخبر الفعلى ووليت حرف النفي كان الكلام للتخصيص قطعا ، وإن لم تل النفي احتمل الكلام للتخصيص وتقوية الحكم على قصد المتكلم (٩٣) .

ولكن المتأمل في كلام عبد القاهر يجده صريحا في أن تقديم النكرة على الخبر الفعلى لا يفيد ألا التخصيص سواء ولت النكرة أداة النفي أو لم تل أداة النفي ، فقولنا : ما رجل جاءنى ، مفيد للتخصيص وقولنا : رجل جاءنى مفيد أيضا للتخصيص عند عبد القاهر .

وما ذكره السعد من أن تقديم النكرة قد يفيد تقوية الحكم كان يقال : رجل جاءنى ، فالمعنى أنه جاء ولا بد ، غير صحيح عربية لعدم صحة الابتداء بالنكرة إلا عند أرادة التخصيص فيكون مسوغا للابتداء بها وإذا لم يصح عربية لم يصح بلاغة (٩٤) .

وبعد أن قدمنا رأى الامام في تقديم المسند اليه على الخبر الفعلى في الأحوال المختلفة نوجز وجهة نظره فيما يلى :

١ - أن المسند اليه اذا تقدم على خبره الفعلى واليا حرف النفي فانه يفيد التخصيص قطعا سواء كان المسند اليه معرفة او نكرة .
كما في قولنا : ما أنا قلت هذا ، وما محمد أهان خالدا ، وما رجل جاءنى .

٢ - أن المسند اليه اذا تقدم على خبره الفعلى ولم يكن واليا حرف النفي ولم يكن نكرة فانه يحتمل أن يكون للتخصيص ، وأن يكون لتقوية الحكم وتأكيدده .

(٩٣) المطول : ١١٥ ، والمختصر : ٧٢ .

(٩٤) بغية الايضاح : ٢٤٩/١ .

فيكون للتخصيص إذا كان المخاطب يعتقد أن الحكم على خلاف ما تقول ، وأنت تريد أن ترد عليه في ذلك • فإذا قلت : أنا أحضرت الكتاب وكان المخاطب يعتقد أن غيرك قد أحضره كان قولك مفيدا قصر احضار الكتاب عليك ، ونفيه عن غيرك •

ويكون لتقوية الحكم وتأكيده في غير ذلك ، والذي يعين هذا ويحدده دلالة القرائن والأحوال •

٣ - أن المسند اليه إذا تقدم على خبره الفعلى لم يكن واليا حرف النفي وكان نكرة ، فإنه يفيد التخصيص قطعا ، والتخصيص هنا قد يكون للجنس وقد يكون للعدد •

٤ - أن تقديم المفعول على الفعل يفيد التخصيص ، ويشبهه في ذلك سائر المتعلقات كالجار والمجرور والظرف والحال وغيرها •

رأى السكاكي :

عرضنا رأى الامام عبد القاهر في افادة التقديم التخصيص وتقوية الحكم ، ويرى السكاكي أن التقديم لا يفيد التخصيص إلا بشرطين :

الأول : أن يجوز تقدير كون المسند اليه في الاصل مؤخرا على أنه في المعنى فقط ، بأن يكون توكيدا للفاعل ، أو بدلا منه كقولك : أنا قمت ، فإنه يجوز أن يقدر أن أصله : قمت أنا ، ويكون « أنا » توكيدا للفاعل - التاء - أو بدلا منه من ناحية اللفظ ، ويكون فاعلا من ناحية المعنى •

والثاني : أن يقدر كونه في الاصل مؤخرا على أنه فاعل في المعنى •

فان انتفى واحد من هذين الشرطين فإنه لا يفيد إلا تقوية الحكم فقط •

فالذى انتفى فيه الشرط الاول مثل : زيد قام ، فلو قدر أن لفظ « زيد » مؤخر في الأصل ، والتقدير : قام زيد ، لكان فاعلا في اللفظ والمعنى ، لا في المعنى فقط ، وتقديمه غير جائز والذى انتفى فيه الشرط الثانى : أن يقدر أن الكلام في مثل : أنا قمت ، مبنيا من الأصل على المبتدأ والخبر ، وليس فيه تقديم وتأخير .

وعلى هذا فتقديم الاسم الظاهر المعرف لا يفيد عند السكاكى إلا تقوية الحكم فقط لأنه لو قدر تأخيره لكان فاعلا في اللفظ والمعنى .
وتقديم الضمير يحتمل فيه افادة التخصيص ، وافادة تقوية الحكم ، فيفيد التخصيص إذا قدر كونه في الأصل مؤخرا على أنه فاعل في المعنى ، ويفيد التقوية إذا قدر الكلام في الأصل مبنيا على المبتدأ والخبر ، ولا تقديم فيه ولا تأخير .

وتقديم النكرة عند السكاكى مفيد للتخصيص في نحو : رجل جاعنى وما أشبهه ، وذلك على تقدير أنه في الأصل : جاعنى رجل ، ورجل بدل من فاعل جاعنى وليس فاعلا له ، فيكون فاعلا معنويا . وقاس هذا على ما ذكره المتحاة في قوله تعالى : (وأسروا النجوى الذين ظلموا) حيث جعلوا « الذين » بدلا من واو الجماعة في « أسروا » .

والذى جعل السكاكى يتكلف هذا التقدير في النكرة أن التخصيص في مثل هذا هو المسوغ للابتداء بالنكرة ، ولو لم يكن فيه تخصيص لامتنع الابتداء بها لعدم وجود المسوغ .

واشترط السكاكى في افادة تقديم النكرة التخصيص ألا يمنع من التخصيص مانع بأن تنتفى فائدة التخصيص في رد اعتقاد المخاطب كما في قولهم : شر أهر ذا ناب ، فلا فائدة في جعله من قبيل تخصيص الجنس لأنه لا يوجد من يتوهم أن المهر خير لا شر حتى يرد عليه بأنه شر لا خير ، ولا فائدة في جعله من قبيل تخصيص العدد لنبوه من مكان استعماله لأن معناه سيكون أن المهر شر لا شران وهذا غير مقصود .

ولما كان الامام عبد القاهر وغيره من العلماء قد نصوا على أن التقديم في هذا المثال مفيد للتخصيص ، وأن معناه : ما أهر ذا ناب الا شر جعل السكاكى التنكير فيه لقصد التعظيم والتهويل فيكون المعنى : شر فظيع أهر ذا ناب لا شر حقير ، ويكون تخصيصا نوعيا في الوصف لا في الجنس ولا في العدد لوجود المانع من التخصيص فيهما عنده (٩٥) •

وبذلك التقى مع العلماء في المعنى الذى فسرُوا به المثل من زاوية أخرى •

ونجعل رأى السكاكى في فائدة تقديم المسند اليه فيما يلى :

١ - ما يفيد التخصيص فقط وهو النكرة المتقدم على الخبر الفعلى نحو : رجل جاءنى •

٢ - ما يفيد تقوية الحكم فقط وهو الاسم الظاهر المعروف اذا تقدم على الخبر الفعلى نحو : على جاءنى •

٣ - ما يحتمل التخصيص وتقوية الحكم وهو الضمير اذا تقدم على الخبر الفعلى نحو : أنا حضرت •

وعلى هذا نرى أن السكاكى لا يعتد بالنفى ولا يعول عليه في افادة التخصيص كما عول عليه عبد القاهر •

ويمكن أن نوازن بين رأى عبد القاهر ورأى السكاكى من خلال الأمثلة التالية :

١ - ما أنا أكرمت محمدا :

يفيد التخصيص عند عبد القاهر ويحتمل التخصيص والتقوية عند السكاكى •

٢ - أنا ما أكرمت محمدا :

٣ - أنا أكرمت محمدا :

كل من المثالين يحتمل التخصيص والتقوية عند عبد القاهر
وعند السكاكي .

٤ - ما محمد أكرم عليا :

يفيد التخصيص عند عبد القاهر والتقوية عند السكاكي .

٥ - محمد ما أكرم عليا :

٦ - محمد أكرم عليا :

كل من المثالين يحتمل التخصيص والتقوية عند عبد القاهر وكل
منهما يفيد التقوية فقط عند السكاكي .

٧ - ما رجل جاعنى :

٨ - رجل جاعنى :

٩ - رجل ما جاعنى :

الأمثلة الثلاثة تفيد التخصيص عند الامام عبد القاهر كما تفيد
التخصيص عند السكاكي .

وعلة كل حكم من الأحكام السابقة ظاهرة بناء على ما قدمناه في
شرحنا لرأى كل من عبد القاهر والسكاكي .

« ورأى السكاكي يتجافى مع فطرة اللغة ويسر أدائها لمعانيها
ولا نعتقد أن هناك متكلما يفكر في الصياغة هذا التفكير ، ويفترض أن :
أنا قمت ، أصلها : قمت أنا ، ثم يخالف هذا الأصل ليفيد معنى
الاختصاص ، فإذا لم ينشغل ذهن المتكلم بهذا الغرض قلنا أن عبارته

لا تفيد ما تفيده عبارة غيره « (٩٦) فمثل هذا لا يخطر على بال المتكلمين الذين يعتد بكلامهم •

كما أن في رأيه تناقضا ، حيث اشترط في افادة التقديم التخصيص أمرين كما قدمنا ، وطبق ما اشترطه على المعرفة واستثنى من ذلك النكرة فجعل قولنا : محمد جاءني مفيدا للتقوية ، وقولنا : رجل جاءني مفيدا للتخصيص مع أن لفظ « رجل » يستوى مع لفظ « محمد » في أن كلا منهما يصبح فاعلا لفظا ومعنى اذا قدر مؤخرًا ، ومن ثم كان يجب عليه أن يسوى بينهما في الحكم •

كما أنه ارتكب تكلفا في اعراب النكرة حين أعربها على تقدير تأخيرها بدلا من فاعل جاءني ، وما ارتكب هذا التكلف الا ليجعلها فاعلا معنويا لا لفظيا حتى يجيز تقديمه •

ثم انه أجاز تقديم الفاعل المعنوي كالتأكيد والبديل دون الفاعل اللفظي مع أنهما سواء في امتناع التقديم مادام الفاعل فاعلا ، والتابع تابعا ، بل امتناع تقديم التابع أولى ، لأننا نقدمه على متبوعه وعلى العامل في المتبوع الذي هو في الحقيقة عامل في التابع ، أما الفاعل اللفظي فهو متقدم على العامل فقط ، وما دام الأمر كذلك فالأولى المنع في المعنوي أو تساويهما في المنع أما تجويز تقديم المعنوي دون اللفظي فتحكم من السكاكي دون موجب أو مرجح ، وأيضا لو قلنا : ان التابع حيث يقدم يكون على طريق الفسخ والقطع عن التبعية وهو جائز ، فكذلك الفاعل ، وجواز القطع في التابع دون الفاعل تحكم (٩٧) •

وهذا مما يضعف رأى السكاكي ويجعله غير جدير بالقبول •

(٩٦) خصائص التراكيب : ١٧٨ •

(٩٧) نظرات في البلاغة والاسناد : ١٦٩ • والمطول : ١١٧ •

سادسا : تقديم « مثل » و « غير » :

بعد الكلام عن التقديم في الخبر المنفى تحدث عبد المقاهر عن تقديم « مثل » و « غير » وهو يرى أنهما إذا استعملتا في الكلام بقصد الكتابة من غير تعريض يكون تقديمهما كاللزام ، وهذا ما تجرى عليه الأساليب البليغة .

وفي ذلك يقول : وما يرى تقديم الاسم فيه كاللزام : « مثل » و « غير » في نحو قول المتنبي :

مثلك يشنى الحزن عن صوبه ويسترد الدمع عن غربه

وقول الناس : مثلك رعى الحق والحرمة ، وكقول القبعثري للحجاج : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب ، وما أشبه ذلك ، مما لا يقصد فيه بـ « مثل » إلى انسان سوى الذى أضيف اليه ، ولكنهم يعنون أن كل من كان مثله في الحال والصفة ، كان من مقتضى القياس وموجب العرف والعادة أن يفعل ما ذكر أو أن لا يفعل ، ومن أجل أن كان المعنى كذلك قال :

ولم أقل مثلك أعنى به سواك يا فردا بلا مشبه

وكذلك حكم « غير » إذا سلك به هذا المسلك فقول : غيرى يفعل كذا ، على معنى أنى لا أفعله ، لا أن يومئ بـ « غير » إلى انسان فيخبر عنه بأنه يفعل ، ومنه قول المتنبي :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع ان قاتلوا جينوا أو حدثوا شجعوا

وذاك أنه معلوم أنه لم يرد أن يعرض بواحد كان هناك فيستقصه ويصفه بأنه مضعوف يغر وينخدع ، بل لم يرد إلا أن يقول : أنى لست ممن ينخدع ويعتر ، وكذلك لم يرد أبو تمام بقوله :

وغيرى يأكل المعروف سحبا وتشحب عنده بعض الأيادي

أن يعرض مثلاً بشاعر سواد ، فيزعم أن الذى قرف به عند المدوح من أنه هجاه ، كان من ذلك الشاعر لا منه ، هذا محال . بل ليس إلا أنه نفى عن نفسه أن يكون ممن يكفر النعمة ويلوّم (٩٨) •

فبين أن « مثل » و « غير » يلتزم تقديمهما فى الأساليب البليغة إذا استعملتا بقصد الكتابة من غير تعريض بآخر •

وتفصيل ذلك : أن لـ « مثل » و « غير » حالتان (٩٩) •

الأولى : أن يستعملتا فى معناهما المظاهر ، فيقصد بـ « مثل » الحكم على مماثل آخر كقول امرئ القيس :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتهما عن ذى تمائم محول

فغرضه من ذلك إرادة امرأة أخرى مماثلة لمن يخاطبها •

ويقصد بـ « غير » الحكم على مغاير آخر كقول ابن شرف القيروانى :

غيرى جنى وأنا المعاقب فيكم فكأنى سبابة المتقدم

فهو يريد أن شخصا غيره هو صاحب الجناية •

وهذه الحالة غير مقصودة بكلام عبد القاهر والتقديم فيها ليس كاللازم •

الثانية : أن يستعملتا بقصد الكناية من غير تعريض بأحد فيكون الحكم على « مثل » بشئ غير مقصود به الحكم على مماثل آخر ، بل يكون حكما على ما أضيفت إليه « مثل » عن طريق الكناية ، كقولك مثلك لا يهمل ، وأنت تقصد بذلك : أنت لا تهمل •

(٩٨) دلائل الإعجاز : ١٣٨ ، ١٣٩ •

(٩٩) ينظر المطول : ١٢٠ ونظرات فى البلاغة : ١٧٠ •

ويكون الحكم بشيء على «غير» غير مقصود به مغاير آخر، وإنما يكون حكماً بضد ذلك الشيء على ما أضيفت إليه «غير» كقولك :
غيرى لا يفى بالعهد ، وأنت تقصد بذلك : أنك تفى بالعهد •

وهذه الحالة هي التي يعنيها الإمام عبد القاهر بحديثه وهي التي ضرب لها الأمثلة السابقة في كلامه •

وهو يرى أن هذه الحالة يكثر فيها تقديم «مثل» و «غير» للدلالة على تقوية الحكم وتحقيقه : وفيها تأكيد للحكم من ناحية الكتابة أيضاً ومن ثم فهذه الأساليب أكد فيها الحكم وقوى من ناحيتين :
ناحية التقديم وناحية الكناية •

ووجه الكناية في هذه الأمثلة أن فيها انتقالاً من الملزوم إلى الملازم ، لأن قولك : مثلك يخشى الله ، يلزم منه أن المخاطب يخشى الله •

ومعلوم أن أسلوب الكناية أبلغ وأكد من الأسلوب الصريح ، لأن إثبات الحكم فيه يكون كدعوى الشيء بدليل وبينة ، حيث أن الذهن ينتقل فيه من الملزوم إلى لازمه ، ومادام الملزوم ثابتاً فلازمه ثابت من غير شك •

وتقديم «مثل» و «غير» في حال استعمالها بقصد الكناية من غير تعريض شيء مركوز في الطباع وجرت عليه أساليب البلفاء • ومن ثم لا يستقيم الأسلوب ويكون الكلام مقلوباً عن وجهه الصحيح • إذا أخرا في هذه الحالة ، وقد بين ذلك الإمام عبد القاهر فقال :
واستعمال «مثل» و «غير» على هذا السبيل شيء مركوز في الطباع ، وهو جار في عادة كل قوم ، فأنت الآن إذا تصفحت الكلام وجدت

هذين الاسمين يقدمان أبدا على الفعل إذا نحا بهما هذا النحو الذي ذكرت لك ، وترى هذا المعنى لا يستقيم فيهما إذا لم يقدم : أفلا ترى أنك لو قلت : يثنى الحزن عن صوبه مثلك ، ورعى الحق والحرمة مثلك ، ويحمل على الأدهم والأشهب مثل الأمير ، وينخدع خيري بأكثر هذا الناس ، ويأكل غيري المعروف سحتا ، رأيت كلاما مقالوبا عن جهته ومغيرا عن صورته ورأيت اللفظ قد نبا عن معناه ، ورأيت الطبع يأبى أن يرضاه (١٠٠) .

سابعاً : تقديم لفظ العموم على النفي وتأخيرها :

هذه المسألة من التقديم لم يتحدث عنها الامام عبد القاهر في الباب الذي خصه بالحديث عن التقديم والتأخير ، ولكنه تناولها بالبحث في حديثه عن اللفظ ودقة المعانى .

وقد بين أن الألفاظ الدالة على العموم مثل « كل » و « جمع » لها مع النفي حالتان :

الأولى : أن تتقدم على أداة النفي ، فلا تدخل في حيزه ، وفي هذه الحالة تفيد عموم النفي وشموله كقولك : كل المدعوين لم يتخلفوا عن الحضور ، فمعناه : أنهم قد حضروا جميعاً ، ولم يتخلف منهم أحد .

الثانية : أن تدخل في حيز النفي بأن تتقدم عليها أداة النفي لفظاً أو تقديرًا وفي هذه الحالة تفيد نفي العموم ، كقولك : لم يتخلف كل المدعوين على الحضور ، فمعناه : أنهم لم يحضروا جميعاً ، بل تخلف بعضهم عن الحضور ، وهذا ما تقدمت فيه أداة النفي لفظاً ، ومثال تقدمت فيه تقديرا قولك : كل القوم لم أرهم بنصب « كل » على أنها معمول للفعل المنفى ، ورقبة العامل أن يتقدم على المعمول ، فالفعل المنفى مقدم على لفظ العموم تقديرًا .

وقد تحدث الامام عبد القاهر عن الحالة الأولى فقال ... اذا قلت : كلهم لا يأتيك ، وكل ذلك لا يكون ، وكل هذا لا يحسن ، كنت نفيت أن يأتيه واحد منهم ، وأبيت أن يكون أو يحسن شيء مما أشرت اليه . ومما يشهد لك بذلك من الشعر قوله :

فكيف ؟ وكل ليس يعدو حمامة ولا لأمريء عما قضى الله مزحل

المعنى على نفى أن يعدو أحد من الناس حمامه بلا شبهة ؟ ولو قلت : فكيف وليس يعدو كل حمامه ، فأخرت « كلا » لأفسدت المعنى ، وصرت كأنك تقول : ان من الناس من يسلم من الحمام ويبقى خالدا لا يموت . ومثله قول دعبل :

هو الله ما أدري بأي سهامها

رمتني وكل عندنا ليس بالمكدي

أبالجيد، أم مجرى الرشاح وأننى

لأنهم عينها مع الفاحم الجعد

المعنى على نفى أن يكون في سهامها مكد على وجه من الوجوه .
وهن البين في ذلك ما جاء في حديث ذي اليمين حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أنقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : كل ذلك لم يكن ، فقال ذو اليمين : بعض ذلك قد كان المعنى لا محالة على نفى الأمرين جميعا ، وعلى أنه عليه السلام أراد أنه لم يكن واحد منهما لا القصر ولا النسيان ، ولو قيل لم يكن كل ذلك لكان المعنى أنه قد كان بعضه (١٠١) .

فواضح من كلام عبد القاهر أن لفظ العموم اذا قدم على أداة النفي ، ولم يكن معه ولا الفعل المنفى أفاد ذلك عموم النفي وشموله ، وقد أيد قوله بالشواهد الدالة على ذلك .

وانما اشترطنا عدم كون لفظ العموم معمولا للفعل المنفى وهو لم يرد في حديث عبد القاهر الذى سقناه ، لأنه ذكره في موضع قبل هذا حين تحدث عن قول أبى النجم :

قد أصبحت أم الخيار تدعى على ذنبا كله لم أصنع

ورواية البيت برفع « كل » وذكر النحاة أن الشاعر برفعه « كل » قد أدخل نفسه في شيء لا يجوز الا عند الضرورة ، ولا ضرورة هنا لأنه ليس في نصب « كل » ما يكسر له وزنا أو يمنعه من معنى أراداه وقد اعترض عليهم عبد القاهر في ذلك وبين أنه لم يرفع « كلا » الا لمعنى أراداه لا يتأتى له مع النصب ، وذلك أنه أراد انها تدعى عليه ذنبا لم يصنع منه شيئا البتة لا قليلا ولا كثيرا ، ولا بعضا ولا كلا ، والنصب يمنع من هذا المعنى ، ويقتضى أن يكون أتى من الذنب الذى ادعته بعضه .

وهذا لأن النصب يجعل « كلا » معمولا لأصنع ، فهو في حكم المؤخر عنه ، لتقدم رتبة العامل على المعمول ، فيكون لفظ العموم داخلا في حيز النفى ، وليس متقدما عليه ، وهذا يجعله دالا على نفى العموم ، لا على عموم النفى كما هو مراد الشاعر .

والسر في أن تقديم لفظ العموم على النفى يفيد عموم النفى : أنك اذا بدأت « بكل » كتبت قد بنيت النفى عليه وسلطت الكلية على النفى وأعملتها فيه ، وأعمال معنى الكلية في النفى يقتضى ألا يشذ شيء عن النفى وهذا ما بينه الامام عبد القاهر (١٠٢) .

وتحدث عبد القاهر عن الحالة الثانية ، وهى التى يتقدم فيها النفى على لفظ العموم فقال اذا تأملنا وجدنا اعمال الفعل في

« كل » والفعل منفي لا يصلح أن يكون إلا حيث يراد أن بعضا كان وبعضا لم يكن : تقول : لم ألق كل القوم ، ولم آخذ كل الدراهم فيكون المعنى أنك لقيت بعضا من القوم ولم تلق الجميع ، وأخذت بعضا من الدراهم وتركت الباقي ، ولا يكون أن تريد أنك لم تلق واحدا من القوم ولم تأخذ شيئا من الدراهم (١٠٣) •

واستدل عبد القاهر على هذا بالقياس إلى النهي ، فهو ظاهر فيه أشد الظهور ، فقال : واعلم أنه يلزم من شك في هذا فتوهم أنه يجوز أن تقول : لم أر القوم كلهم ، على معنى أنك لم تر واحدا منهم ، أن تجرى النهي هذا المجرى فقول : لا تضرب القوم كلهم ، على معنى لا تضرب واحدا منهم ، وأن تقول : لا تضرب الرجلين كليهما على معنى لا تضرب واحدا منهم ، وأن تقول : لا تضرب الرجلين كليهما على معنى لا تضرب واحدا منهما ، فإن قال ذلك لزمه أن يحيل قول الناس : لا تضربهما معا ، ولكن أضرب أحدهما ، ولا تأخذهما جميعا ولكن واحدا منهما ، وكفى بذلك فسادا (١٠٤) •

وبين السر في أن تقديم النفي على لفظ العموم يفيد نفي العموم بأن التأكيد بالفاظ العموم ضرب من التقييد ، ومتى نفيت كلاما فيه تأكيد فإن النفي يتجه إلى التأكيد خصوصا ، وينصب عليه ، فإذا قلت : لم أر القوم كلهم ، كنت عمدت بالنفي إلى معنى «كل» خاصة ومن هنا تكون قد رأيت بعضهم ، ولم تر بعضهم (١٠٥) •

والسبب في حدوث نفي العموم أو عموم النفي هو النفي ، فإن تقدم النفي على لفظ العموم أفاد نفي العموم ، وإن تقدم العموم

• (١٠٣) السابق : ٢٨٥

• (١٠٣) السابق : ٢٨٥

• (١٠٤) السابق : ٢٧٨

• (١٠٥) السابق : ٢٨٠

على النفي أفاد عموم النفي ، ولا تأثير للفعل في ذلك * وقد بين
عبد القاهر هذا فقال : واعلم أنه ليس التأثير لما ذكرنا من أعمال الفعل
وترك أعماله على الحقيقة ، وإنما التأثير لأمر آخر ، وهو دخول « كل »
في حيز النفي ، وأن لا يدخل فيه (١٠٦) *

ولما كان عبد القاهر قد ذكر أعمال الفعل في « كل » في أكثر من
موضع ، خشي من توهم تناقض بين أرجاعه التأثير للنفي ، وترديده
أعمال الفعل ، ففسر مراده بذلك واستدل على أن المؤثر في نفي العموم
أو عموم النفي هو وقوع لفظ العموم في حيز النفي وعدم وقوعه ،
فقال : وإنما أطلقنا الحكم في بيت أبي النجم وسائر ما مضى بأعمال
الفعل وترك أعماله ، من حيث كان أعماله فيه يقتضي دخوله في حيز
النفي ، وترك أعماله يوجب خروجه منه من حيث كان الحرف النافي
في بيت أبي النجم حرفاً لا ينفصل عن الفعل ، وهو « لم » لا أن كونه
معمولاً للفعل وغير معمول يقتضي ما رأيت من الفرق أفلا ترى أنك لو
جئت بحرف نفي يتصور انفصاله عن الفعل ، لرأيت المعنى في « كل » مع
ترك أعمال الفعل ، مثله مع أعماله ، ومثال ذلك قول المتنبي :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وقول أبي العتاهية :

ما كل رأى الفقى يدعو الى رشد اذا بدالك رأى مشكل فقف

« كل » كما ترى غير معمول فيه الفعل ، ومرفوع اما بالابتداء واما
بأنه اسم « ما » ثم ان المعنى مع ذلك على ما يكون عليه اذا علمت فيه
الفعل فقلت : ما يدرك المرء كل ما يتمناه ، وما يدعوك كل رأى الفقى

الى رشد ، وذلك أن التأثير ارقوعه في حيز النفس ، وذلك حاصل
في الحاليين •

ولو قدمت « كلا » في هذا فقلت : كل ما يتمنى المرء لا يدركه وكل
رأى الفتى لا يدعو الى رشد ، لتغير المعنى ، ولصار بمنزلة أن يقال :
ان المرء لا يدرك شيئاً مما يتمناه ، ولا يكون في رأى الفتى ما يدعو الى
رشد بوجه من الوجوه (١٠٧) •

فأثبت بالدليل أنه لا دخل لأعمال المفعول وترك أعماله في افادة نفس
العموم أو عموم النفس ، وإنما المعبرة بدخول لفظ العموم في حيز النفس
وعدم دخوله •

ولما كان تقديم النفس على لفظ العموم يفيد في العموم وخروج
البعض من الحكم ، وكان تقديم لفظ العموم على النفس يفيد عموم
النفس وشموله فقد ترتب على هذا صحة بعض الأساليب على الوجه
الأول ، وعدم صحتها على الوجه الثاني بسبب ما فيها من تناقض ،
وقد أشار ديد القاهر الى هذا فقال : واعلم أنه لما كان المعنى مع
أعمال الفعل النفس في « كل » نحو : لم يأتني القوم كلهم ، ولم أر القوم
كلهم ، على أن الفعل قد كان من البعض ، ووقع على البعض ، قلت :
لم يأتني القوم كلهم ولكن أتاني بعضهم ، ولم أر القوم كلهم ولكن
رأيت بعضهم ، فأثبت بعد ما نفيت ولا يكون ذلك مع رفع « كل »
بالابتداء فلو قلت : كلهم لم يأتني ولكن أتاني بعضهم ، وكل ذلك لم
يكن ولكن كان بعض ذلك ، لم يجز لأنه يؤدي الى التناقض وهو أن
تقول : لم يأتني واحد منهم ولكن أتاني بعضهم (١٠٨) •

فالأساليب التي صحت على الوجه الأول لم تصح على الوجه

• (١٠٧) دلائل الإعجاز : ٢٨٣ ، ٢٨٤ •

• (١٠٨) السابق : ٢٨٣ •

الثانى ، لما فيها من التناقض بين الجملة الأولى والجملة الثانية فيها
فقولك : كلهم لم يأتنى ، يفيد عدم اتيان واحد منهم اليك البتة وقولك :
ولكن أتانى بعضهم ، يفيد اتيان بعضهم اليك ، وبذلك يقع التناقض
ويفسد الأسلوب .

وختم الامام حديثه فى هذا الموضوع بخلاصة بين فيها ما يفيد
تقديم النفى على لفظ العموم وما يفيد تقديم لفظ العموم على النفى
فقال : واعلم أنك اذا أدخلت « كلا » فى حيز النفى ، وذلك بأن
تقدم النفى عليه لفظا أو تقديرا ، فالمعنى على نفى الشمول دون نفى
الفعل والوصف نفسه ، واذا أخرجت « كلا » من حيز النفى ، ولم
تدخله فيه لا لفظا ولا تقديرا كان المعنى على أنك تتبع الجملة فنفي
الفعل والوصف عنها واحدا واحدا (١٠٩) .

موقف المتأخرين من هذه المسألة :

تناول بدر الدين بن مالك (ت : ٦٨٦ هـ) هذه المسألة بالشرح
وبيّن أن تقديم المسند اليه لقصد افادة عموم النفى واجب بثلاثة
شروط :

الأول : اقتران المسند اليه بأداة العموم « ككل وجميع » فان
لم يقترن بها التقديم والتأخير سواء . فإذا قلت : محمد لم يقصر
فأنت بالخيار بين أن تقدم « محمد » كما فى المثال أو تؤخره بأن
تقول : لم يقصر محمد ، اذ لا عموم حتى يراعى لأجله وجوب التقديم .

الثانى : أن يكون المسند اليه لو أخر لأعرب فاعلا ، والا لاستوى
التقديم والتأخير .

الثالث : اقتران المسند اليه بحرف النفي ، فان لم يقترن لا يجب التقديم .

ومثال ما توفرت فيه الشروط : كل انسان لم يقم ، فتقديم المسند اليه واجب لاجل افادة عموم النفي ، وهو نفى الحكم عن كل فرد من أفراد الانسان ، فاذا أخرت في مثل هذا المسند اليه ، لم يكن ناصفي افادة العموم ، بل يحتمل أن يكون الحكم منفيًا عن بعض الأفراد دون البعض ، فقولك : لم يقم كل انسان ، يحتمل أن يكون معناه نفى القيام عن كل فرد من أفراد الانسان ويحتمل أن يكون معناه نفى القيام عن بعض أفراد الانسان دون بعض (١١٠) .

وبالمقارنة بين هذا الرأي وما ذهب اليه عبد القاهر نرى أن الرأيين يلتقيان فيما اذا تقدمت أداة العموم على أداة النفي نحو : كل انسان لم يقم ، وكل طالب لم يتأخر ، فهذا يفيد عموم النفي على كل من الرأيين .

وينترقان فيما اذا تأخرت أداة العموم على النفي ، نحو : لم يقم كل انسان ، ولم يتأخر كل طالب ، فهذا عند عبد القاهر يفيد نفى العموم وخروج بعض الأفراد من الحكم ، وعند ابن مالك يحتمل أن يكون لعموم النفي ، وأن يكون لنفي العموم (١١١) .

وعرض الخطيب القزويني لرأي ابن مالك ، واعترض عليه في بعض علة المنطقية ، وبين أن ما ذكره ليس خافيا وأنه مشهور بين العلماء (١١٢) .

(١١٠) المصباح : ١٣ ، وينظر أسرار التقديم والتأخير : ٦٣ .

(١١١) ينظر أسرار التقديم والتأخير : ٧٠ .

(١١٢) الايضاح : ٧٤/٢ - ٧٧ .

وذكر رأى الشيخ عبد القاهر وأمثلة والتعليل الذى علل به
لإفادة نفى العموم وعموم النفى ، ثم قال : وفيه نظر (١١٣) وأم
يبين هذا النظر الذى يقصده .

وجاء سعد الدين التفتازانى وبين ما فى كلام الشيخ من نظر
فقال : اننا نجد بعض الأمثلة التى دخل فيها لفظ العموم فى حيز
النفى ولا يمكن أن يتعلق الفعل فيها ببعض دون بعض كما قال الشيخ ،
بل ان الكلام فيها يفيد عموم النفى وشموله ولا يصلح الا على هذا
المعنى كقوله تعالى : (والله لا يجب كل مختال فخور) (١٤) وقوله
تعالى : (والله لا يجب كل كفار أثيم) (١١٥) (ولا تطع كل حلاف
مهين) (١١٦) . فالكلام فى هذه الآيات على عموم النفى وشموله
ولا يصلح أن يتعلق الفعل ببعض دون بعض وبناء على هذا فان الحكم
الذى ذكره الشيخ عبد القاهر أكثرى لا كلى (١١٧) .

وقد رد على رأى السعد بما يلى :

١ - أن هذا الحكم كلى ولا دلالة فيما ذكره لجواز أن يعتبر
فيه دخول كل بعد النفى لا قبله فيكون قييدا فى النفى دون المنفى
فيكون من شمول النفى ، لأن القيد اذا اعتبر بعد النفى كان قييدا فيه
لا فى المنفى ، فيكون النفى نفيا مقيدا لا نفى مقيد (١١٨) .

• (١١٣) الايضاح : ٧٨/٢

• (١١٤) الحديد : ٢٣

• (١١٥) البقرة : ٢٧٦

• (١١٦) القلم : ١٠

• (١١٧) المطول : ١٢٥ - بتصرف

• (١١٨) تجريد البناني : ٢٦٠/٢

٢ - أن مقتضى الاستعمال هو ما ذكره الشيخ عبد القاهر والآيات مصروفة عن الظاهر بدلائل خارجية ، حتى لو لم يلاحظ الدليل كان مفادها سلب العموم (١١٩) •

وأفضل من هذين الردين وغيرهما ما ذكره الشيخ البرقوقى في شرحه للتلخيص نقلا عن الشيخ محمد عبده حيث قال :

فإن قلت : فما تصنع في قوله تعالى : (والله لا يحب كل مختال فخور) وقوله تعالى : (والله لا يحب كل كفار أثيم) ... قلت : قد يعدل عما يدل على عموم السلب الى ما يشيد سلب العموم ، والسلب عام على الحقيقة للتعريض بالمخاطب ، والإيماء الى أنه شر صنفه •

مثلا : إذا قلت لسفيه تعرض بأنه شر السفهاء : أنا لا أحب كل سفيه ، فالمعنى أنه لو فرض أن محبتى تتعلق بسفيه لكنت غير موضع لها ، وكذلك الذى جاء في الآيات الكريمة أريد به - والله أعلم - التعريض بمن نزلت من أعداء الله ، وانهم شر أصنافهم ، فقوله تعالى : (والله لا يحب كل مختال فخور) معناه : ان محبة الله لا تعم المختالين الفخوريين حتى تشمل هؤلاء مكانه سبحانه يقول : لو أن محبتنا تعلقت بمختال فخور لما تعلقت بأولئك ، لأن مختالهم وفخورهم شر مختال وفخور ، وهكذا يقال في سائر الآيات وما ظاهره أنه من سلب العموم وحقيقته أنه من عموم السلب (١٢٠) •

وبهذا نصل الى نهاية بحثنا آمليين أن نكون قد أنجزنا ما قصدناه والله الموفق المستعان •

(١١٩) حاشية عبد الحكيم : ٢٠٤ •

(١٢٠) شرح التلخيص للبرقوقى : ٦٨ •

مراجع البحث

- ١ - أئو النحاة فى البحث البلاغى د. عبد القادر حسين - نهضة مصر
- ٢ - أسرار التقديم والتأخير فى لغة القرآن الكريم د. محمود شيخون
الكلبيات الأزهرية .
- ٣ - الإيضاح . الخطيب القزوينى - ت : د. محمد خفاجى - الكلبيات
الأزهرية .
- ٤ - بغية الإيضاح . الخطيب القزوينى . ت : عبد المتعال الصعيسى -
الآداب .
- ٥ - البلاغة تطور وتاريخ . د. شوقي ضيف - دار المعارف .
- ٦ - البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشري . د. محمد أبو موسى -
دار الفكر .
- ٧ - تجريد البناني . مصطفى البناني .
- ٨ - تقرير الانبأى . الشمس الانبأى .
- ٩ - حاشية عبد الحكيم على المطول . عبد الحكيم السيلكوتى .
- ١٠ - خصائص التراكيب . د. محمد أبو موسى - مكتبة وهبة .
- ١١ - الخصائص . ابن جنى . ت : محمد على النجار .
- ١٢ - دراسات تفصيلية لبلاغة عبد القاهر . عبد الهادى العدل - المنيرية
- ١٣ - دلائل الإعجاز . عبد القاهرة الجرجانى . ت محمود محمد شاكر -
الحانجى .
- ١٤ - دلالات التراكيب . د. محمد أبو موسى - مكتبة وهبة .
- ١٥ - شرح التلخيص . عبد الرحمن البرقوقى - مطبعة النيل .
- ١٦ - الكتاب . سيبويه - بولاق .
- ١٧ - الكشف عن حقائق التنزيل . الزمخشري - الحلبي .

- ١٨ - مجاز القرآن • أبو عبيدة ت : قواد سركين •
- ١٩ - مختصر المعاني • سعد الدين التفتازاني - الحلبي •
- ٢٠ - معاني القرآن • الفراء •
- ٢١ - مفتاح العلوم • السكاكي - الحلبي •
- ٢٢ - المصباح في علم المعاني والبيان والبدیع • بدر الدين بن مالك -
الخيرية •
- ٢٣ - المطول • سعد الدين لتفتازاني - الاستانة •
- ٢٤ - نظرات في البلاغة والاسناد • د • محمد عبد الرحمن الكردي
السعادة •
- ٢٥ - نهاية الايجاز في دراية الاعجاز • الرازي • الآداب •

الحاسة الأدبية عند عبد الملك بن مروان

أبعادها وأياديهما

د . محمد كريم

لا أحسبني مغاليا إذا قلت : ان كثيرا من الشخصيات العربية التي فرضت وتفرض عبقريتها على مسرح الحياة فتحيلها الى طاقات هائلة متنوعة .. ترفعهم الى أعلى درجات الشهرة والتفوق فيما يصبون اليه من تطلعات وآمال يتمتعون بحس أدبي متميز يكسبهم من صفاء القريحة وحدة الذهن وشحذ الهمة ما يعينهم على احتواء مصادر الاخفاق واستلهاهم أسباب الرقي واخراج قصب السبق في أى اتجاه انساني هذا فضلا عما يحظى به الأدب نفسه من ابداعاتهم أو نظراتهم النقدية الملمحة التي تثريه وتأخذ بيده الى حيث يجب أن يكون .

ويبدو أن هذه ظاهرة تجاوزت الشخصية النابذة من أبناء يعرب الى أبناء الأمم الأخرى المنابهيين ممن لهم علاقات متميزة بأدابهم ، وعلى سبيل الاستدلال نجد مشاهير العلماء في أوروبا تربطهم بأدابهم صلات قريبي — « فقد كان أينشتاين مولعا بالأدب وكذلك عالم الطبيعة الأمريكي الأشهر « هول » صاحب العديد من المؤلفات الأدبية ، وعالم الأعصاب الكندي الكاتب الكبير « بنفيلد » وأستاذ الطبيعة الكاتب الانجليزي « سناو » وغيرهم » (١) .

ومن المصادفات الطيبة لكلمة « أدب » أنها اكتسبت كثيرا من ملامح هذا البعد الانساني عند العرب منذ القدم وقبل أن تصل الى معناها الذي استقر في أذهان الدارسين والباحثين من الأدباء والنقاد

وهو في أبسط صورته : التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية شعرا كانت أو نثرا •

وما هو ذا علقمة بن علاثة الجاهلي في وفد من وجوه العرب وساداتهم أمام كسرى وقد حرص كل الحرص على أن يرفع من شأن العرب فكان مما وصفهم به أنهم على جانب رفيع من الأدب وذلك في قوله : فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزب عنك ، بل لو قست كل رجل منهم وعلمت منهم ما علمنا لوجدت له في آباءه أندادا وأكفاء كلهم إلى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف ، وبالرأي الفاضل والأدب معروف (٢) •

ويبعث رسول الله - ﷺ - فتقد عليه الوفود من كل حادب وصوب ، ويخاطبها بما تحمده ويتفق مع ما جاء به من الهدى حتى قال له علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : يا رسول الله نحن بنو أب واحد وفراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ، فقال له رسول الله - ﷺ - : أدبني ربي فأحسن تأديبي وربيت في بني سعد (٣) •

ومما ورد بشأن الشعر - وهو شطر الأدب - وما له من أثر على صاحب الحس الأدبي الذواقة القول : ولسنا في حاجة إلى أن نشير إلى أهمية الشعر في رقى النوع البشري وتهدييه ، فقد عمل الشعر كما عملت العلوم على إسعاد الإنسان • وكان للخيال الذي يتضمنه الشعر ما للحقائق العلمية التي تقررها العلوم من الأثر الكبير في تغيير نظم الحياة وتكييف عقلية آدميين ، فبينما الحقائق العلمية تكون مقررة القواعد ثابتة الأساس سهلة الاتباع - إذا بالخيال الذي يتخلل ثنايا الشعر عون على أن يأخذ بيد الإنسان ليرفعه من وهدة

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٢٨٤ •

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج ١ ص ٣ •

عميقة مظلمة الى شاطئ عال مرتفع ملىء بالنور والحياة حتى يمكنه
أن يطل على سبل تقدمه ورقية ، فاذا هو يراها شائخة واضحة ،
واذا هو بتكرار النظر يعرفها ويتحقق مسالكها ، واذا هو بعد فترة
وجيزة أو غير وجيزة يضع قدمه على أبوابها فيسير فيها على طريق
مستقيم (٤) .

ومما يترجم مثل هذا القول الغائث الى واقع عملي مشاهد ما كان
من أمر معاوية بن أبي سفيان حينما فكر في الهرب بعيدا عن ميدان
الحرب والقتال ، واذا به يتذكر شعرا حماسيا بحس لاقط وتذوق
واع فيجد فيه تشخيصا للمهم والبطولات يدفع بالنفوس الانسانية
الى حيث تحقيق الذات وتخليد المآثر في مواطن الشدائد فيعود الى
الانخراط في صفوف المحاربين .

يستفاد ذلك من قوله : يجب على الرجل تأديب ولده ، والشعر
أعلى مراتب الأدب ، فاجعلوه أكبر همكم وأكثر دأبكم ، وقد رأيتني
ليلة الهرير بصفين ، وقد أتيت بفارس أغر محجل بعيد البطن من الأرض
وأنا أريد الهرب لشدّة الجأوى ، فما حملتني على الإقامة الا أبيات
عمرو بن الاطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى
وأخذى الحمد بالثمن الربيع
واقدمى على المكروه نفسى
وضربى هامة البطل المشيع
وقولى كلما جشأت وجاشت
مكانك تحمدى أو تستريحى (٥)

(٤) دائرة المعارف البريطانية مادة

(٥) العمدة ج ١ / ٢٩ .

لأدفع عن مآثر صالحات

وأحمى بعد عن عرض صديح (٦)

وما دما بصدد الحديث عن الحاسة الأدبية وأثرها الفعال في تفوق
الكثيرين من الشخصيات المذاهبة ذات الحس المرفه والاقتدار على
تحقيق رغائبها ، فجدير بنا أن نقف عند عبد الملك بن مروان ، وقد قدر
لى الاطلاع على كثير من أخباره في كتب القراث فوجدته من هؤلاء
الذين يتضح فيهم هذا الجانب بجلاء ، حيث تولى خلافة الأهويين
وعوامل الدمار تكاد تعصف بها وتحيلها أثرا بعد عين ، فما أن مات
معاوية بن أبى سفيان حتى قتل الحسين — رضى الله عنه — وحمل
رأسه الشريف الى يزيد بن معاوية ، وتوالى الأحداث تباعا فتستباح
مدينة رسول الله — ﷺ — ثلاثة أيام ! لجيش يزيد بن معاوية
أيضا — خليفة المسلمين — ! بقيادة مسلم بن عقبة المارى *

ويعقب يزيد في الخلافة ابنه معاوية الثانى ، لكن سرعان ما حضرته
الوفاة دون أن يبايع لأحد ، ويبدو أنه كان غير راض عما آل اليه
أمر الخلافة بعد أن كان شورى بين المسلمين *

اذ يروى أنه لما حضرته الوفاة قيل له : لو عهدت الى رجل من
أهل بيتك .. واستخلفت خليفة ! قال : لم أنتفع بها حيا فلا أقادها
ميتا ، لا يذهب بنو أهية بحلوتها وأتجرع مرارتها ، ولكن اذا مت
فليصل على الوليد بن عقبة وليصل بالناس الضحاك بن قيس حتى
يختار الناس لأنفسهم (٧) *

وطبيعى أن تؤدى أحداث كهذه الى إثارة العواطف الدينية
وتوسيع شقة الخلاف بين طوائف الأمة بعامة وازدياد نفوذ الناظرين

(٦) العمدة ج ١ ص ٢١ .

(٧) العقد الفريد ج ٥ ص ١٤٠ .

للخلافة من دون الأمويين ، فتقوى شأن الشيعة والخوارج واتسع نفوذ ابن الزبير بانضمام القيسيين اليه ، ودخول مصر والكوفة والبصرة وخراسان في طاعته .

ولم يقف الأمر عند حد هذه الأحزاب المتصارعة والمعادية لبنى أمية وإنما ظهرت حركات فردية معادية أيضا وصادفت قبولاً وقرحاً من بعض بيوتات العرب وبخاصة تلك التي تكن العداء للأمويين مثل حركة المختار الثقفي وحركة ابن الأشعث .

وكاد الأمر ينفلت من قبضة الأمويين إلا أن أصحاب الرأي فيهم عقدوا مؤتمراً فيما بينهم عرف في التاريخ الإسلامي « بمؤتمر الجابية » واتفقوا على أن يبايعوا مروان بن الحكم بالخلافة ، ثم تكون بعد ذلك لخالد بن يزيد بن معاوية ثم لعمر بن سعيد بن العاص ، وما هي إلا شهور حتى توفي مروان بعد أن عزل خالداً عن ولاية العهد وعين ابنه عبد الملك بدلاً منه ، وبصنيعة هذا ترك ميراثاً ضخماً من الآلام والعقبات أمام ابنه عبد الملك ومصير الخلافة في بنى أمية ، فهو لم يكتف بما عليه حال المسلمين من الانقسامات والعصبية التي عادت أقوى مما كانت عليه قبل الإسلام وإنما أراد أن يضع بذور الفتنة بين أبناء البيت الأموي نفسه قصد أم لم يقصد .

ومما هو جدير بالذكر أن عبد الملك تمكن من التغلب على كل هذه الآلام والعقبات واستطاع أن يعيد الأمن للبلاد والأمل لأولاد الأمويين من بعده في . . الاستئثار بالخلافة بعد أن كادت تنفلت من قبضتهم .

لذا فإن عبد الملك يعد بحق المؤسس لدولة بنى أمية بعد معاوية ، فما هو إذا يتمكن من هزيمة أكبر قوة للشيعيين آنذاك ، وكانوا قد اجتمعوا بالأنخيلة بقيادة سليمان بن صرد ، ثم انتقلوا منها إلى قبر

الحسين — رضى الله عنه — فبكوا كثيرا وعزموه على الانتقام من الأمويين الا أن جيش عبد الملك بقيادة الحصين بن نمير الشكونى تمكن من التغلب عليهم فى عين الوردة (٨) •

والخوارج كانوا قد استولوا على « كرمان » وبلاد « فارس » وهددوا « البصرة » الا أن عبد الملك سير اليهم من الحملات العسكرية ما أضعف من شوكتهم وحدث من نشاطهم (٩) •

وبحصر جيش عبد الملك « كحلة » مدة ليست باليسيرة اضطروا المكيون الى طلب الأمان وتخلي عن ابن الزبير الكثير من الأقارب والأنصار ، ولم يبق معه الا قلة من الأوفياء ولكنه ثبت واستقبل حتى قتل سنة ٧٣هـ وصلبه الحجاج بمكة فخلص لعبد الملك الحجاز وقد كان العراق قد خلص اليه بعد قتل مصعب (١٠) •

أما عن القيسية فقد تمكن عبد الملك من عقد صلح مع زعيمهم « زفر بن الحارث المكلا بى » بقتسرين ، كما تمكن من قتل عمرو بن سعيد ابن العاص بدمشق ، وكان قد ثار عليه طمعا فى الحكم واستنادا الى ما كان قد اتفق عليه فى ... مؤتمر الجابية •

ومثل هذه التبعات التى ألقيت على كاهله منذ أن بويع له بالخلافة كشفت عن تمتعه بحاسة أدبية واعية تمثلت فى افتتانه بالنص الأدبى الجيد — أيا كانت معالم جودته أضواء وحفظا وتمثلا به فى وقت الفرح والمرح وساعات العزم والحزم ، وعاقدا لمجالسه وكاشفا عن مواطن الجمال والقبح فيه كشافا يعتمد فى معظم أحواله على التذوق الفنى

(٨) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٧٣ •

(٩) فجر الاسلام ص ٣٠٢ •

(١٠) أدب السياسة فى العصر الأموى ص ١١٨ •

والادراك المتقن لجماليات النص في وقت سادت فيه النظرة العجلى
والاحكام الانطباعية السريعة على النص .

على أنه لا ينبغي لنا أن نغفل حقيقة شغف عبد الملك وافتقانه
بالنص الشعري أكثر من سواه ، وذلك راجع الى ارتفاع صوت الشعر
وقسمة المكانة الرفيعة بين وسائل التعبير آنذاك ، حيث قدر خلفاء
بنى أمية بعمامة وعبد الملك بخاتمة ما للشعر والشعراء من أثر على
النفس البشرية فوجهوا اهتمامهم للشعر وحرصوا على أن يجمعوا
حولهم قدرا كبيرا من الشعراء ، ولم يجدوا حرجا من أن يتألفوا
قلوبهم بالمال والعطايا رغبة في الدعوة لهم والتصدي لثأرهم .

وها هو ذا معاوية يدعوا الى المتعلق بالشعر والاحتفال به فيقول :
اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم (١١) وعبد الملك يوصي مؤدب
ولده ولده بقوله : علمهم الشعر يمجدوا وينجدوا (١٢) .

وقد أدى هذا الاهتمام بالشعر الى أن أصبح كما كان في الجاهلية
نظير المرح وقريته . وشطر عدة المحارب وروح دعوته ، والمقرب على
عرش الأدب بأجناسه المختلفة . غير عابىء بما كان للإسلام من أثر في
تهذيب موضوعاته وسمو معانيه .

ومن هذا المنطلق — « نستطيع أن نقول : اننا اذا شبهنا تاريخ
الشعر العربي بسلسلة من الجبال تعلو وتهبط وتتدرج نزولا وصعودا
فان ظهور الدعوة الاسلامية يمثل مبدأ الانحدار الذى يستمر فلا يتوقف
الا بعد مقتل عثمان — رضى الله عنه — حيث نكون قد وصلنا الى قاعدة
الجبل لنبدأ من جديد الصعود تدريجيا الى قمة جبل آخر ولا نبلغ

(١١) العملة ج ١ ص ٢١ .

(١٢) الأمالى للقالى ج ١ ص ٨ .

تلك القمة إلا في أيام جريير وحماضيه الأخطل والفرزدق تلك الأيام التي
تسير جنباً إلى جنب مع عصر القوة والمنشأ والاستقرار السياسي
والاقتصادي في العهد الأول ولا يكاد ثلاثتهم يتركون الميدان حتى نكون
قد خلفنا تلك القمة انشامخة وراء ظهورنا واستقبلنا جانباً آخر من
جوانب الجبل ينحدر رويداً رويداً نحو العصر العباسي» (١٣) •

وها هو ذا الشعبي وقد دخل على عبد الملك فوجده قد كبا مهتماً
فقال : ما بال أمير المؤمنين ؟ قال : يا شعبي ذكرت قول زهير (١٤) :

كأنى وقد جاوزت سبعين حجة

خلعت بها عنى عذار لجامي

رمتى بنات الدهر من حيث لا أدري

فكيف بمن يرمى وليس بـرام

فلو أننى أرمى بنبل رأيتهـا

ولكن أرمى بغير سهام

على الراحتين تارة وعلى العصا

أنـوء ثلاثاً بعدهن قيامي

ويطلب عمر بن علي بن أبي طالب من عبد الملك أن يصير إليه

صدقة أبيه علي بن أبي طالب — رضى الله عنه — وكانت تصير إلى

ولد الحسين فأبى وتمثل أبياتا لابن أبي الحقيق تدعو إلى احشاق

الحق والالتزام به وفيها يقول (١٥) :

انى اذا مالت دواعى الهوى

وأنصت السامع للقلائل

(١٣) تاريخ الشعر العربي للكفراوى ج ١ ص ٧٨ •

(١٤) العقد ج ٢ ص ٣٦٩ •

(١٥) العقد ج ٥ ص ١٥٠ (اعتلجوا : التحموا صراعاً وقتالاً) •

واعتلج الناس بأرائهم
نقضى بحكم عادل فاصل
لا نحيل الباطل حقا ولا
نرضى بدون الحق للباطل

وها هو يتمثل شعرا زهديا - وقد حضرته الوفاة - يترجم عما
كان عليه وعما صار اليه فيقول (١٦) :

العمري لقد عمرت في الدهر برهة
ودانت لى الدنيا بوقع البوائق
وأعطيت حمر المال والحكم والنهى
ولى سلمت كل الملوك الجبابر
وأضحى الذى قد كان مما يسرنى
كلح مضى فى الزمنات الغوامر
فيا ليتنى لم أعن بالملك ساعة
ولم اله فى لذات عيش نواضر
وكنت كذى طمرين عاش بيلغة
من الدهر حتى زار ضنك المقابر

وهذه نماذج ذكرتها على سبيل الاستدلال لا الحصر لتكشف
عن حفظ عبد الملك للشعر أيا كان عصره وغرضه وتدل على دقة تمثله
بما يحفظ من الشعر حفظ الفاهم الذواقه .

ومع حفظه للشعر ودقة تمثله به كان يجب سماعه والاصغاء اليه
دون مثل فاذا ما ركب اصطحب حاد يحدو ابله برجز ، وغالبا ما يكون

(١٦) مروج الذهب ج ٣ ص ٥٠ (الطمر : الثوب الخاق) .

في مدحه ، وها هو ذا عبد الملك يخرج يوما رائحا على نجيب ومعه
حاد يحدوه بقوله (١٧) :

يا أيها البكر الذي أراكا
عليك سهل الأرض في ممشاكا
ويحك هل تعلم من علاكا
ان ابن مروان على ذراكا
خليفة الله الذي امتطاكا
لم يعمل بكرا مثل ما علاكا

واذا ما تعرض لما يؤرقه وجد علاجا في سماعه للشعر وأخبر
الشعراء ، - « ويروى أنه أرق ذات ليلة فقال : اطلبوا لي رجلا
يحدثني ، فخرجوا الى المسجد ، فوجدوا رجلا فأدخلوه ، فقال له
عبد الملك : من أنت ؟ قال : أنا فلان وكنت من أصدق الناس لجميل
(الشاعر) قال : فحدثني عنه . قال : خرجت معه مرة حتى انتهينا
الى خباء لآل بثينة وسمعت به . . . فأقبلت في نسوة معها وأقبل جميل
نحوها ، فقعدن وقعد فتحدثوا ساءة ثم أدخلوهما ، فلم يزا إلا يتشكيان
حتى غشيما الصبح فودع كل منا صاحبه ، ثم وضع جميل رجله في
الغرز ، فمالت اليه بثينة . . . فقالت : يا جميل ادن مني ، فمال اليها
برأسه وعنقه فسارقه بشيء فخر مغشيا عليه ، ثم مضت ، فأتيته فلم
أزل عند رأسه حتى طلعت الشمس عليه ، فقام ينفذ رأسه وهو
يقول :

فما مكفهر في رحي مرجحنة
ولا ما أسرت في معادن النحل

بأحلى من القول الذى قلت بعدما

تمكن فى حيزوم ناقتى الرحل

فقال له عبد الملك : ويحك ! فهل تدري ما سارته به ؟ قال : لا والله
يا أمير المؤمنين (١٨) •

لذا لا نعجب اذا ما تبين لنا أن الشعر كان ينفذ الى أعرق وأدق
الأحاسيس والمشاعر عند عبد الملك فيحرك ساكنها ويذيب ما ران عليها
من هموم الملك لاسيما اذا ما كان شعرا جيدا ذا ايحاءات مؤثرة وقد
حدث أن عبد الملك بن مروان لما أنزل زفر بن الحارث الكلابى عن
« قرقيسيا » واستقدمه اليه وأقعده على سريريه ، عاقبه البعض على
تقدير رجل كان فى الأمس من ألد أعدائه وسيفه يقطر من دماء قومه
فلم ينفع العتاب ، فبلغ ذلك الأخطل وهو يشرب ، فمضى حتى دخل على
عبد الملك وأنشد :

وكأس مثل عين الديك صرف

تنسى الشاربين لها العقولا

اذا شربت ألفى منها ثلاثا

بغير الماء حاول أن يطولا

مشى قرشية لاشك فيها

وأرخصى من مآزره الفضولا

فقال : له عبد الملك : ما أخرج هذا منك يا أبا مالك الا خطبة فى
رأسك • قال : أجل والله يا أمير المؤمنين ، حيث تجلس عدو الله هذا
معك على السرير ، وهو القائل بالأمس :

(١٨) الشعر والشعراء ج ١ ص : ٤٣٩ (مرجعته : ثقيلة -

الحيزوم : وسط الصدر وما يضم عليه الحزام) •

وقد يئبت المرعى على دفن الثرى وتبقى حزازات النفوس كماهيا
فقبض عبد الملك برجله ثم ضرب بها صدر زفر فقلبه عن السرير،
وقال : اذهب الله حزازات تلك الصدور (١٩) *

وقد يقال : ان عبد الملك تأثر بما قاله الأخطل لأنه شاعره المفضل
... فأراد أن يرضيه بصنيعه مع زفر بن الحارث الكلابي أو لأن
الأخطل آثار في عبد الملك غضبه الشديد على « زفر » حينما خرج عليه
وأعلن العصيان فكان من عبد الملك ما كان *

والواقع أن في كتب الأدب التراثية من النماذج الكثيرة ما يؤكد
افتتان عبد الملك بالشعر الجيد حتى ولو كان صادرا من عدوه ، ويكفى
على سبيل الاستدلال أن عبد الملك سأل عن عمران ابن غصام —
وكان من الشعراء الذين خرجوا عليه مع ابن الأثعث — فقبل له —
قتله الحجاج ، فقال : ولم ؟ ... قال : بخروجه مع ابن الأثعث ،
قال : ما كان ينبغي له أن يقتله بعد قوله فيه :

وبعثت من ولد الأغـر معتـب

صقرا يلوذ حمامه بالعوسج

فاذا طبخت بناره أنضجتها

واذا طبخت بغيرها لم تنضج

وهو الهزبر اذا أراد فريسة

لم ينجها منه صريخ الهجج (٢٠)

وكثيرا ما كان الشعراء المجيدون يظفرون بهباته السخية وجوائزه
الثمينة وعلى سبيل الاستدلال أيضا ما كان شأنه مع « أعشى ربيعة »

(١٩) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص : ٢٥٠ *

(٢٠) العقد الفريد ج ٥ ص ٣١٣ *

عبد الله بن خارجة حيث دخل على عبد الملك فمدحه بقصيدة طرب لها
عبد الملك أيما طرب ومما قاله فيها :

وما أنا في أمرى ولا في خصومي

بمهتم حتى ولا قمارع مسنى
ولا مسلم مولاي عند جناية

ولا خائف مولاي من شر ما أجنى
وان فؤادا بمن جنبى عالم

بما أبصرت عيني وما سمعت أذننى
وفضلانى فى الشعر واللب أننى

أقول على علم وأعرف من أعنى
فأصبحت اذ فضلت مروان وابنه

على الناس قد فضلت خير أب وابن
فقال عبد الملك : من يلومنى على هذا ؟ وأمر له بعشرة آلاف
درهم وعشرة تخوت ثياب وعشر فرائض من الابل * وأقطعه ألف جريب
وقال له : امعن الى زيد الكاتب يكتب لك بها * وأجرى له (٢١) *

ومثل هذا العطاء ليس بغريب على رجل كان يقدر بحسه الأدبى
المواعى ما لحسن البيان وبلاغه القول — ولو لم يكن شعرا — من أثر
فعال فى النفوس * فقد حدث — أن وقع فى قبضته رجل من الخوارج
وكان يهم بقتله ، واذا بابنه مروان يدخل عليه باكيا لأن مؤذبه ضربه ،
فشق ذلك على عبد الملك ، فأقبل عليه الخارجى يقول (٢٢) :

دعه يبك ، فانه أرحب لشدقه — وأصح لدماغه ، وأذهب لصوته ،
وأحرى ألا تأبى عليه عينه اذا حضرته طاعة ربه فاستدعى غبرتها ،
فتعجب عبد الملك وقال له : أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا ؟ فقال

(٢١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٦٣ *

(٢٢) تهذيب الكامل ج ١ ص ١٨٤ *

الخارجي : ما ينبغي أن يشغل المؤمن عن قول الحق شيء • فأمر عبد الملك بحبسه وصفح عن قتله ، وقال له : لولا أن تفسد بألفاظك أكثر رعيتي ما حبستك •

ويدخل العجاج الراجز المشهور على عبد الملك فيسأله عبد الملك ، يا عجاج بلغني أنك لا تقدر على الهجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين من قدر على تشييد الأبنية أمكنه إخراج الأخبية ، قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : أنا أن لنا عزا يمنعنا من أن نظلم ، وأن لنا حُلماً يمنعنا من أن نظلم ، فعلام الهجاء ؟ قال عبد الملك : لكلماتك أشعر من شعرك • فأنى لك بعز يمنعك من أن تظلم ؟ قال : الأدب البارع ، والفهم الناصع ، فما الحلم الذي يمنعك من أن تظلم ؟ قال : الأدب المستطرف ، والطبع التالف ، قال : يا عجاج لقد أصبحت حكيماً ، قال : وما يمنعني وأنا نجى أمير المؤمنين ؟ •

ولعل في هذا ما يكشف لنا عن سر نفوره الشديد وتحذيره من (٢٣) اللحن في القول لأنه — هجنة على الشريف ، وأقبح من التفتيق في الثوب والجدرى في الوجه — وكان يحز في نفسه ما عرف به ولداً « الوليد — ومحمد » من اللحن • وكان يقول : لقد أضر بالوليد حيناً له فلم نوجهه إلى البادية » (٢٤) • وسئل يوماً لم عجل عليك الشيع يا أمير المؤمنين ؟ فقال : شيعني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن (٢٥) •

وكان لعبد الملك بن مروان نظرات نقدية في الشعر بأغراضه المختلفة تشعرونا بدقة احساسه بمواطن الجمال ، هذا فضلاً عما كان لها من دور بارز في الارتقاء بالنقد والأخذ بيده من مرحلة الانطباعية والتعميم إلى

(٢٣) الخطابة في صدر الإسلام ج ٢ ص : ٢٨٢ • محمد طاهر

درويش •

(٢٤) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٠٨ •

(٢٥) المرجع نفسه ج ٢ ص ٣٥٧ •

مرحلة التعليل والتحليل الفني المقنع، ويكفى عبد الملك أن تحظى نظراته النقدية — بعد فترات زمنية ليست باليسيرة — بأنصار من علمائنا النقاد يفسرونها ويتخذون منها أسساً نقدية يتزود بها الناقد في تعامله مع النص الشعوري وييسر الشاعر على هديها في التعبير عن تجاربه الشعرية .

وها هو ذا عبد الملك يسر بمقدم جرير ويجزل له في المعطاء بعد أن كان غاضباً عليه لمديحه للقيسية — وكانت من القبائل المقردة عليه — فقد روى أن الحجاج أرسل جريراً إلى عبد الملك في صحبة ابنه طمعا في السماح له بالدخول ، فلما دخل جرير قال له عبد الملك : ماذا عسى أن نقول فينا بعد قولك في الحجاج عاملنا :

من سد مطلع النفاق عليكم أو من يصول كصول الحجاج !

إن الله لم ينصرنا بالحجاج ، وإنما نصر دينه وخليفته ، وظهر الغضب في وجه عبد الملك ، فتوسط ابن الحجاج في الرضى ، فاستأذن جرير في الانشاد ، وأنشد قصيدته التي يقول فيها :

أستتم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح ؟

فتبسم عبد الملك وقال : وكذلك نحن وأمر له بمائة من الإبل وثمانية أعبد لرعايتها . وكان بين يديه صحاف من فضة . فقال جرير : والمجلب يا أمير المؤمنين ؟ فنبتذ إليه بواحدة منهم ، فلذلك يقول جرير في قصيدة يمدح يزيد بن عبد الملك :

أعطوا هنيئة يحدوها ثمانية ما في عطائهم من ولا سرف

وصار ينفذ على عبد الملك من ذلك الحين ، ويأخذ الجوائز ، وكانت جائزته أربعة آلاف درهم وتوابعها من الحملان والكسوة (٣٦) .

(٣٦) أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ص ٣٦٣ وما بعدها .

وبون شاسع بين ما كان من عبد الملك لجريير وما كان منه لعبد الله بن قيس الرقييات ، حيث أقبل هو الآخر على عبد الملك بمعد قتل مصعب ، وكان ملازما له يمدحه ، فقال من قصيدة يمدح بها عبد الملك ، وكان قد أمنه :

يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فقال له عبد الملك : يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأنى من العجم وتقول في مصعب :

أنما مصعب شهاب من الألـ تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

أما الأمان فقد سبق ، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبدا (٢٧) •

وكان بالامكان أن يكرم عبد الملك ابن قيس الرقييات كما كان الشأن مع جريير — وقد كان غاضبا عليه أيضا — لكن كأنى بعبد الملك وقد رضى كل الرضا عن جريير لأنه وان مدح الحجاج بما يدور حول تركية النفس وسموها من الحزم والشجاعة ونحوهما الا أنه في مديحه لعبد الملك كان أكثر تركيزا على صفات النفس المتطلعة الى التفرد في كل سام ونبيل لا ليرفع من شأن عبد الملك فحسب ولكن من شأن الأمويين جميعهم • فبنو أمية ارتقوا الى أعلى درجات الخير دون الناس جميعا في كل ميادين الشجاعة ، لأن قول جريير :

أستم خير من ركب المطايا ؟

يوحي بالخيرية في كل جليل تركب من أجله المطايا حربا كان لرد عدوان أو احقاقا لحق أو اغائة للمهوف وما الى ذلك من ألوان المشجاعة

التي يعتز بها العربي ويفخر ، هذا فضلا عن تسنم بنى أمية لأعلى
درجات الكرم دون العالمين •

... وأندى العالمين بطون راح ؟

ومن هنا كان اعجاب عبد الملك بما قاله جرير فيه وفي قومه أقوى
وأشد من اعجابه بما قاله جرير في الحجاج فكان الأرض والمطاء لكن
كيف يرضى عن ابن قيس الرقيات وقد جعل من مصعب في بيته اللذين
أعجب بهما عبد الملك شهابا من الله تفرج به الكرب وتمحي الظلمات
وتحقق به العزة للارعية وتبدد صروح الجبروت والكبرياء •

ولو أن ابن قيس الرقيات جعل في مديحه لعبد الملك ما جعله ...
لمصعب من التركيز على صفات النفس والفؤاد بدلا من جعله ملكا
متوجا يشع النور من جبينه كانه الذهب ، وهي صورة لا تفرد فيها
ولا نمرة ، ولا توحى بأى معنى نبيل يتمتع به أو يربطه بالارعية ، ومن
هنا كان غضبه ونفوره من ابن قيس الرقيات •

وقد يقال : ان ما حدث من عبد الملك لابن قيس الرقيات لا علاقة
له بما قاله في مديحه ، وإنما لإخلاقه للزبيريين بعمامة ومصعب
بخاصة قبل أن يجا إلى عبد الملك •

ولو أن الأمر كذلك لما حظى ابن قيس الرقيات بالأمان من قبل
عبد الملك ، ولما سمح له بالانشاد بين يديه ثم بين ما قاله «ابن قيس»
في مديحه لمصعب وما قاله في مديحه له •

ويأتى قدامة بن جعفر — أحد نقادنا القدامى — بعد وفاة
عبد الملك بما يجاوز المائتى سنة ليرى رأيا فيما ينبغي أن يكون عليه
المديح ، فيتخذ من موقف عبد الملك مع جرير وابن قيس الرقيات ما
يعضد به رأيه ويقويه ومما قاله في هذا الصدد (٢٨) :

(٢٨) نقد الشعر ص ١٨٤ وما بعدها •

لما كنا قدمنا من حال المديح الجارى على الصواب ما أنبأنا أن
الذى يقصد فيه المدح للشيء بفضائله الخاصة به ، لا بما هو عرضي
فيه ، وجعلنا مديح الرجال مثالا في ذلك ، وذكرنا أنه من قصد مدحهم
بالفضائل النفسية كان مصيبا ، وجب أن يكون ما يأتى به من المدح
على خلاف الجهة التى ذكرناها فى الذعوت معيبا .

ومن الأمثلة الجياد فى هذا الوضع ما قاله عبد الملك بن مروان
لعبيد الله بن قيس الرقيات حيث عتب عليه فى مدحه إياه ، فقال له :
انك قلت فى مصعب بن الزبير :

انما مصعب شهاب من اللـ ٠ تجلّت عن وجهه الظلماء
وقلت فى :

يأطلق القاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فوجه عتب عبد الملك انما هو من أجل أن هذا المادح عدل عن
بعض الفضائل النفسية التى هى العقل والعفة والعدل والشجاعة الى
ما يابق بأوصاف الجسم فى البهاء والزينة وقد كنا قد قدمنا أن هذا
غلط وعيب .

ويذهب ابن رشيق — أحد نقادنا القدامى أيضا — الى ما ذهب
اليه قدامة فى تفضيل المديح بالصفات النفسية الا أنه لا يجد غضاظة فى
مزجها بالصفات العرضية أو الجسمية فيقول (٢٩) :

وأكثر ما يعول على الفضائل النفسية التى ذكرها قدامة ، فإن
اضيف اليها فضائل عرضية أو جسمية كالجمال والأبهة وبسطة الخلق
وسعة الدنيا وكثرة العشيرة كان ذلك جيدا ، الا أن قدامة قد أبى منه

وأنكره جملة ، وليس ذلك صوابا ، وإنما الواجب عليه أن يقول : إن
المرح بالفضائل النفسية أشرف وأصح ، فأما إنكار « ما سواها »
كرة واحدة فما أظن أحدا يوافقه فيه أو يساعد عليه .

ومهما كانت أوجه الاتفاق والاختلاف بين الناقدين إلا أنهما
يرجحان موقف عبد الملك التذوقى من الشعاعين .

ويبدو أن قدامة كان معجبا بنقذات عبد الملك ففجده يلتصق
التفسير والمعلل للأحكام التى أطلتها عبد الملك على بعض النصوص
الشعرية غير مشفوعة بتفسير وتعليل .

وها هو ذا كثير ينشد عبد الملك مادحا فيقول :

على بن أبى العاصى ولاص حصينة

أجاد المرىء نسجها وأذلها

بيوت ضعيف القرم حمل قتيها

ويستطلع القرم الأشم احتمالها

فقال له عبد الملك : قول الأعشى لقيس بن معدى كرب أحسن من

قولك حيث يقول له :

وإذا تجيء كتيبة ملمومة

شهباء يخشى الراهدون نهالها

كنت المقدم غير لأبس جنة

بالسيف تضرب معلما أبطالها

فقال : يا أمير المؤمنين وصفتك بالحزم ، ووصف الأعشى صاحبه

بالخرق .

(٣٠) نقد الشعر ص ٩٩ وما بعدها (الدلاص : الدرغ الملساء البينة

أجاد المرىء : صانعها الماهر - القتي : رؤوس مسامير الضلوع .

القرم الأشم : الرجل و المكانة العالية - وكثير من الشعراء العذريين

المشهورين توفى سنة ١٠٥ هـ .

ويعلق قدامة على ما دار بين عبد الملك وكثير فيقول :
والذى عندي في ذلك أن عبد الملك أصبح نظرا من كثير ، إلا أن
يكون كثير غلط واعتذر بما يعتقد خلافه لأنه قد تقدم من قولنا في أن
المبالغة أحسن من الاقتصار على الأمر الوسط بما فيه كفاية ، والأعشى
بالغ في وصف الشجاعة ، حيث جعل الشجاع شديداً الأقدام بغير
جنة ، على أنه وإن كان لبس الجنة أولى بالحزم وأحق بالصواب ، ففي
وصف الأعشى دليل قوى على شدة شجاعة صاحبه لأن الصواب له ،
ولا لغيره إلا لبس الجنة ، وقول كثير تقصير في الوصف (٣٠) •
ولعبد الملك نظرات في شعر الغزل ، وفيها ينبغي أن يكون عليه
وقد حظيت باهتمام الكثيرين من نقادنا وأخذوا يؤصلونها بالتفسير
والتحليل •

وها هو ذا عمر بن أبي ربيعة وقد جعل من غزله متنفساً خصباً
للتعبير عما عجز عنه في ميادين البطولة والأقدام ، فهو بطل مغوار ،
 وأمير مؤمر ، وقمر ساطع في دنيا المعجبات ، المفتونات اللائى يطربنه
ويتمنين واده ، والتضرع اليه لأنه شغف قلوبهن ، وسيطر على
جوارحن ، وشعره الغزالي يدور في جماته حول هذه المعانى وذلك على
شاكلة قواه واصفاً حسب ادعائه — بعض من وقعن في غرامه حالة
رؤيتهن له (٣١) :

بينما يذكرننى أبصرننى
دون قيد الميل يعدو الى الأنحر
قالت الكبرى : أتعرفن الفتى ؟
قالت الوسطى : نعم هذا عمر

(٣١) ذيل الآمال والنوادر ص ٦٦ وما بعدها (شريت : يقال :
شرى جالده أى خرج عليه الشرى وهو بثور صفار حمر حكاكة مكربة
تحدث دثعة واحدة وتشتد ليلاً لبخار حار يشور في البدن) •

قالت الصغرى : وقد تيمتها
 قد عرفناه وهل يخفى القمر
 ذا حبيب لم يعرج دوننا
 ساقه الحين الينا والقدر
 فأتانا حين ألقى بركه
 جمال الليل عليه واسبطر
 ورضاب المسك من أثوابه
 مرمر الماء عليه فنضر
 قد أتانا ما تمنينا وقد
 غيب الأبرام عنا والقدر

فعمر كما في الأبيات جعل نفسه معشوقا لا عاشقا وأعطى لنفسه
 من الصفات ما ينبغي أن تعطى للنساء ، ولهذا وجدنا عبد الملك
 ابن مروان يعجب بعمر ويزيد له في العطاء حينما سمع نه عكس
 ما اشتهر به ، فها هو ذا يعبر بن وجد بمحبوبته أضناه وجعله يتمنى
 لقاءها حتى ولو كانت في جهنم ، وذلك حينما اجتمع مع كثير عزة ،
 وجميل بثينة بباب عبد الملك ، فأذن لهم - فدخلوا - فقال أنشدوني
 أرق ما قلتم في المغواني ، فأنشده جميل :

حلفت يميننا يا بثينة صادقا
 فان كنت فيها كاذبا فعصيت
 اذا كان جلد غير جلدك منى
 وبأشرنى دون الشعاع شريت
 ولو أن راقى الموت يرقى جنازتى
 بمنطقها في الناطقين حييت

وأنشد كثير عزة :

بأبى وأمى أنت من مظلومة
 طبن العدو لها فغير حالها
 لو أن عزة خاضعت شمس الضحى
 فى الحسن عند موفق لقضى لها
 وسعى الى بصرم عزة نسوة
 جمال المليك خدودهن نعالها
 وأنشد عمر بن أبى ربيعة :
 ألا ليت قبورى يوم تقضى منيتى
 بتلك التى من بين عينيك والفم
 وليت طهورى كان ريقك كله
 وليت حنوطى من مشاشك والدم
 ألا ليت أم الفضل كانت قريبتى
 هنا أو هنا فى جنة أو جهنم
 فقال عبد الملك لحاجبه اعط كل واحد منهم ألفين ، واعط صاحب
 جهنم عشرة آلاف (٣٢) .

وما أعجب به عبد الملك هو ما دعا اليه كثير من نقادنا ممن أتوا
 بعده فالغزل عندهم — « هو ما كثرت فيه أدلة عن التهاك فى الصباية
 وتظاهرت فيه الشواهد الى افراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من
 التصايب والرقّة أكثر مما يكون من الخشن والجلادة ، ومن الخشوع

(٣٢) ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ١٧٣ وما بعدها (الحين : المحنة

— البرك : صدر البعير أو ما ولى الأرض منه — اسبطر : امتد — مرمر الماء

جعلته يمر على الشئ . . الأبرام : جمع البرم وهو السامة والضجر —

القدر : ابتعاد المرأة عن الرجال .

والذلة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعزة ، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضد التحافظ والعزيمة ووافق الانحلال والرخاوة (٣٣) •

ومما يدعو الى الإعجاب أن عبد الملك كان يتمتع بحسن دقيق وبصر فنى نحو إحياءات اللفظة في نسقها الشعري فاق احساس وبصر كبار الشعراء •

وها هو ذا جرير يقول معرضا بتغلب ومحاولا استعداء عبد الملك على الأخطل الشاعر التغلبى فيقول :

ان الذى حرم المكارم تغلبا
جعل الخلافة والنبوة حينما
مضر أبى وأبو الملوك فهل لكم
يا آل تغلب من أب كأيفنا
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة

لو شئت ساقكم الى قطينا
فيقول عبد الملك معلقا على شعره : ما زاد على أن جعلنى رجل
شرطة ، ولو قال : لو شاء ساقكم الى قطينا لفعلت (٣٤) •

وفى هذا التعليق ما يدل على حس أدبى لاقط ، وتذوق فنى رائع ، حيث تخلص من وقية أرادها جرير يذهب ضحيقتها الأخطل شاعر عبد الملك المفضل ، وكسب رضا الشعارين ، هذا فضلا عن وضعه لجرير فى دائرة الحرج وعدم التوفيق فى مراعاته لآداب مخاطبة أصحاب السلطة والنفوذ •

(٣٣) نقد الشعر ص ١٧٣ والعمدة ج ٢ ص ١٠٠ وما بعدها
والمدناعتين ٩٧ وما بعدها •

(٣٤) رحلة الشعر ص ٣٣ د: مصطفى الشكعة •

ومن هذا القبيل — أيضا — ما كان من جرير حينما دخل على
عبد الملك فأنشده قصيدته التي مطلعها :

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشية هم صحبك بالرواح

فقال له : بل فؤادك يا ابن الفاعلة ، كأنه استثقل هذه الأوجه (٣٥)
وينشده الأخطل قصيدته الرائية التي يمدحه بها فيقول بادئا :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا ...

فقال له : بل منك ان شاء الله ، فعاد الأخطل وغير المطلع بقوله :
« خف القطن فراحوا اليوم أو بكروا » (٣٦) ..

ويصل ذو الرمة على عبد الملك فينشده قصيدته البائية في مدحه
بادئا بقوله :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مغرية سرب

— وكانت بعين عبد الملك ريشة وهي تدمع أبدا — فقال له : وما
سؤالك عن هذا يا جاهل ، واهر باخراجه .

وكان الأحرى بهؤلاء الشعراء ألا يغفوا في هذائهم لعبد الملك
ما يتمتع به من تفوق مرهف واحساس دقيق بإحصاءات الألفاظ
والتراكيب ، وهدى مواءمها لمتطلبات المقام .

لأن من يدرى فعل ما حدث منهم أو من هم على شاكلتهم ممن
وقعوا في حرج أمام نقداً عبد الملك كان مقدرا ليساهم في الكشف
عن مائة فنية رفيعة عند عبد الملك كان لها دورها البارز في ازدهار الأدب
بعمامة الشعر بخاصة في عصره وكذلك بعد عصره ، حيث حرص

(٣٥) النعمان ج ١ ص ٢٢٢ .

(٣٦) أبو شريح للمرزباني ص ٢٤٦ .

الشعراء المفكسون والفاطون بلسان بنى أمية على أن يهتموا بتجويد عباراتهم واختيار ألفاظهم وتدخل معانيهم مادام في ذلك إرضاء للملك الخليفة واشباع لرغباتهم في تكمين ثروات طائلة من تلك الأعطيات والجوائز التي لا يضمن بها الخليفة على المجيدين منهم .

وليس بخاف على أحد من المنشغلين بالأدب وتاريخه أن الأخطل كان شاعر بنى أمية يمدحهم ويتقرب اليهم منذ معاوية بن أبى سفيان واتخذه يزيد بن معاوية نديما له ، فكان يرافقه ويلزمه حتى في الحج الى البيت الحرام (٣٩) ، الا أن الأخطل لم يأت بالروائع الشعرية الا في عصر عبد الملك ، وقصيدته التي مدحه بها بعد فتحه العراق وانتصاره على مصعب بن الزبير « خف القطين » طارت شهرتها في الآفاق حتى أنه ليروى « أن عبد الملك قال له حين أنشدتها : ويحك يا أخطل أتريد ان أكذب الى الآفاق أنك أشعر العرب ؟ فقال الأخطل : اكتفى بقول أمير المؤمنين ، وأمر عبد الملك له بجفنة كانت بين يديه فملئت دراهم وألقى عليه خلعا وخرج به هوالى لعبد الملك على الناس يقول : هذا شاعر أمير المؤمنين ... هذا أشعر العرب (٣٩) .

واذا كان جرير قد اشتهر بأبيات أربعة فان أحد هذه الأبيات قوله في مدح عبد الملك :

أستقم خير من كب المطايا وأندى العالمين بطون راح ؟

وحسب عبد الملك أن يكون من بين الذين التقوا حوله ينطقون بلسانه ويشيدون برغباته فرسان الشعر وأربابه آنذاك — جرير والفرزدق — باتفاق الكثيرين من أهل الأدب يقول الأصفهاني :

(٣٧) العملة ج ١ ص ٢٢٢ والتفسير للأدب ص ٩٢ .

(٣٨) الأغاني دار الكتب ج ٨ ص ٣٠١ .

(٣٩) ارجع نفسه ج ٢ ص ٢٨٧ .

« جرير والفرزدق والأخطل المقدمون على شعراء الاسلام الذين لم يدركوا الجاهلية جميعا ، ومختلف في أيهم المتقدم ، ولم يبق أحد من شعراء عصرهم الا تعرض فانفضح وسقط ويقرأ يتصاولون » (٤٠) .
وطبيعى أن يكون ما حرص عليه شعراء ابن مروان على اختلاف مشاربهم من الجودة في أشعارهم هو ما حرص عليه شعراء الأحزاب المعارضة من شيعة وخوارج وزبيريين تدفعهم في ذلك رغبة التفريق في التأثير على جمهور المسلمين بما يروجون لأحزابهم من ناحية والاعتداد بقدراتهم الشعارة من ناحية أخرى .

ولم يحل حرص الشعراء على الجودة من كثرتهم آنذاك كثرة لم تعهد من ذى قبل . وها هو ذا جورجى زيدان يقسم عصر بنى أمية بالنظر الى أغراض شعرائه الى ثلاثة أدوار ، وفي حديثه عن الدور الثانى يشير الى تميز عهد عبد الملك بكثرة شعرائه وكثرة النابغين فيهم دون سائر عهود خلفاء بنى أمية فيقول :

وخلفاء هذا الدور : مروان وابنه عبد الملك ، فالوليد ، فسليمان ، فعمر بن عبد العزيز ، ولكن معظمه في زمن عبد الملك بن مروان بحيث يصح أن ينسب اليه . . . فيقال « دور عبد الملك » وفي أيامه اختلفت الأحزاب وتعدد طلاب الخلافة ، ونشبت الحروب ، وراجت سوق الشعر لجمع الأحزاب أو تفريقها ، وأكثر شعراء العصر الأموى نبغوا في هذا الدور وبلغ عددهم فيه نحو المائة » (٤١) .

ولا يخفى ما كان لشغف عبد الملك بوقوع الخصومة الشعرية بين الشعراء من دور فعال آنذاك في اثراء الحركة الشعرية ونهضتها وانشغال الجماهير بها — ويرى أن جريرا دخل عليه والأخطل عنده . وكاننا قد تهاجيا ، ولم يلتقيا ، فقال جرير للأخطل : من أنت ؟ فقال :

(٤٠) الأغاني ج ٧ ص ١٧٣ .

(٤١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٤٣ .

أنا الذى منع نومك ، وهضم قوامك ، فقال له جرير : ذاك أشقى لك ،
 ثم أقبل جرير على عبد الملك ، فقال : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ فضحك
 وقال : هذا الأخطل يا أبا حذرة ، فقال جرير : ائذن لى يا أمير المؤمنين
 فى ابن النصرانية ، فقال : لا يكون ذلك فى مجلس ، فوثب جرير
 مغضبا فقال عبد الملك : قم يا أخطل ، واتبع صاحبك ، فانما قام غضبا
 علينا فيك ، فنهض الأخطل ، فقال عبد الملك لخادم له : انظر ماذا
 يصنعان اذا برز الأخطل (٤٢) .

ويبدو أن عبد الملك كان حريصا على أن تبقى دولة الشعر نابضة
 بالحيوية والحركة بعده — أيضا — والناظر لكتب الأدب وتاريخه
 الى التراثيين يرى أن عبد الملك كان يرغب أبناءه فى التعلق بالشعر
 ويسمعهم منه ما يتفق مع المقام ويدفعهم الى أن يسمع منهم هو الآخر
 » وقد حدث أن سابق بين ابنيه سليمان ومسلمة ، وكان من أبناء
 الاماء فسبق سليمان مسلمة فقال عبد الملك :

ألم أنهمكم أن تحملوا هجاءكم
 على خيلكم يوم الرهـان فتدرك !
 وما يستوى المرء ان هذا ابن حرة
 وهذا ابن أخرى ظهرها مقـشرك
 وتضعف عضـداه ويقصر سوطه
 وتقصـر رجلاه فلا يقـشرك
 وأدركه خـالاته فنزعنه
 الا أن عرق السـوء لابد يدرك

ثم أقبل عبد الملك على مصقلة بن هبيرة الشيباني فقال : أقدرى
 من يقول هذا ؟ قال : لا أدري ، قال : يقوله أخوك الثنى .

قال مسلمة : يا أمير المؤمنين ما هكذا قال حاتم الطائي ، قال
عبد الملك وماذا قال حاتم ؟ فقال مسلمة : قال حاتم :

وما أنكحونا طائعين بناتهم
ولكن خطبناها بأسيا فذا قسرا
فما زادنا فيها السباء مذلة
ولا كلفت خبزا ولا طبخت شذرا
ولكن خلطناها بخير نسائنا
فجاءت بهم بيضا وجوهم زهرا
وكائن ترى فينا من ابن سبية
إذا لقي الأبطال يطعنهم شذرا
ويأخذ رايات الطعان بكفه
فيوردها بيضا ويصدرها حمرا
أغر إذا اغبر اللثام رأيتـه
إذا ما سرى ليل الدجى قمرا بدرا

فقال عبد الملك :

« وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تصبحينا » (٤٣)

وقد نجح عبد الملك فيما أراد لأبنائه ولدولة الشعر على أيديهم
حيث بلغ من حبهم للشعر وتعلقهم به تذوقا وحفظا أن كانوا يقتاتفسون
فيما بينهم من أجل تفضيل شاعر على شاعر أو معنى على آخر ...
وها هو ذا الوليد بن عبد الملك ومسلمة أخوه (٤٤) - ويتشاجران في
شعر امرئ القيس والنابعة في طول الليل أيهما أشعر ، فقال الوليد :

(٤٣) العقد الفريد ج ٧ ص ١٤٢ وما بعدها .

(٤٤) النقد الأدبي : أصوله ومناهجه ص ١٦٢ .

النايعة أشعر ، وقال مسلمة : بل امرئ القيس ، فرضيا بالشعبي
فأحضراه ، فأنشده الوليد للنايعة :

كلينى لهم يا أميمة ناصب
وليل أقاسيه بطيء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض
وليس الذى يرعى النجوم بآيب
وصدر أراح الليل عازب همه
تضاعف فيه الحزن من كل جانب

وأنشده مسلمة لامرئ القيس :
وليل كموج البحر أرخى سدوله
على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لا تمطى بردفه (٤٥)
وأردف أعجازا وناء بكليل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل
بصبح وما الاصبح منك بأمثل
فيا لك من ليل كان نجومه
بكل مغار الفتل شدت بيذبل

فطرب الوليد طربا ، فقال الشعبي : بانت القضية ، معنى قول
النايعة : وصدر أراح الليل عازب همه ، وأنه جعل صدره مراحا
للهموم ، وجعل الهموم كالنعم السارحة الغادية ، تسرح نهارا ثم تأتي
الى مكانها ليلا وهو أول من أشقار هذا المعنى ، ووصف أن الهموم
مترادفة بالليل لتقيد الألفاظ عما هي مطلقة فيه بالنهار ، واشتغالها
بمصرف اللفظ عن استعمال الفكر ، وامرؤ القيس كره أن يقول أن الهموم

(٤٥) الرواية المشهورة : لا تمطى بصليبه .

يخف عليه في وقت من الأوقات فقال : وما الاصبح منك بأمثل • وقال
الطرماح بن حكيم الطائي :

ألا أيها الليل الطويل ألا أصبح

بيوم وما الاصبح منك بأروح

ولكن للعينين في الصبح راحة

لطرفيها طرفيها كل مطرح

فنقل لفظ امرئ القيس ومعناه ، وزاد فيه زيادة اغتفر له معها
فحش السرقة ، وانما تنبه عليه من قول النابغة ، الا أن النابغة أروح
وهذا صرح •

ويذهب بعض الباحثين الى أن مسلمة بن عبد الملك هو الذي أعاد
« فن » الحكمة الى الشعر وزاولة في أخريات القرن الأول الهجري ،
وهذا بطبيعة الحال يخالف ما كان يجمع عليه مؤرخو الأدب العربي من
أن الشعر لم يطرق الحكمة ولا زاولها بعد زهير وطرفة بن العبد الا في
أخريات القرن الثاني الهجري ، حيث كان يعيش بشار الذي كان في
تقدير — مؤرخي الأدب العربي — أول من ظهرت الحكمة في شعره
في مستهل العصر العباسي ، وأن فن الزهد والحكمة انما ازدهر عند
أبي العتاهية (٤٦) •

واذا كانت الحاسة الأدبية عند عبد الملك قد لعبت دورها البارز
في ازدهار الشعر ورواجه فانها لعبت — أيضا — دورا نشطا في تثبيت
دعائم ملكه والتغلب على سائر الأحزاب السياسية وحركات التمرد
المعارضة لبنى أمية •

فاذا ما كان عبد الملك حافظا للشعر وعارفا بأخبار بيوتات العرب
فلم لا يذكرهم بما قيل فيهم من شعر ويشجعهم على الانشغال
بمآثرهم وما قيل فيهم من أشعار — في وقت عادت فيه العصبية

(٤٦) مسلمة بن عبد الملك : حياته العسكرية والأدبية ص ٨٦

التبالية أقوى مما كانت عليه في الجاهلية — بدلا من أن يشغلوا بما
يفسد عليه أمره ، وبخاصة إذا ما كانوا من هؤلاء الذين يتقفون بجانب
معارضيه ، أو الذين يميلون مع الرياح حيث تميل ؟

وها هو ذا عبد الملك وقد دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير ،
يدعو الناس الى البيعة ، فتقدم اليه معشر عدوان ، وفي ذلك يقول معبد
العدواني : فقدمنا اليه رجلا وسيما جميلا وتأذرت — وكان معبد
دميما — فقال عبد الملك : من ؟ فقال الكاتب : عدوان ، فقال عبد الملك :

عذير الحى من عدوا

ن كانوا حبة الأرض

بغى بعضهم بعضا

فلم يرعوا على بعض

ومنهم كانت السادا

ت والموفون بالقرض

ثم قال على الجميل : فقال : ايه ! فقال : لا أدري ، فقلت من
خلفه :

ومنهم حكم يقضى

ومنهم من يجبر الحج

وهم مذ ولدوا شجوا

فلا ينقض ما يقضى

بالسنة والفرض

بسر النسب المحض

قال : فتركتى عبد الملك ، ثم أقبل على الجميل فقال : من هو؟ قال :
لا أدري ، فقلت من خلفه : ذو الاصبع ، قال : فأقبل على الجميل ،
فقال : ولم سمى ذا الاصبع ؟ فقال : لا أدري . فقلت من خلفه لأن حية
عضت اصبعه فقطعتها فأقبل على الجميل فقال : ما كان اسمه ؟ فقال :
لا أدري فقلت من خلفه : حرشان بن الحارث ، فأقبل على الجميل
فقال : من أيكم كان ؟ قال : لا أدري ، فقلت من خلفه : من بنى ناج ،
فقال :

أبعد بنى ناج وسعيك بينهم
 فلا تتبعن عينيك ما كان هالكا
 إذا قلت معروفاً لأصلح بينهم
 يقول وهيب : لا أصلح ذلكا
 فأضحى كظهر العير جب سنامه
 تطيف به الولدان أحذب باركا

ثم أقبل على الجميل، فقال كم عطاؤك ؟ قال : سبعمائة، فقال لى :
 من كم أنت ؟ قلت فى ثلاثمائة . فأقبل على الكاتبين ، فقال حطا من
 عطاء هذا أربعمائة وزيداهما فى عطاء هذا ، فرجعت وأنا فى سبعمائة
 وهو فى ثلاثمائة (٤٧) ، وما كان من عبد الملك مع وفد عدوان على سبيل
 الاستدلال لا الحصر .

ود أدرك عبد الملك بحسه الأدبى ما طرأ على المجتمع العربى
 من تحول لا يستهان به فى مجال التأثير الفكرى والعاطفى بما يسمعون
 من أشار الشعراء حول الخلافة والجديريين بها ، لذا لم يأل جهدا فى
 استقطاب الشعراء وانتزاع ألسنتهم من ساحات الأحزاب المعارضة
 أملا فى أن يضيفوا اليه وللأمويين بعامة كسبا أعلاميا يعمل على
 تثبيت ملكهم واستقراره ، وكان لعطاء عبد الملك وهباته المسخية أثرها
 من هذا الاتجاه ، وبخاصة مع معظم شعراء المزيريين ان لم نقل
 جميعهم ، وذلك لتضييق عبد الله بن الزبير عليهم واغفاله من مصانعتهم .

ومما هو جدير بالذكر أن عبد الملك بن مروان أشار الى ما كان
 لعطاياه والتفاف الشعراء حوله من أثر قوى فى استقرار حكمه وقدرته
 على التفوق سياسيا فى ادارة شئون الخلافة ، وأن ابن الزبير كان
 دونه لبذله وعدم مصانعته للشعراء ، والراغبين فى الأموال وبريقها ،

وذلك حينما سمع قول أعشى بنى شيبان يمدحه :

عرفت قريش كلها	لبنى أبى المعاص الأمانة
لأبرها وأحقها	عند المشورة بالإشارة
المانعين لما ولوا	والنافعين ذوى الضراره
وهم أحقهم بها	عند الحارة والمراره

فقال معقبا : ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى ، وإن ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام ، ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائسا (٤٨) .

لذا لا نعجب أن نسمع من شاعر مثل أبى العباس الأعمى هجاء مرا المزبيريين في موطن خلافتهم ومقر حكمهم « مكة » وذلك على نحو قوله هاجيا بنى أسد « عشيرة آل الزبير » بعد أن نفاه عبد الله بن الزبير إلى الطائف ، وكان قد علم باتصاله بالأمويين ومدحه لهم :

بنى أسد لا تذكروا الفخر بينكم
متى تذكروه تكذبوا وتحققوا
متى تسألوا فضلا تضلوا وتبخلوا
ونيرانكم في الشر فيها تحرق
إذا استنبتت يوما قريش خرجتم
بنى أسد سكتا وذو المجد يسبق
تجيئون خلف القوم سودا وجوهكم
إذا ما قريش للأضياع أصفتوا
وما ذاك إلا أن للؤم طابعا
يلوح عليكم ومسه ليس يخلق

وواضح من الأبيات أن الشاعر اتخذ من البخل مادة لهجاء...
الزبيريين، وأنه دفع إلى ذلك بما أغدق عليه من عطايا الأمويين وهباتهم
تلك التي جعلته يتجاوز الزبيريين في هجائه إلى الشيعة، وذلك على
نحو قوله لابن الطفيل عامر بن وائلة وكان شيعيا :

لعمرك اننى وأبا طفيل

لختلفان والله الشهيد

لقد ضلوا بحب أبى تراب

كما ضلت عن الحق اليهود

وكان عبد الملك بن مروان يميل إلى هجاء أبى العباس للزبيريين
... ورميه لهم بالبخل حتى ينصرف عنهم الأعوان والمساعدون ممن
كانوا يجعلون العطايا هدفيهم الأسمى ، وقد حدث أن ابن الزبير
كسببني أسد وأحلافها ولم يكس أبى العباس فقال :

كمت أسد اخوانها ولو أننى

ببلدة اخواني اذ لكسيت

فلم تر عيني مثل حى تحملوا

إلى الشام مظلومين منذ بريت

فلما حج عبد الملك عقب استيلائه على الحجاز استنشد هذه
الأبيات ثم أوحى إلى الناس أن يخلعوا عليه ففعلوا حتى اجتمع له من
دول الروش والخز قدر ضخم وأمر له بعد ذلك بمال عظيم (٤٩) .

ولقد بلغ من حرص عبد الملك على استقطاب الشعراء وافتزاز
ألسنتهم من معارضتهم أنه كان يرسل بالعطايا لورثة الشعراء الذين
كانت لهم مواقف في الأشادة ببني أمية ولم تصلهم عطاياهم .

وفي قصته مع أبناء فضالة بن شريك ما يكشف لنا عن عمق ادراكه
لدور الشعر في توجيه الأفتدة والقلوب ، وترينا مدى الفارق بينه
وبين عبد الله بن الزبير في التعامل مع الشعراء — وكان فضاله بين شريك
قد وفد على عبد الله بن الزبير الذي تربطه به صلة رحم وقال له :
نفدت نفقتي ، ونقبت راحلتي ، فقال ابن الزبير له : أحضرها ، فأحضرها
فقال : أدبر بها ، أقبل لها ثم أرقعها بسببته واحصفها بهاب ، وأنجد بها
ببرد خفها : وسر بها البردين تصح ، فقال فضالة : أتيتك مستحملا ،
ولم آتك مستوصفا ، فلعن الله ناقة حملتني إليك ، فقال عبد الله : ان
وصاحبها ، فتركه وأنشد :

أقول للغامتي شذوا ركابي
أجـاوز بطن مكلة في سواد
فما لي حين أقطع ذات عرق
الى ابن الكاهلية من معاد
بيعد بيننا نص المطايا
وتعليق الأداوى والمزاد
وكل معبد قد أعملته
مناسـمـهن طلاع النجاد
أرى الحاجات عند أبى حبيب
نكون ولا أمية في البلاد
من الأعياض أو من آل حرب
أغر كفرة الفرس الجسواد

قال ابن الزبير لما بلغه هذا الشعر : علم أنها شر أمهاتى فغيرنى
بها وهى خير عماته .

ولما تم الأمر لعبد الملك أرسل في طلب فضالة فعرف أنه مات ،
فأرسل الى ورثته عددا ضخما من الأبل يحمل تبرا وتمرا (٥٠) ، وذلك
تقديرا لاشادة فضالة بالأمويين وسخريته من ابن الزبير سخرية لاذعة ،
وكان مما قاله في انشاده أيضا (٥١) :

شكوت اليه أن نقبت قلوصي
فرد جواب مشدود الصفاد
يضمن بناقة ويروم ملكا
محال ذلكم غير السداد

وإذا كان الشعراء الشيعة يعتدون في هديجهم لآل بيت رسول
الله — صلى الله عليه وسلم — على الطابع الديني — لالتفاف جمهور
المسلمين حولهم والمعل على نصرتهم — فهم أولى الناس باهتمام
المسلمين ، وهم الورثة الشرعيون لرسول الله صلى الله عليه وسلم —
في هداية الناس ، وكذلك كان الخوارج — يصدرون في شعرهم عن
حماسة دينية فهم جماعة آمنوا بعقيدتهم ، واعتقدوا أن المسلمين ضلوا
سواء السبيل ، أما هم فعلى الصراط المستقيم الذى تريده العناية
الالهية (٥٢) — وشعراء الزبيريين يتغنون بالصلوات التى تربط بين

(٥١، ٥٠) الأغاني — دار الكتب ج ١٢ ص ٧١٣ وما بعدها — السبب
— بكسر السين : الجلد المدبوغ — الخصف : المراد به شد الخداء المصنوع
من السبب الى خف الناقة بخيط مصنوع من الشعر الهلب يضم الهاء :
الشعر — أنجد بها : يسرفى الطرق المرتفعة — ان : بمعنى نعم — الكاهلية
احدى أمهات ابن الزبير — أبو حبيب : كنية عبد الله بن الزبير لمن أراد
ذمه — الأعياص : خمسة من أبناء أمية هم : العاصى وأبو العاصى والعيص
وأبو العيص والعويص — نقب البعير إذا حنى ورقته اخفافه — القلوصى : الناقة

(٥٢) التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص : ٩١ .

رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وابن الزبير ، فالزبير ابن عمه
النبي — صلى الله عليه وسلم — صفية بنت عبد المطلب ، وابن أخ خديجة
أم المؤمنين ، وهو من السابقين إلى الإسلام ، والمشهورين بالوفاء
والإقدام شهد بدرا وسائر الغزوات ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم
— يدعو حواريه ، فدعاه المسلمون حوارى رسول الله — صلى الله
عليه وسلم — وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة الذين
اختارهم عمر لينتخبوا خليفة من بينهم ، وابن الزبير بن السيدة أسماء
بنت أبي بكر ذات النطاقين ، وأخت عائشة ، وكثيرا ما كانت تدعوه
بأبنها (٥٣) .

فلم لا يوجه عبد الملك شعراءه إلى مزج ديدجهم بما يضيف على
شخصه وحكمه بريقا من المقداسة المستمدة من رعاية الله له ، حتى ولو
كان الأمر غير ذلك رغبة منه في ألا يدع فكرة اعلامية لشعراء الأحزاب
الأخرى ينفردون بها دون شعرائه . ولهذا وقع من نفسه موقعا حسنا
ما عال به الباحث الأستاذ طه أحمد إبراهيم أعجاب عبد الملك بقول
ابن الرقيات مادحا مصعب بن الزبير :

انما مصعب شهاب من الال — تجلت عن وجهه الظلماء

وعدم اعجابه بقوله فيه مادحا :

يأتلق القاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

حيث يقول معللا : ان البيت لم يقع موقعا حسنا من نفس عبد الملك
لأنه يدل في مدحه عن الفضائل النفسية كما يقول قدامة ، بل لأن بين
البيتين بونا شامعا في الجمال والقوة والروح لأن بيت ابن الرقيات في
مصعب أروع وقعا وأعلى نفسيا ، وأملس بالنور العاوى ، وأشد

اتصالا بالله ، الذي يحرص الخلفاء على أن يمثلوه في الأرض • لهذا وحده • عتب عبد الملك على الشاعر (٥٤) •

ولعل من أسباب اعجاب عبد الملك بقصيدة الأخطل التي مدحه بها وجعله من أجلها شاعر العرب ، والتي بدأها بقوله : « خف القطين » أن الأخطل جمع له فيها بين الصفات التي كان الجاهليون يفاخرون بها — كالحلم والشجاعة والنجدة والكرم ونبل المحقق وما إلى ذلك — وبين المعاني الدينية التي دار مديح شعراء الأحزاب المناوئة حولها ، فهو امام يستمد سلطانه من الله — عز وجل — وليس لأحد أن ينازعه حقه الالهي في الخلافة ، وذلك على شاكلة قوله :

الى امام تناديننا فواضله

أخفرو الله فليهنى له الظفر

الخائض الغمر واليمون طلعت

خليفة الله يستسقى به المطر

وما الفرات اذ جاشت غواربه

في حافتيه وفي أوساطه العشر

وززعته رياح الصيف واضاربت

فوق الجأجيء من آذيه غدر

مسحتقر من جبال الروم يستقره

منها أكافف فيها دونه زور

يوما بأجود منه حين تسأله

ولا بأجهر منه حين يجتهر (٥٥)

(٥٤) تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي الى القرن

الرابع ص ١٣٨ وما بعدها •

(٥٥) ديوان الأخطل ص : ٩٩ وما بعدها •

وها هو ذا الفرزدق يمدح عبد الملك فيجعل منه خليفة الله على الأرض شأنه في ذلك شأن خلفاء بني أمية جميعهم ، لأنهم ورثوا الخلافة عن عثمان — رضى الله عنه — لذا فالله ناصرهم ، وخاذل كل من يطمع في الخلافة سواهم فيقول :

فالأرض لله ولاها خليفة
وصاحب الله فيها غير مغلوب
بعد الفساد الذي قد كان قام به
كذاب مكة من مكر وتخريب
راموا الخلافة في غدر فأخطأهم
منها صدور وفازوا بالعراقيب
والناس في فتنة عمياء قد تركت
أشرافهم بين مقتول ومحروب
وثموا ليستخلف الرحمن غيرهم
والله يسمع دعوى كل مكروب
تراث عثمان كانوا الأواباء به
سربال ملك عليهم غير مسلوب (٥٦)

وجريير يجعل من عبد الملك أمينا لله في أرضه ، فهو يقرأ القرآن ، ويلتزم بأحكامه وتطبيق مبادئه بين الرعية ، ولولا عبد الملك لضاعت أحكام الاسلام ، وانهارت هبة المسلمين ، وعبد الملك ليس بدعا في ذلك ، فهو سليل المروانيين المفضلين عند الله على سائر خصومهم فيقول :

لولا الخليفة والقرآن يقرؤه
ما قام للناس أحكام ولا جمع

أنت الأمين أمين الله لا سرف
 فيما وليت ولا هيابة ورع
 أنت المبارك يهـدى الله شيعته
 إذا تفرقت الأهواء والشيع
 فكل أمر على يهن أمرت به
 فينا مطاع ومهما قلت يستمع
 يا آل مروان أن الله فضلكم
 فضلا عظيما على من دينه البدع (٥٧)

وواضح من النماذج السابقة أن الشعراء الأمويين لم يكتفوا
 بإضفاء حالة من القداسة والروحانية على عبد الملك وقومه وإنما رموا
 زعماء الأحزاب الأخرى بالفساد والعبث ، وليتهم وقفوا عند حد
 عبد الملك ، وإنما تجاوزوه إلى أبنائه من بعده في صور لا تخلو من
 المبالغة الممتوتة ، وذلك على نحو مدح الفرزدق ليزيد بن عبد الملك
 قائلا :

ولو كان بعد المصطفى من عباده
 نبي لهم منهم لأمر العزائم
 لكنت الذي يختاره الله بعده
 لحمل الأمانات الثقال العزائم
 ورثتم خليل الله كل خزانة
 وكل كتاب بالنبوة قوائم
 وحبك حبيل الله من يعتصم به
 إذا ناله يأخذ به حبيل سالم (٥٨)

(٥٧) ديوان جرير ص : ٣٥٠ .

(٥٨) ديوان الفرزدق ص ١٢٩ .

وفي هشام بن عبد الملك يقول جرير مادحا :

الى المهدي نـقـزـع ان فرغنا
ونستقي بغـرته الغماما
وحبل الله تعصمكم قـواه
فلا نخشى لـعـرته أنفصاما
رضينا بالخليفة حين كنا
له تبعـا وكان لنا اماما
تبشرت البلاد لكم بحكم
أقام لنا الفرائض واستقاما (٥٩)

وليس ببعيد أن تكون مثل هذه المبالغات هي التي دفعت
ابن الحنفية الى القول : أهل بيتين من العرب يتخذهما الناس أندادا
من دون الله نحن وبنو عـمـنا هؤلاء يعني بنى أمية (٦٠) *

على أن هذا المزج في قصيدة المدح جعلها تتخذ طابعا سياسيا
يرفع من شأن الممدوح أما خصومه الذين لا يسلمون فيها من رميهم
بتجاوز أمر الله به يعد تطورا لا يستهان به في قصيدة المديح ، ولا نعدو
الحقيقة اذا ما قلنا : ان عبد الملك بحاسته الفنية وادراكه لرسالة
الشعر كان من وراء هذا التطور *

واذا ما أراد عبد الملك عزل أخيه عبد العزيز عن ولاية العهد
والمبايعة بها لابنه الوليد فبأي شيء يمهـد حتى لا تثار ثائرة المتعاطفين
مع أخيه من المروانيين وغيرهم ويأمن سحق الناس ان لم ينل تأييدهم
ومباركتهم لما نريد ؟ انه لا شيء سوى الايعاز الى شعرائه بالدعوة
الى ما يهدف اليه ، وها هي ذي الوفود تقبل عليه ، وينبرى شعراؤها

(٥٩) ديوان جرير ص ٥٠٥ .

(٦٠) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٦٨ .

طالبين المبايعة للوليد ، فهو أقدر من غيره وأكفاً في توجيهه لأمر
الرعية حرصاً منه على جمع الشمل ورأب الصدع أسوة بأبيه ، ومن
يدري فقد يحدث للرعية ما لا يحمد عقباه على أيدي عبد العزيز
وأبنائه ان بقي ولياً للعهد ، وحول هذه المعاني يدور عمران بن عاصم
وقد وفد في جماعة من قومه على مجلس عبد الملك فيقول :

أمير المؤمنين اليك نهدي

على التأي التحية والسلاما

أجبنى في بنيك يكن جوابي

لهم عادية ولنا قواما

فلو أن الوليد أطاع فيه

جعلت له الخلافة والذماما

شبيهك حول قبه قريش

به يستمطر الفاس الغماما

ومثلك في التقى لم يصب يوما

لذن خلع القلائد والتما

فان تؤثر أخاك بها فانا

وجدك لا نطبق لها اتهاما

ولكننا نحاذر من بنييه

بنى العلات مآثرة سماما

ونخشى ان جعلت الملك فيهم

سحابا أن تعود لهم جهاما (٦١)

ولم يقتصر أمر الدعوة على شعراء الوفود ، وإنما ساهم فيها
الشعراء على وجه العموم . وها هو ذا عبد الله بن المخارق ، نابغة

« بنى شيبان » على سبيل المثال — وكان نصرانيا — يدخل على
عبد الملك • وكن مجلسه حافلا بالناس فكان مما قاله :

آليت جهدا وصادق قسمي
برب عبد تجنه الكرح
يظل يتلو الانجيل يدرسه
من خشية الله طفح
لابنك أولى بملك والده
ونجم من قد عصاك مطرح
داود عدل فاحكم بسيرته
ثم ابن حرب فانهم نصحو
وهم خيار فاعمل بسنتهم
واحى بخير واكدح كما كدحوا

فتبسم عبد الملك ، ولم يتكلم في ذلك باقرار ولا دفع ، فعلم
الناس أن رأيه خلع عبد العزيز (٦٢) •

ومادام الشعراء في بلاط عبد الملك يشبعون كثيرا من رغبات حسه
الفنى وبعده السياسى فلم لا يوسع لهم صدره ويجدون عنده والتهم عليه ،
فقد يكشفون له من أمور الرعية ما دق أمره وخفى عنه ، وهم أقدر
الناس على التقاط أحاسيس الجماهير ومشاعرهم ؟ وقد حدث
كل هذا •

وها هو ذا الأخطل يدخل على عبد الملك بغير إذن وعليه (الأخطل)
جبة خز وفي عنقه سلسلة ذهب يتدلى منها صليب من ذهب وتنفض
الحية خمرا (٦٣) • ويروى — « أنه دخل على عبد الملك فاستشاده ،

(٦٢) الأغاني / ساس / ج ١٦ ص ٥٨ •

(٦٣) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٦٤ •

فقال : قد ميس خلقى فمر من يسقيني ، فقال : اسقوه ماء ، فقال :
هو شراب الحمار وهو عندنا كثير ، قال : فاسقوه لبنا ، قال : عن
اللبن قد غظمت ، قال : فاسقوه عسلا ، قال : شراب المريض : قال :
فتريد ماذا ؟ قال : خمرا يا أمير المؤمنين ، قال : أو عهدتني أسقى
الخمير لا أم لك لولا حرمتك بنا لفعلت وفعلت ، فخرج ، فلى فراشا
لعبد الملك ، فقال : ويحك ان أمير المؤمنين استتشدني وقد صحل
صوتي فاسقني شربة خمر ، فسقاه رطلا ، فقال : أعدله بآخر ، فسقاه
رطلا آخر ، فقال : تركتهما يعتركان في بطني ! فاسقني ثالثا فسقاه ،
فقال : تركتني أمشي على واحدة ، أعدل ميلى برابع ، فسقاه رابعا ،
فدخل على عبد الملك ، فأنشده : « خف القطين » (٦٤) •

وأيا كان مدى صحة هذه الرواية فإنها تلقى الضوء على تلك
المعاملة المرحبة من قبل عبد الملك لشعرائه •

ويذهب عبد الملك الى مكة حاجا ، فيدخل عليه الأعيان على
مراقبتهم ، وقام الشعراء والخطباء فتكلموا ، ودخل أبو العباس
الشاعر — وكان قد رثى مصعبا بعد قتله فغضب عبد الملك — فسأله
عبد الملك عن مدحه مصعبا فاستعفاه ، وقال : انما رثيته لأنه كان
صديقي ، وقد مات أن هواي أموي ، قال : صدقت ولكن أنشدني
قولاك فيه فأنشده :

رحم الله مصعبا فلقد ما

ت كريما ورام أمرا جسيما

فما كان من عبد الملك الا أن قال : — وكأنما أتى لينظر
أبا العباس لا ليحاكمه — أجل لقد مات كريما •

ولكنه رام التى لا يرومها من الناس الا كل حر معمم (٦٥)

وها هو ذا المراعى الذميرى الشاعر يسير الى عبد الملك لونا من ألوان
عنت جامعى الصدقات وقسوتهم على قومه النميريين - ويوجوه رد
المظلم الى أهلها حتى يظل الأمن سائدا في ربوع ملكه فكان مما قال (٦٦) *

أبلغ أمير المؤمنين رسالة
تشكو اليك مضلة وغويلا
أخليفة الرحمن أنا معشر
حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى الله في أهوالنا
حق الزكاة منزلا تنزيلا
ان السعاة عصوك يوم أمرتهم
وأثوا دواهي لو علمت وغويلا
أخذوا العريف فقطعوا حيزومه
بالأصبحية قائما مغولا
حتى اذا لم يتركوا لعظامه
لحما ولا لفؤاده معقولا
جاءوا بصكهم وأحذب أسأرت
منه السياط براعة اجفيا
أخذوا حمولته وأصبح قاعدا
لا يستطيع عن الديار حويلا

(٦٥) الشعر والشعراء ص ٢٦٨ *

(٦٦) جمهرة أشعار العرب ص ٣٥٥

العريف : شيخ القبيلة - الأصبحية : السياط - الصك : صحيفة

الصدقات - اليراعه والاجفيل : الجبان *

يدعو أمير المؤمنين ودونه
 خرق تجر به الرياح ذيولا
 كهدهد كسر الرماة جناحه
 يدعو بقارعة الطريق هديلا
 ولولا أن عبد الملك على درجة رفيعة وواعية من التفهم ورجابة
 الصدر مع شعرائه لما استطاع الراعي أن يطلعه على مثل هذا الخلل
 الإداري والذي يؤدي ستفحاله وشيوعه لى كوارث تهدد بسقوط
 حكمه وزوال ملكه ، وهذا فضلا عن مضمون النص الذي يعد وثيقة
 تاريخية وأدبية نادرة .

على أن رحابة صدر عبد الملك ووعيه الكامل بدور الشعراء لم
 يحولا دون عقابه لمن يتجاوز حدوده من الشعراء بشعر لا يتفق مع
 هواه — حتى ولو كان من أكثر الشعراء عنده — وها هو ذا الأخطل
 يعاتبه على تراخيه في معاقبة القبائل القبسية التي أسرفت في العدوان
 على تغاب — قبيلة الأخطل — فيقول بعد وقعة البشر القاسية :

لقد أوقع الحجاب بالبشر وقعه

الى الله منها المشتكى والمعول

فالا تغيرها قريش بكلها يكـ

ن قريش مسـقراد ومزحل

فما كان من عبد الك الا أن قال له : الى أين يا ابن النصرانية (٦٧) ؟

والمتبع لدور عبد الملك في قيادة جيوشه بنفسه يجد أن حاسته
 الأدبية وتذوقه الجيد للشعر دفعاه بعد تردد لما في قيادة جيوشه
 في أدق المواطن وأصعبها — « وها هو ذا عبد الله بن خارجة يدخل على

عبد الملك فيجده مكرّدا في الخروج لمحاربة ابن الزبير — حيث ظل
مسيطرًا على الحجاز والعراق لسنوات عدة من خلافة عبد الملك الذي
لم يأل جهدا في إرسال الجيوش المتعاقبة للقضاء عليه لكن دون جدوى —
فقال له يا أمير المؤمنين ما لي أراك مثابوا ينهضك الحزم ويقعدك
المعزم ، وتهم بالاقدام وتجنح الى الاحجام ، أنفذ لنصرتك وأمض
رأيك وتوجه الى عدوك ، فجدك مقبل وجده مدبر وأصحابه له ماقطون
ونحن لك محبون ، كلمتهم مفترقة وكلمتنا عليك مجتمعة ، والله
ما تؤتى من ضعف جنان ولا قلة أعوان ، ولا يثبطك عنه ناصح ،
ولا يحرضك عليه غلش ، وقد قلت في ذلك أبياتا ، فقال عبد الملك :
هاتها فانك تنطق بلسان داود وقلب ناصح فقال :

آل الزبير من الخلافة كالتى

عجل النتاج بحملها فأحبالها

أو كالضعاف من الحمولة حملت

ما لا تطيق فضيعت أحمالها

قوموا اليهم لا تقاهوا عنهم

كم الغرابة أطلتهم أمهالها

ان الخلافة فيكمو لا فيهم

مازلتم أركانها وثمالها

أمسوا على الخيرات قفلا مغلقا

فانهض بيمينك فافتتح أقفالها

فضحك عبد الملك وقال : صدقت يا أبا عبد الله ان أبا خبيب —

عبد الله بن الزبير — لقفل دون كل خير ، ولا نتأخر عن مناجزته أن
شاء الله ، ونستعين الله به وهو حسنا ونعم الوكيل وأمر له بصلاة
سنية (٦٨) — وأبيات ابن خارجة — كما هو واضح — فيها من المعانى

الحماسية ما يحسم أحقية عبد الملك وقومه في الخلافة دون سواهم وتحملهم لمسئولية الدفاع عنها وحمايتها لأنهم الممتلكون لأسباب النصر ووسائله ، كما أن فيها من معانى التقليل والتهوين من شأن الزبيريين وزعيمهم عبد الله بن الزبير ما يغري عبد الملك الذواقة على التهيو . .
والتصدي بحزم لخصمه دون تردد أو وجل .

ومما سبق يتجلى لنا ما كان من شأن الحاسة الأدبية الذواقة عند عبد الملك في تخليد أثره وازدهار عهده سواء كان ذلك في ميدان ادلاب بعامة أو الشعر بالخاصة أو في ميدان تثبيت ملكه واستقرار حكمه ، وهى وان كانت غطرية كما يرى بعض المنشغلين بالفنون ومن بينها الأدب ، حيث يرون ، أن هناك حاسة سادسة تولد مع الطفل بها يدرك ما فى الصورة من جمال وما فى الموسيقى من سحر ، كما يتذوق بها ما فى الشعر من حسن الخيال وجودة التصوير (٦٩) . أو كانت ملكة مكتسبة لا تحصل الا بممارسة كلام العرب ، وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه (٧٠) — الا أنها — كما يرى أصحاب الرأيين . — لا تنمو ولا يتمكن صاحبها من توظيفها فى التعامل مع النص الأدبى فهما وتقويما وتمتعا بجمالياته الا عن طريق تغذيتها . . بالاطلاع الدائم على ما نتجته القريحة الأدبية والتمرس على فهم أسرارها وتذوق جمالياته ، وسرعان ما تتم — من هذا المنطلق — جسور التواصل بين النص الأدبى وصاحب الحاسة الأدبية . وينشأ بينهما ما يشبه الرجم أن هجر أحدهما الآخر شعر بالقطعية واندفع بقوة الحزين الى صاحبه .

(٦٩) دراسات فى النقد الأدبى ص ٤١ .

(٧٠) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٨٦ .

والى هذا أشار كثير من النقاد القدامى والمحدثين سواء كانوا عرباً أو غير عرب ، وها هو ذا ابن الأثير يقول : « اعلم أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذى هو أنفع من ذوق التعليم .. فان الدربة والادمان أجدى عليك نفعا وأهدى بصرا وسمعا وهملا يريانك الخبر عيانا ويجعلان عسرك من القول امكانا * وكل جارحة منك قلبا ولسانا فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك * واستنبط بادمانك ما أخطاك ، وما مثلى فيما مهدته لك من هذه الطريق الا كمن طبع سيفا ووضعها في يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلبا ، فان حمل النصال غير مباشرة القتال (٧١) » .

ومما قاله الناقد الفنى « بيتر فوللر » أننى أومن بأن البشر جميعا يمتلكون بدرجات متفاوتة امكانية تذوق الجمال ، وان نمو هذه الامكانية مرهون بتدريب الذوق الفنى والقدرات التقييمية عن طريق الممارسة سواء في مجال الابداع أو مجال الاستجابة (٧٢) .

ومما قاله أحمد ضيف : « يتكون الذوق السليم بالقراءة والدرس ، ويكتسب شيئا من اللين والمرونة وقول الجديد لأن الذوق خلق من الأخلاق القابلة للتهديب والتنقيح بالقراءة والفهم والدرس بحيث يكون ذوقا مبنيا على التجربة بما قرأ الانسان وفهم من العلوم والفنون ، فالذوق الصحيح ينضج ويتربى بالنقد والنقد يتهدب بالذوق لأنه معين ومساعد على الفهم وتقصيل الشيء على الشيء (٧٣) » . وما ذكرت من أقوال النقاد والعلماء على سبيل الاستدلال لأن مثل هذه الأقوال كثيرة .

(٧١) المثل السائر ص ٣ لابن الأثير .

(٧٢) مجلة فصول المجلد السادس العدد الثالث ص ١٣ .

(٧٣) مقدمة لدراسة بلاغة العرب ص ٩٣ .

ولولا أن عبد الملك سبق أمثال هؤلاء النقاد والعلماء وما أوتوا به من تقعيد وتنظير لتنمية الحسن الأدبي والذوق الفني الرفيع لقلنا أنه سار على نهجهم فيما وصلوا إليه من قواعد ونظريات لتنمية حسه وتهذيب ذوقه .

ومن هذا المنطلق يمكن القول : أن الذين قعدوا ونظروا لهذا الجانب إنما اعتمدوا فيما وصلوا إليه على تقصيصهم لأخبار من هم على شاكله عبد الملك ممن يتمتعون بحس فني مرهف ، حيث تراه يحفظ الكثير والكثير من الأشعار جاهلية كانت أو اسلامية لا لذات الحفظ ولكن لما فيها من قيم جمالية — أيا كان مصدرها — وأسرار بيانية يحرص كل المحرص على تضمها واستيعابها ، ويتجلى ذلك واضحا في نظراته النقدية لكثير من أغراض الشعر وهووازنته بين بعض نصوصه ليضع أيدينا على مواطن الحسن والقبح في كل منها ، كما يتجلى ذلك أيضا في تمثله بالشعر تمثلا دقيقا أمام ما يعن من أحداث وما يطرأ من أفكار وفي أوقات استنهاض الهممة وشحن العزيمة ، وقد ذكرت نماذج تؤكد تمتع عبد الملك بثروة هائلة من الشعر المحفوظ لشعراء سابقين ومعاصرين ، وتبين حسن تقديره لهذه الثروة وتوظيفها فيما يؤكد أهميتها ونفاستها .

وقد وصف الشعبي عبد الملك . . بقوله : ما جالست أحدا الا وجدت لي الفضل عليه الا عبد الملك بن مروان فاني ما ذاكرته حديثا الا . . . زادني فيه ولا شعرا الا زادني فيه (٧٤) . وتتجلى لنا قيمة هذا الوصف اذا ما عرفنا أن الشعبي كان — « أكبر الرواة في زمانه والثقة الحجة فيما حفظ من الأحاديث النبوية » (٧٥) .

(٧٤) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٦٦ .

(٧٥) شاعر الغزل للعقاد ص ٢٠ .

ولا أحسبني مبالغا إذا قلت : ان عبد الملك كان ملما بقدر رفيع
من ثقافة عصره وما يتصل بها من أخبار القبائل وما قيل فيها من
أشعار ، وما لها من مآثر عامة أو خاصة على مستوى أفرادها ونحو
ذلك مما كان له أثره في صقل حسه الأدبي .

وعلى سبيل الاستدلال . . حينما دخل سلمة بن زيد بن فباسة
الفهمي على عبد الملك فقال له عبد الملك : أي الزمان أدركت أفضل ؟
وأي الملوك أكمل ؟ قال : أما الملوك فلم أر الا ذاما وحامدا ، وأما الزمان
فيرفع أقواما ويضع أقواما ، وكلهم يذم زمانه لأنه يبالي جديدهم
ويهرم صغيرهم وكل ما فيه منقطع غير الأمل ، قال : فأخبرني عن فهم ،
قال : هم كما قال من قال :

درج الليل والنهار على فهم

م بن عمرو فأصبحوا كالرميم

ودخلت دارهم فأضحت يبابا

بعد عز وثروة ونعيم

كذاك الزمان يذهب بالناس

من وتبقى ديارهم كالرسوم

قال فمن يقول منكم :

رأيت الناس قد خلقوا وكادوا

يحبون الغنى من الرجال

وان كان الغنى قليلا خير

بخيلا بالقليل من النوال

فما أدى عا لام وفيما هذا

وماذا يرتجون من البخل

اللدنيا ؟ فليس هناك دنيا

ولا يرجى لحادثة . . الليالي

قال : أنا (٧٦) •

ويعد نلى مجلس عبد الملك جماعة من العلماء وأصحاب الرأي
في أخبار العرب وقبائلهم • فيقول لهم سائلا : خبروني عن حى من
أحياء العرب فيهم أنشد الناس ، وأسخى الناس ، وأخطب الناس ،
وأطوع الناس في قومه ، وأحلم الناس وأحضرهم جوابا ، قالوا :
يا أمير المؤمنين ما نعرف هذه القبيلة ، ولكن ينبغي لها أن تكون في
قريش ، قال : لا ، قالوا ففى حمير وماوكها ، قال : لا قالوا : ففى
مضر ، قال : لا ، قال مصقلة بن رقية العبدى : ففى اذا في ربيعة ونحن
هم ، قال : نعم ، قال جلساؤه : ما نعرف هذا في عبد القيس الا أن
تخبرنا به يا أمير المؤمنين • قال : نعم ، أما أشد الناس فحكيم بن جبل
كان مع على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فقطعت ساقه فضمها
اليه حتى مر به الذى قطعها فرماه بها فجدله عن دابته ، ثم جثا اليه
فقتله وانكأ عليه ، فمر به الناس فقالوا له : يا حكيم من قطع ساقك ؟
قال : وسادى هذا وأنشأ بقول :

يا ساق لا تراعى ان معى ذراعى أحمى بها كراعى

وأما أسخى الناس ، فعبد الله بن سوار استعمله معاوية على
السند فصار اليها في أربعة آلاف من الجند ، وكانت توقد معه نار
حيثما سار ، ، فيطعم الناس ، فبينما هو ذات يوم إذ أبصر نارا فقال :
ما هذه ؟ قالوا : أصالح الله الأمير اعقل بعض أصحابنا فاشتوى خبيصا
فعملقا له فأمر خبازه ألا يطعم الناس الا الخبيص ، حتى صاحوا
وقالوا : أصالح الله الأمير ، ردنا الى الخبز واللحم ! فسمى مطعم
الخبيص •

وأما أطوع الناس في قومه فالجارود بشر بن العلاء • انه لما قبض رسول الله - ﷺ - وارتدت العرب خطب قومه فقال : أيها الناس ان كان محمد قد مات فان الله حي لا يموت فاستمسكوا بدينكم فمن ذهب له في هذه الردة دينار أو درهم أو بغير أو شاة فله على مثله ، فما خالفه منهم رجل •

أما أحضر الناس جوابا فصعصة صوحان ، دخل على معاوية في وفد أهل العراق ، فقال معاوية : مرحبا بكم يا أهل العراق ، قدمتم أرض الله المقدسة منها المنشر واليهما المحشر ، قدمتم على خير أمير ، مير كبيركم وميرحم صغيركم ، ولو أن الناس كلها ولدوا أبي سفيان لكانوا حلما عتلاء ! فأشار الناس الى صعصة ، فقام فحمد الله وصلى على النبي - ﷺ - ثم قال : أما قولك يا معاوية : انا قدمنا الأرض المقدسة ، فلعمري ما الأرض تقديس الناس ، ولا يقديس الناس الا أعمالهم ، وأما قولك : منها المنشر واليهما المحشر ، فلعمري ما ينفع قربها ولا يضر بعدها مؤمنا ، وأما قولك : لو أن الناس كلهم ولدوا أبي سفيان لكانوا حلما عتلاء ، فقد ولدهم خير من أبي سفيان آدم صلوات الله عليه ، فمنهم الحليم والسفيه والجاهل والعالم •

وأما أحلم الناس فالأشج العبدى فان وفد عبد القيس قدموا على النبي - ﷺ - بصدقاتهم وفيهم الأشج العبدى ، ففرقه رسول الله - ﷺ - وهو أول عطاء فرقه في أصحابه ، ثم قال : يا أشج ادن منى قدنا منه ، فقال : ان فيك خلتين يحبهما الله - الأناة والحلم ، وكفى برسول الله - ﷺ - شاهدا ، ويقال • ان الأشج لم يغضب قط (٧٧) •

ولا يسعنا بعد هذه السباحة الممتعة في ربوع الحاسة الأدبية
عند عبد الملك إلا أن نقبل نحن أبناء بحرب — أيا كانت مسؤولياتنا
وهو واقع أعمالنا — على دوحة الأدب العربي — نفتقى منها أطيب الثمر
علنا نتغلب على هذا الخضم الهائل من معوقات الحياة المادية والجاهثة
على كل معنى جميل وهدف سام نبيل ، غتتهذب النفوس وتترق المشاعر
وتتسمو الأحاسيس وتوقظ الهمم ، وصدق الرسول — ﷺ — اذ
يقول : ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكما •

وقد أدرك كثير من النابهين ما للأدب من سحر وما فيه من حكم ،
فاستعادوا وأنادوا — أيا كانت وجهتهم — وقد روى أن عبيد الله
ابن زياد بن أبيه التقى بمعاوية بن أبي سفيان فسأله معاوية عن أشياء
من العلم فوجده عارفا بكل ما سأله عنه ، فاستنشدته شعرا ، فقال :
لم أرو منه شيئا ، فكتب معاوية الى زياد : ما منعك أن ترويه الشعر ؟
فوالله ان كان العاق ليرويه فيبر ، وان كان البخيل ليرويه فيسخو ،
وان كان الجبان ليرويه فيقاتل (٧٨) •

د. محمد كريم

أهم مراجع البحث

- ١ - أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام • بطرس البستاني • توزيع دار الجيل • بيروت •
- ٢ - أدب السياسة في العصر الأموي • د. أحمد الحوفي • طبعة نهضة مصر •
- ٣ - الأغاني • أبو الفرج الأصفهاني • طبعة دار الكتب • القاهرة •
- ٤ - الأمالي • أبو علي القالي • طبعة دار الكتب • القاهرة •
- ٥ - تاريخ آداب اللغة العربية • جرجي زيدان • منشورات مكتبة الحياة • بيروت •
- ٦ - تاريخ الشعر العربي ج ١ - د. محمد عبد العزيز الكفراوي • دار نهضة مصر • القاهرة •
- ٧ - تاريخ الطبري • أبو جعفر محمد بن جرير الطبري • تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم • دار المعارف • القاهرة •
- ٨ - التفسير النفسي للأدب • د. عز الدين اسماعيل • دار العودة • بيروت •
- ٩ - جمهرة أشعار العرب • أبو زيد القرشي • دار صادر • بيروت •
- ١٠ - دائرة المعارف البريطانية •
- ١١ - زيل الأمالي والنوادر • أبو علي القالي • دار الكتب • القاهرة •
- ١٢ - شاعر الغزل • عباس محمود العقاد • دار المعارف • القاهرة •
- ١٣ - الشعر والشعراء • ابن قتيبة • طبعة الحلبي • القاهرة •
- ١٤ - الصناعتين • أبو هلال العسكري • دار الكتب العلمية • بيروت • تحقيق د. مفيد قميحة •
- ١٥ - العقد الفريد • أحمد عبد ربه الأندلسي • دار الكتب العلمية • بيروت • تحقيق عبد المجيد الترحيني •

١٦ - العمدة • ابن رشيق القيرواني • دار الجيل - بيروت • تحقيق

محمد محيي الدين عبد الحميد •

١٧ - فجر الاسلام • أحمد أمين • طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٨ - مجلة عالم الفكر • الكويت • المجلد الخامس عشر • العدد الرابع

١٩ - مجلة فصول • المجلد السادس • العدد الثالث • الهيئة المصرية

العامة للمكتاب • القاهرة •

٢٠ - مروج الذهب • المسعودي • طبعة بولاق • القاهرة •

٢١ - مسلمة بن عبد الملك • حياته العسكرية والأدبية • علي صافي

حسين • الدار القومية للطباعة والنشر • القاهرة •

٢٢ - مقدمة ابن خلدون •

٢٢ - مقدمة ابن خلدون • ابن خلدون • المكتبة التجارية الكبرى • القاهرة •

٢٣ - الموشح • المرزباني • المطبعة السلفية • القاهرة •

٢٤ - النقد الأدبي : أصوله ومناهجه • سيد قطب • دار الشروق • القاهرة •

٢٥ - نقد الشعر • قدامة بن جعفر • مكتبة الكليات الأزهرية • القاهرة •

تحقيق د • محمد عبد المنعم خفاجي •

٢٦ - ديوان الأخطل •

٢٧ - ديوان الفرزدق •

٢٨ - ديوان جرير •

٢٩ - ديوان عمر بن أبي ربيعة •

نقد الاختيار والمماثلة

عرض وعناية لكتاب

المختار من شعر بشار جمع الخالدين

شرح أبي الطاهر المتجيبى البرقى

د. أحمد إبراهيم خليل

تعددت ألوان الكتابة الأدبية وصفا وإنشاء عند العرب بما لا محل
لحصره . وعلى الرغم من إمكان تصنيف هذه الكتابات داخل عدة
دوائر محددة نرى لكل منها أسلوبه وشخصيته وطابعه المتميز المستمد
من أسلوب كاتبه وشخصيته وطابعه الخاص .

وفي مجال النقد الأدبي بالتحديد ، ونقد الشعر — بتحديد أكثر —
تعددت الكتب والرسائل الصغيرة والرسوعات الضخمة ، كما تنوعت
مناهجها وأساليبها وبين يدي الآن كتاب منها صغير الحجم نوعا ما وإن
لم يكن قليل الجدوى والمقيمة أهرع إليه بين الحين والآخر كلما شأقتني
طريقته في نقد الشعر تلك التي أسسميها (نقد الاختيار والمماثلة) .
ويهمنى أن أعرف بهذا الكتاب وأحاول تحليل مادته — بعد عرضه
بإيجاز ووضع علامة استفهام حول طريقته في نقد الشعر، وغايتي من وراء
ذلك أن أثير في نفوسنا نحن المعاصرين الرغبة في التمرد على تلك
النظرة الجامدة التي نعيها تراثنا النقدي ، ونحاول أن نطبق عليه
فكرتنا الشائعة المتأصلة بأن كل الأمور لا ينبغي أن تتناول تناولا واحدا
وأن كل القضايا لا يجب أن تدرس بطريقة واحدة ولعلنا نجد في منهج
هذا الكتاب وطريقته شيئا نافعا من الناحية العملية على الأقل إن لم
يكن من الناحية النظرية مساويا لكتب النقد القرائية التي اعترفنا لها
بالقيمة والفضل « كالموازنة » و « الوساطة » و « عيار الشاعر » .

والمختار من شعر بشار جمعه الخالديان أبو بكر محمد وأبو عثمان

سعيد ابنا هاشم بن وعلة بن عرام وهما ينتسبان الى قرية « خالدة » من اعمال حلب كانا المتأثرين على خزانة كتب سيف الدولة الحمداني ولهما في الأدب والنقد باع وهما يعدان كذلك من شعراء بلاطه ؟ ولهما غير المختار (الأشباه والنظائر) قام بتحقيقه السيد محمد يوسف ونشره بالقاهرة سنة ١٩٥٨م .

وفي اختيارهما منتخبات من شعر بشار دالتان احدهما تنسب الى قيمته بوصفه امام المحدثين ورائدهم في توليد المعاني وتزيين الصياغة الشعرية ، والاخرى تنسب بلحماسها العميق بمسؤولية العالم الأمين في الاحتفاظ بما يجدر الاحتفاظ به من ديوان يرشحه ما يملؤه من شعر ماجن مسف مفعم بالمهمزات على الدين والعروبة للضياع المحقق ، وان كان من الشابت أن منها ما هو صحيح النسب الى الشاعر ومنها ما هو منسوب اليه زورا . ومنها كذلك ما قاله الشاعر هازلا وأخذ الناس منه مأخذ الجد . وعلى أي حال فان ما بين أيدي الناس اليوم من دواوين مطبوعة لبشار ترجع الى أصلين : أحدهما مخطوط مفرد غير دقيق يشتمل على جزء من ديوانه الحقيقي المرتب على حروف الهجاء وهو يقف عند حرف الراء فقد قام بنشره الطاهر بن عاشور من تونس ، والآخر قام بجمعه محقق (المختار) من مختلف دواوين الأدب العربي الجامعة القديمة فهو يأخذ قطعة من هنا وبيتا من هنا فما يكاد يزيد ما جمعه على مئتي صحيفة من القطع الصغير ربعها هو امش قلما تعثر على قصيدة كاملة فيها ويصعب أن تثق في اكتمال هذه القصيدة فلا يبعد أن ينظم بشار أكثر من قصيدة على وزن وروي واحد فيضيع أكثرهما ويبقى أقلهما على السنف الرواة وأقلام الكتاب فيضمهما جامع الديوان باعتبارهما قصيدة واحدة (١) .

ومضاهاة سريعة بين الديوانين تكشف عن الاضطراب الشديد الذي منى به تراث ذلك الشاعر المبدع .

وشارح المختار أبو الطاهر اسماعيل بن أحمد زيادة الله المتجيبى

المبرقى من أدباء أوائل القرن الخامس الهجرى تنقل بين المغرب الأقصى وتونس وصقلية حين كانت مسلمة ومصر ، وهو شاعر لا بأس به بالنسبة لذوق القرن الخامس وعلى إدراية وخبرة مناسبتين لزمانه أو قل معبرتين عن ذوق أهل زمانه وطريقتهم في فهم طبيعة الابداع الشعرى ووظيفته . وقد قام بنشره بعد ضبط شعره بالشكل ونسبة الأبيات غير المنسوبة في المخطوط الى أصحابها محمد بنشر الدين العارى وكتب له المقدمة عبد العزيز الميمنى وهما من علماء الجامعة الاسلامية (عليكرة) بالهند ، وقد أرخ الرجلان لمقاليهما في أول الكتاب بعام ١٩٣٣ - ١٩٣٤ م . والنسخة التى وقعت فى يدي من الكتاب طبعة (مطبعة الاعتماد) بالقاهرة ؟ غير محددة تاريخ الطبع وان كانت منسوبة الى لجنة التأليف والترجمة والنشر . وهى نادرة الأخطاء كالعهد بمطبوعات النصف الأول من هذا القرن ، وان كان قد شابته خطأ مطبعى غريب وهو فى ترقيم الصفحات من ٢٦٥ الى آخر الكتاب فقد أخذت على التوالى أرقام ٣١٩ بدلا من رقمها الصحيح والأغرب أن فهارس القوافى والأعلام والشعراء سايرت الخطأ والصواب معا فحينما تذكر العلم أو البيت منسوبا الى الرقم الخطأ للصحيفة الذى ورد من الكتاب بالفعل وحينما تذكر الرقم الصحيح الذى كان ينبغى أن يوضع عليها .

والكتاب يبدأ بقطعة فى الحماسة لبشار تلك التى أولها .

إذا الملك الجبار صغر خده مشينا اليه بالسيف نعابته

ثم يمضى فى روائح الأبيات حتى يقيمها خمسة ، فنفهم من ذلك أن الخالدين يقتطفان من كل قصيدة ما يعدها قلائدتها وفريدتها ويبيت القصيدة فيها الى آخر هذه التعبيرات الدالة على اغفال قيمة وحدة القصيدة الفنية وعدم النظر اليها بوصفها بناء متكاملا متحدا لا عضويا ولا موضوعيا . ثم يأخذ الشارح فى تعقب بعض أبيات القطعة مستحضرا ما تسعفه به ذاكرته الحافظة من أبيات مشابهة لشعراء

آخرين سواء كانوا سابقين على بشار مما يجعله يقتضي بأن بشار قد أخذ المعنى منهم وأغار على اللفظ ، أو لاحقين له مما يوحى بأنهم قد استفادوه منه . والشارح مع غزارة مادته يعتمد على ذاكرته غالباً فحسب ، إذ لا يستقصى شيئاً سواء من المعاني والألفاظ التي أخذها بشار من السابقين أو من تلك التي أخذها المحدثون منه بل ربما أورد بعض مختار الخالدين دون أن يعلق عليه (٢) وهو كذلك في شرحه بعض غريب ألفاظ بشار وغيره من الشعراء لا يسير على وتيرة واحدة فربما شرح ألفاظاً ليست في حاجة إلى شرحه وأطال من ذلك حتى يجعلنا نظن أنه ينقل من بعض المعاجم نقلاً دون تسميته ودون هدف واضح غير الاستطراد في حين يغفل بعض الألفاظ التي تبدو نادرة الاستعمال وفي حاجة حقيقية إلى البيان (٣) وماذا على القارئ لو بحث عن معانيها في أحد المعاجم اللغوية ، ولكن إذا كان الشارح نصب نفسه لهذه المهمة فمن واجبه أن يوفيقها حقها . وربما بدا تعبير بشار في حاجة إلى تعليق نقدي أكثر منه لغوي ليبرر على الأقل اختيار الخالدين ومن ذلك قول بشار :

إذا المرء لم يفضل وقام بكله

فليس به باس وليس بكامل

وان كان ذا فضل وقام بكله

فسام به أهل العلى والفضائل

وان كان لا فضل ولم يغن كله

فناديه في الناس هل من منازل

وفيها استخدام لفظ (كل) على نحو غير مألوف وتعتمد وضعه موضعاً بدعياً جنح به نحو المغموض بعض الشيء ولكن الشارح لم يحاول أن يناقش شيئاً ممن هذه الأمور بل أعرض تماماً عن الأبيات متصرفاً إلى شرح غيرها . وقد يعترف الشارح بأن بعض المختار قد ورد برواية

مختلفة ولكنه لا يملق على شيء من ذلك ولو بترجيح إحدى الروايتين .
ومن ذلك المقطوعة الغزلية التي أولها :

إذا لاح الصوار ذكرت سلمى واذكرها إذا نفخ الصوار

فلهذه المقطوعة غير رواية الخالديين رواية أخرى نقلها الشارح
عن أبي العباس المبرد وما بين الروايتين من اختلاف أن الأخيرة تتضمن
أبياتاً ليست في الأولى وقلماً يتغير بعض ألفاظ الأبيات المتضمنة في
سابقتهما إلا أنها تخلو من بيت لا أراه مناسباً للسياق خصوصاً إذا لحقه
في الروايتين بيت آخر لا ينسجم معه لفظاً ولا معنى وهو :

كان جفونه سملت بشوك فليش لنومه فيها قرار

والبيت يتعلق بوصفه السهاد وتعليقه بشك الشاعر في أن يكون
عدم انطباق جفونه راجعاً لكونها سملت بشوك وهو كما ترى تعليل
لاذع لا يخلو من تكلف خصوصاً إذا قورن بقول بشار بعده :

جفت عيني عن التغميض حتى كان جفونها عنها قصار(هـ)

لاشك أن الشاعر أن كان قد قال البيتين وجعلهما متتابعين كما
ترجم رواية الخالديين ونفى رواية المبرد فقد سقط انفعالياً من مرحلة
كان يشك فيها في أن جفونه قد سملت إلى أخرى سار يشك
فيها في أن جفونه قد قعدت وشتان بين التعبيرين والعاطفتين اللتين
يدل عليهما كل تعبير . إذن فالمختار مازال محتاجاً إلى جهد يضاف إلى ما
بذله أبو الطاهر عن شرحه ويمضي الكتاب دواليك ما بين قطعة لبشار
لا تزيد غالباً عن البيتين أو الثلاثة وبين استطراد للشارح بعد التفسير
اللفظي بذكر بعض من شاركوا بشار في المعنى أو في اللفظ أو فيهما معاً .

وتتلخص القيم الجمالية عند أبي الطاهر في الابتداع والاختراع
وهما عنده بمعنى واحد وتوليد المعاني بحسن التعليل والمبالغة وإيرادها

في عبارة أكثر رامية فيه مما كانت عند مبدعها كان يزينها بجناس أو طباق أو استعارة وجمع عدة معان في أضيق حيز لفظي ممكن وتوفية الصنعة حقها — على حد تعبيره — بمراعاة النظر وحسن التقسيم ونحوه (٦) • وأخيرا تضمن البيت أو المقطوعة طرفا من مكارم الأخلاق أيضا من القيم الجمالية التي تعلو رتبة البيت عند أبي المظاهر •

والمبدأ الأساسي الذي تقوم عليه هذه القيم الجمالية هو أن الشعر صناعة محددة المعالم لنسمع إلى أشادته باختراع بشار مع اغرابه وإيجازه حين يقول عن بيت بشار :

كأن فؤاده كرة تنزى حذار البين لو نفع الحذار

بعد ذكر أبيات كثيرة لشعراء متقدمين ومتأخرين « وقد تردد معنى الخفوق كثيرا جدا إلا أن بشار أغرب بذكر الكرة وذكر علة الخفوق وأخبر أنه غير منقطع بها في الشعر ولا وادع بسببها وكل ذلك في بيت فكأنه استظهر شيئا على الجماعة بتمكن بيته في الصناعة » (٧) ولنستمع إليه يوازن بين بيت النابغة :

ولست بمستيق أخا لا تلمه على شعث • أي الرجال المهذب ؟

وبين هذا البيت الذي لم يسم صاحبه :

ولست بمستيق صديقا ولا أخا إذا لم تعد الشيء وهو يريب

حيث يرى أن « بيت النابغة أفضل : لاختصار لفظه وزيادة معناه على هذا لأن قوله لا تلمه على شعث هو قول الآخر — إذا لم تعد الشيء وهو يريب والأول أبين وأخصر فأما الزيادة عليه فقوله : « أي الرجال المهذب — فأورد في عجز بيته مثالا سائرا بأحسن لفظ وأبلغ معنى (٨) •

وليس أدل على اعتداده بالقيمة الأخلاقية والرسالة التربوية
للشعر ممن ايقافه قسطا كبيرا من الكتاب لايراد بقدر ضخم من شعر
هذا الباب. ومع ذلك فالشارح من رحابة المصدر بحيث يتقبل من الشعراء
بل يستملح منهم «احتياهم في تهجين المراجع وتحسين الخطأ المفادح»
وناهيك عن تصور بلاغته الباطل بصورة الحق وتخرج براعته الكذب
البحث مخرج الصدق» (٩) . وقبوله هذا الذي يسميه احتيالا
واستحسانه اياه من منطلق أن الحكم على الشيء يتغير بتغير وجهات
النظر اليه وتغير الأعراض المحيطة به ثم ان فيه دلالة على قدرة
الشاعر على الاقناع بوجهة نظره ولو كانت مخالفة للاعتقادات
الشائعة . ومن هنا يورد أبياتا وشواهد تمتدح المشورة وأخرى تذمها .

والعبرة في كل ذلك بقوة عرض الشاعر فكرته وقدرته على ايضاحها
من الأسلوب المشرق البديع . وبرغم هذه الحرية التي يتيحها الشارح
للمشعراء في ان يزينوا ما شاؤوا أو يقبحوا ما شاؤوا فهو يفرض عليهم
الباروغ بوصفهم الدرجة المثلى في الصنعة التي تعلق بها كلامهم وبقدر
هرب الشاعر من هذا المثل الأعلى أي بقدر مبالغته يكون أفضل من غيره
الذي لم يصل الى نفس الدرجة من المبالغة . فعندما يوازن بين
مقطوعتين لأبي العباس الناشي وابراهيم الصابي في حفظ السر يفضل
الأخير لكونه ارتقى بمبالغته درجة لم يصل اليها الأول يقول الناشي :

وانسى لأتسى السر كي لا أذيعه

فيا من رأى شيئا يصران بأن ينسى

مضافة أن يجري ببالي ذكره

فينبذه قلبي الى مقولي خلصا

فيوشك من لم ينس سرا رجلا

في خواطره ألا يطيق له حبسا

ويقول الصالى :

والسـر فيمـا بين جنـبى مـكـن

خفى قـصـى عـن مـدارج أنفـاسـى

كأنى من فرط احتفاظى أضـيـعه

فبعض لـه واع وبـعض لـه ناس

ويعلق الشارح بقوله «وكلام الحكيم أوجز لفظا وأوضح معنى لفضل

المتناسى على الناس وقول الصابى — فبعضى له واع وبعضى له ناسى —

من غاية الحسن والاحسان ونهاية الايضاح والبيان» (١٠) • هذا مع

تصريح الصابى بأنه استوحى أبياته من الناسى وأنه يباريه فى بعدا

الشوط ليس الا وموقف الشارح هنا يذكرنا بموقف النقاد من بيت

كثير بن عبد الرحمن الذى حكاه ابن سلام حيث يقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل

فقالوا لو كان صادقا فى حبه لم يرد لى ليلى ذكرها (١١) •

والشارح كثير الموازنات وبخاصة بين بشار وبين غيره من الشعراء

ولكنه للأسف لا يلازمه التوفيق دائما فى موازناته ومن ذلك ما عقده

بين بيت بشار :

وأمالك صدق ألبستنى طرازهم قصائد مالى غيرهن شفيح

وبين بيتين للبيد يتحدث فيهما عن قوة لسانه ضمن ما يتمتع به

من قوى فيقول :

ومقام ضيق فرجته

بلسانى وحسامى وجدل

أو يقوم الفيل أو فياله

زل عن مثل مقامى وزحل

مفضلا بينى لبيد لأتهما (أتم من بيت بشار معنى وأبين
 شرحا) (١٢) •

والموازنة مغالطة لا تراعى الا استيعاب لبيد لأنواع القوى
 البدنية واللسانية دون اعتبار للمسياق الكلامي الذي ورد فيه النصان
 ولو غنى المشرح أقل عناية بمسياق بيت بشار لوجد أنه لا مجال
 للتباهي بالقوة البدنية اذ هو في سياق المديح دون الفخر فمن الطبيعي
 أن ينوه بقصائده التي كانت سببا في اتصاله بالملوك الذين يخاطبهم
 في قوله :

وزرت حماما يصبح القوم حوله
 عكوفنا عليهم ذلة وخضوع
 ولما التقينا سابق الحمود جوده

فأجدي وجود الطالبين سريع
 وأملك صدق البسنتي طرازهم
 قصائد والى غيرهن شفيف
 اذا حاجة ألقت على بعاءها

ركبت وحسبي متصل وقطيع (١٣)
 ومن موازناته ما عقده بين بشار في قوله :

دعاني الى عمر جوده
 وقول العشيرة بحر خضم
 ولا بالذي ذكروا لم أكن
 لأحمد ريحانه قبل شم

وبين الأعشى في قوله :

ونبتت قيسا ولم آته وقد زعموا ساد أهل اليمن

مدعيا انه الأصل مستقرا في ذلك الى صاحب الموازنة بين الطائيين
 ومع التغاضي عن ايحاء (الزعم) غير المناسب لمقام المدح فقد كان

من حق بشار أن يدافع عنه الشارح بتمام المعنى وقوة التعبير عنه بتجسيده في صورة بيانية نابضة كما فعل في الموازنة السابقة عندما فضل لجيد ولكن يبدو أن أبا الطاهر مازال متأثرا بفكرة اعلاء القدامى على المحدثين •

ويحرص الشارح على الاعراب عن اعجابه بابن الرومي « لايراده في المعنى المأخوذ تشبيهين واقعين بغير آلة تشبيه » (١٤) وذلك في قوله :

كأن تلك الدموع قطر ندى يقطر من نرجس على ورد

فقد شبه العيون بالنرجس والخدود بالورد بدون ذكر أداة على سبيل الاستعارة التصريحية ، وهنا نسجل عليه مباركتة لجنوح الشعر العربي في هذه الحقبة المتأخرة من العصر العباسي نحو التصنع والتكلف والجمود •

وبعد هذا العرض السريع للكتاب نتساءل عن الهدف من جمع مختاره أولا ثم من شرحه بهذه الطريقة ثانيا ، فأما عن هدف الخالدين فقد قدمت أن شعر بشار قد لقي اهتماما واعراضا في آن ، فهو من جهة امام المحدثين كما يشهد له ابن المعتز (١٥) — ومفتق أكام المعاني، وصاحب بدائع القصائد الذي تتلمذ على يديه عدد غير قليل من الموالى ملأوا النصف الأخير من القرن الثاني الهجري شعرا وانفردوا بساحة القريض في زمانهم ، فما تكاد الحقبة تبرز شاعرا واحدا عربى الأصل أو شاعرا واحدا لم يتتلمذ على شعر بشار ولم يفد منه وها هي المحدثات والبراعة في ابتداع المعانى ، وتوليدها والمحافظة على الصياغة العربية الرصينة وقرئيقها بلمسة من البديع غير المتكلف والزمنية غير المستثقلة تجتمع في شعر بشار ، ولكنه من جهة أخرى امام المقهردين سواء على العرب أو على الاسلام وفي كل برزخ عنه شعر غير قليل يكشف عن حقد

على العرب وتعصب ضدهم واستهان بالدين واستهتار في مناقشة قضايا وتلاعب في استعراض ما يلوكة خصومه من شبهات . ومن حق بشار أن تعفيه خصومته لبعض الماجنين من الرواة والشعراء من نسبة بعض هذا الشعر اليه ولكن ومن حق هذا الشعر غير القليل أن يثير في وجه بشار غبارا يجعل الكثير من الأدباء ينصرفون عن رواية شعره برمته . وبذلك أصبح بشار اماما بلا مسوغات فالناس يسمعون عن ذكائه وقوة شاعريته وجمعه بين سلامة لغة الأعراب من بنى عقيل وبين طلاوة معاني المتحضرين وطرافتها ولا يكادون يعثرون على شيء من ذلك وهكذا يكون الخالدين قد قاما بعمل غير قليل الأهمية يحفظان به بعض ما يجب حفظه من شعر بشار ويقدمان مسوغات امامته .

٢ - وأما بالنسبة الى الشارح فان بدأ واصر القربى بينه وبين شعراء زمانه الذين أكثر من ايراد أشعارهم - من جهة وبين شعر بشار من جهة أخرى، ثم مد هذه الأواصر الى ما قبل بشار من شعراء اسلاميين وجاهليين يطمئنه على أن شعراء القرن الخامس ما يزالون يسيرون على الطريق نفسها التي اختطها الجاهليون ومهدوا الاسلاميون ووسعها المحدثون جيلا بعد جيل . لذلك كان حريصا على وضع بشار في اطاره التاريخي يتأثر بمن قبله ويؤثر بعده ، وذلك كي يستطيع أن يرى عصره هو داخل الاطار نفسه ان كان قد تأثر بمن قبله من شعراء القرون السابقة فلا بد أنه سيؤثر في الشعراء اللاحقين كما كان حريصا على ابراز أن بشار أو مدرسته لم تضيف الى الشعر العربي الجديد المعجز الذي يعز على شعراء القرن الخامس أن باتوا يمثله واذلك تروقف فجأة في الثلث الأخير من الكتاب قائلا : « سأورد وأنشد طرفا من مكارم الأخلاق وأجعله كالباب أختم به هذا الجزء من الكتاب » (١٦) .

ومع غموض عبارة (هذا الجزء من الكتاب) إذ أنه لم تسبق منه إشارة الى نية تقسيم الكتاب ، وتجزئته فمن الواضح أنه بهذا الباب يخرج عن خطة الكتاب تماما . وقد بدأ الباب بقوله تعالى :

« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ثم شرح الآية شرحاً موجزاً وشفع ذلك ببضعة أحاديث شريفة ثم أفضى إلى عدة مقطوعات شعرية للمنخل وزهجير وحاتم وغيرهم من الجاهليين والاسلاميين وعرج على ما نسجه هو ومعاصروه على منوالهم .

وانتهى إلى بشار فأورد نماذج من مختاره في الحكمة وكأنه وإن لم يصرح - يريد للحكمة التي اشتهر بها المولدون . والتي نسبت أصولها إلى ما ترجم من آثار فارس والهند واليونان أن تعود إلى أصولها العربية - فهو ما يلبث أن يورد معنى زعم غيره أنه من ابتداعات المولدين وعقب عليه بما أصله المنقول من كلام « بعض لصوص العرب الاسلاميين » (١٧) .

وفي القرن الخامس تكون قضية القدامى والمحدثين قد حسمت - أو كادت - فما عاد يملأ ساحة الشعر غير المحدثين وقد استطاع المتنبى بطريقته التي مزجت بين الإبداع العربية والحكمة اليونانية من ناحية وبين الطبع المتقن والصفعة المتقنة من ناحية أخرى ، أن يضم تحت جناحيه مذاهب القدامى والمحدثين معا ويحيل القضية إلى قبول لهذا النموذج المتفرد مع التسليم بصعوبة اللحاق به أو رفضه متبعاً لرفض شخصية صاحبه لا لرفض مذهبه في الشعر ولذلك اختلفت الخصومة حول المتنبى اختلافاً بيناً عن مثيلتها التي قامت في القرنين الثالث والرابع حول أبي تمام والبحتري . من هنا لم يكلف أبو الطاهر نفسه مؤنة الدفاع عن المحدثين ولم ير داعياً لإعادة الجهد الضخم الذي بذله ابن المعتز من (البديع) لتأكيد أن كل الجديد الذي جاء به المحدثون من استعارة ومطابقة وتجنيس ورد أعجاز الكلام على صدوره وغيرها ذو أصول عربية متمثلة في القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر الجاهلي والاسلامي فلم يعد ثمة من يلاحون في ادعاء عكس ذلك .

ويعترف أبو الطاهر كما يعترف معاصراه ابن رشيق القيرواني وابن شهيد الأندلسي بأن الأذواق تتغير بتغير الأزمنة • فابن شهيد على سبيل المثال يقول : « ألا ترى أن الزمان لما دار كيف أحال بعض الرسم الأول في هذا الفن إلى طريقة عبد الحميد وابن المقفع ومسهل ابن هارون وغيرهم من أهل البيان ؟ فالصنعة معهم أفسح باعا وأشد ذراعا وأزور شعاعا لرجحان تلك العقول واتساع تلك القرائح في العلوم ثم دار الزمان دورانا فكانت أحالة أخرى إلى طريقة إبراهيم بن العباس ومحمد بن الزيات وابن وهب ونحوائهم فرقت الطبائع وخف ثقل النفوس ثم دار الزمان فاعترى أهله باللطائف صلف وبرقة الكلام كلف فكانت أحالة أخرى إلى طريقة البديع وشمس المعالي وأصحابها • وكذلك الشعراء انتقلوا عن العادة في المصنعة بانتقال الزمان وطلب كل ذي عصر ما يجوز فيه وتهش له قلوب أهله فكان من صريح الغراني وبشار وأبي نواس وأصحابهم في البديع ما كان من استعمال أفانينه والزيادة في تفريع فنونه » (١٨) •

وتبني أمام نقاد العصر مشكلة لماذا لم يظهر شاعر بعد المتنبي يضارعه في فحولته ؟ • ولماذا توقف تتابع الشعراء الأفذاذ الانحرال ؟ وحرم أبناء القرن الخامس من شاعر يقف من طبقة واحدة مع كبار الشعراء السابقين • وها هو ابن رشيق يجبر عن احساسه بأزمة الابداع الشعري في زمانه حين يقول : « وإن قال قائل ما بالكم يا معشر المتأخرين كلما تمادى بكم الزمان قلت في أيديكم المعاني وضائق بكم المضطرب قلنا أما المعاني فما قلت غير أن العاوم والآلات ضعفت ليس يدفع أحد أن الزمان كل يوم في نقص وأن الدنيا على آخرها ولم يبق من العلم الا رفعه معلقا بالقدره ما يمسكه الا الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض الا بأذنه » (١٩) •

فإذا كانت الألفاظ محدودة غير قابلة للزيادة الا بقدر ضئيل —

فليس كل مشتق بالقياس و معرب بمقبول في لغة الشعر — فان المعانى لا حدود لها والعيب فيمن همدت قرائحهم عن ابتدائها وتوليدها وقعت همهم عن البحث عنها والغوص وراءها وطلب العلم وشحذ الأداة بتعبير ابن رشيق • وها هو الطاهر يتخذ اجراء عمليا يتبع به المعانى منذ بدء ابتداعها الى تفصيلها والتفريع عليها وتوليد بعضها من بعض لعله وهو يطلع شعراء عصره — بخاصة شذاقهم — على كيفية تخريج المعانى وتوليدها أن يشحذ في أذهانهم وأخيلتهم القدرة على أن يحذو ذلك الحذر • ولكنه — فيما يبدو — ليس متشائما بقدر تشاؤم ابن رشيق بل انه يرى أن شعراء عصره لديهم من النماذج الجيدة ما يستحق أن ينضم في صعيد واحد الى النماذج الجيدة للشعراء المتقدمين ولهذا نجده يكثّر من ايراد اشعار معاصريه لأدنى مناسبة وكأنه يشعر — بالفعل — بضرورة الثقة فيهم والدفاع والاعتراف بإمكان وقوفهم على قدم المساواة من حيث الابداع الشعري مع سابقيهم من الشعراء •

ونستنتج مما تقدم أن الكتاب يدور حول محورين أساسيين أولهما يبين ما يتبقى من الشاعر بعد قرنين من رحيله وقد تغيرت الظروف وذهب أصدقائه وخصومه •

ويجيب عن ذلك الخالديان باختيارهما ، والمحور الآخر تدور حوله تأملات أبى الطاهر في طبيعة ابداع الصورة الشعرية وكيفية انبثاق بعض الصور من بعض وعلة تفضيل بعضها على بعض وأقول ان أبا الطاهر يتأمل في ابداع الصورة الشعرية بخاصة وليس في الابداع الشعري بصفة عامة لأن تركيزه كان دائما على عناصر جزئية من مكونات القصيدة وام يكن مطلقا ممتدا الى القصيدة ككل وقبل أن نمضي مع أبى الطاهر في تأملاته هذه نتوقف مع الخالديين واختيارهما باحثين عن دلالاته •

وأحسب أن دلالة الاختيار لا تكمل إلا بين ما أختير من شاعر
بشار وبين ما صرف عنه المخالديان أنظارهما، مما تبقى من ديوان بشار •
وبالموازنة يتضح أن اختيار الخالديين يقع غالبا على ما يمكن تسميته
النمط الأوسط ، فلقد كان بشار شاعرا ممن يحتوى ديوانهم على
الثوب الخلق — بتعبير القدماء — والديباج الموشى والخز المجد أو كما
يقول عنه أبو عبيدة « فيه شذرة ونقرة » (٢٠) و « انه كسباطة الملوكة
منها كقطعة ذهب وما تشاء من رماد » (٢١) أى على مستويات متفاوتة
من اللغة فحينما يخاطب خادما له بما يعجبها ويطربها ويقول لها :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

وحينا تجلجل قوافيه بما يعجب الفرسان ويطربهم :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية
هتكنا حجاب الشمس أو تمطر دما
إذا ما أعرنا سييدا من قبيلة
فرى منبر صلي علينا وساما

وحينا يسبح خياله وراء الصور التى تبهر البياثين وتسحرهم
كبيته السائر :

كأن مثار النقم فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبها
وحينا تهيم تأملاته وراء الأفكار العميقة فيأتى منها بالدرر اليتيمية
ولو مضينا نستقصى جوانب إبداعه أو مستوياته المتنوعة غاية التسرع
لخرجنا عن نطاق هذا البحث ولكن يكفى هنا أن نذكر أن لبشار مع كل
هذه الجوانب المتنوعة جوانب أخرى يتهتك فيها ويمجن كأفحش ما
يكون التهتك والمجون • فإذا وقف الخالديان على ديوان رجب الجنبات

مقترامي الأطراف كهذا الديوان فما يختاران ؟ يختاران ما يقبله الذوق
المتوسط الذي لا ينفق وراء التأملات الفلسفية البعيدة ولا تفسكره
التكشفات المألوفة بل يبتغي بين ذلك قواما وسطا يأخذ من غزل بشار
الصورة الحميمة ولكن بعد أن يحذف منها التبدل والمجون ويأخذ من
تأملاته ما جاء منها عنو المخاطر، نقيًا من أغاليط المنحرفين وسموم المارقين
التي اندس بعضها إلى ديوان بشار ويأخذ منه فخره ولكن بولائه إلى
بنى عقيل متجافيا شعوبيته واستهانته بالعرب والمبتدو ؟ منهم نجاحه ؟
بل يأمح إلى تمسحه بهم وتملقه لهم في نظمه الرجز على طريقتهم وقد
يبتسم لبعض معانيث بشار ودعاباته ولكن بشرط ألا تكون خارجة
جارية وأر على حساب بشار نفسه ولذلك يحذف من غزله ما يذكر فيه
آفته وكيف أنها لا تعوقه عن ممارسة عبثه وفكته المزعوم . وهكذا يتبين
لنا من خلال موازنة ما يختاره الخالديان بما يهملانه أنهما يراعيان النمط
الأوسط الذي يبقى موجبا مطربا رغم الظروف الاجتماعية التي غابا ما
ينتج عنها تغير في الأذواق ، فإذا كان أهل البصرة تلك المدينة الصاخبة
الحاضرة بثشتى طوائف الناس من عرب حواضر وبدواد إلى هوال من
أجناس متعددة يتذوقون فكاهات بشار اللاذعة ويستميل بعضهم هجاءه
الفاحش أو تجديفه المارق فإن صاحبى خزانة كتب سيف الدولة يعرفان
أذواق الفئة من الناس الخاصة (الأرستقراطية) التي يتقدمان إليها
باختيارهما ، ان لها من رهافة الحس ، وحساسية الموضع ما لا تستسيغ
معه هذه الفكاهات اللاذعة وهذا الخوض الصاخب الذي طالما خاضه
بشار متجرئا - ان شئت أو متبجحا سواء من غزله أو من هجائه أو في
شعوبيته أو في زندقته . فآل حمدان عرب تغلبيون يقوى في نفوسهم
الشعور بالانتماء بل يشعرون أنهم البقية الباقية من الكيان العربى
الذى تغلبت عليه الأجناس المختلفة من بويهيين في الشرق وأخشيدين
في الغرب والجفريين ، ويغفرون بقمثيائهم طموح العسروية على هذا
النحو تماما كما يشعرون بأن دولتهم الصغيرة من دون سائر الدول التي

تمزقت بها الخلافة العباسية هي الوحيدة التي تحمل لواء
 الجهاد وشرف الدفاع عن الاسلام ، ومن ثم كان من العسير أن يتقبلوا
 شيئاً من شعرية بشار أو زندقته • وتري أو كان الخالديان في موقع
 آخر غير الذي هما فيه أو كان يبقى اختيارهما على ما رأينا كان يتغير ؟
 قد يجيب عن ذلك اهتمام الخليفة عبد الله بن المعتز في (طبقات الشعراء
 المحدثين) بألوان أخرى من شعره توحى بأنه كان أقل حياداً من
 الخالديين حين أورد من أخبار بشار ما ينفي عنه تهمة الزندقة ويؤكد
 أن المولى ندم على قتله بعدما تبين له كذب ادعائها ، كما كان أكثر
 قرباً من ذوقه حين أورد من فكاهاته اللاذعة أكثر مما احتمله ذوق
 الخالديين وكن لنذكر أن ابن المعتز يؤرخ لبشار ويخبر عنه ولا يختار
 أفضل ما في شعره كما يفعل الخالديان وكذلك يمكن القول من صاحب
 الأغاني في إيراده الكثير من وقائع بشار العابثة • ولهذا نقول أن فكاهة
 بشار بكامل لذوعها أو اسفافها لم تكن لتحتملها بيئة أكثر من البيئة
 التي أنبتتها في الوقت الذي ظهرت فيه • ولكن أو لم ترد أكار هذه
 الفكاهات اللاذعة الغمزات المارقة مكررة في كتب الاخباريين والرواة
 « كمعجم الأدباء » و « أدب الكاتب » و « نهاية الأدب » وغيرها من
 لقد وردت ولكن لا على سبيل الاختيار والتفضيل بل على سبيل الاخبار
 والتوثيق فحسب ؟ ومن ثم يبقى أقرب ما يكون الى الصدق — رغم
 ما فيه من قيم ثابتة — أن اختيار الخالديين القائم على مراعاة المأط
 الأوسط من حيث مستويات اللغة ومن حيث حرية التعبير واحترام
 قيم المقلتين وعدم المساس بها هو المعبر عن رأي جمهرة نقاد العرب
 وأدبائهم في شعر بشار وهو المجيب بطريقة عمالية عن التساؤل حول
 (ماذا يبقى من الشاعر المنطلق في شيء غير قليل من الحرية ورغبة
 غير محدودة في الخروج عن مألوف فوق المخاطبين بشعره ؟) بدليل
 اهتمامهم بروايته وانتداب بعضهم نفسه لشرحه وعدم قيام أحدهم
 بالرد عليه وتأخير شيء مما قدم واختيار شيء مما أهمل ، ويؤكد هذه

الدعوى وإن النقاد العرب كانوا يستشعرونها بالفعل — وخصوصا نقاد القرن الخامس — ما رواه ابن رشيقي عن شيخه عبد الكريم النهشلي من أن لأهل كل زمان ذوقا خاصا وأن الشاعر الذي يبتغي الخلود عليه بالمتوسط بين الأذواق المتطرفة إذ يقول « قد تختلف المقامات والأرمنه والبلاد فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر ، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ونجد أن الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما ستجيد فيه وكثر استعماله عند أهله بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء وحد الاعتدال وجودة الصنعة ، وربما استعملت في باد ألفاظ لا تستعمل كثيرا في غيره كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في أشعارهم ونوادير حكاياتهم — والذي اختاره أنا التجويد والتحصين الذي يختاره علماء الناس بالشعر ويبقى غابره على الدهر » (٢٢) *

فإذا كان اختيار النهشلي الذي نقله ابن رشيقي نظريا فقد ورد اختيار الخالدين عمليا ، قائما على أساس من نفس القيم والمقاييس التي تتلخص في الاستواء والاعتدال وحسن الصنعة أو النمط الأوسط بتعبير الجاحظ *

وأما الشارح ففي اختياره ما يقربه بشعر بشار من ابداع المتقدمين والمتأخرين ما يشير إلى انتهاجه نفس النهج مع اختلاف طفيف في الدرجة وهنا ننتقل إلى المحور الأساسي الآخر الذي تدور حوله أفكار الكتاب وهو المتعلق بطبيعة ابداع الصورة الشعرية وكيفية انبثاق بعض الصور من بعض وتفضيل بعضها على بعض ، والشارح يبذل جهده في ذلك الصدد ليفتح أمام شعراء عصره الطريف إلى مزيد من الاجادة في الصنعة الشعرية ويحض دعوى زوال دولة الشعر بما يورده من نماذج يستجيدها من شعره هو وشعر أقرانه كأبي الحسن الربيعي وأبي الحسن الشيباني وغيرهما *

ومشكلة السرقات لا تأخذ اهتماما كبيرا لدى الشارح بالرغم مما

يترأى للمقاريء للوهلة الأولى من شدة اهتمامه بتتبع تناول الشعراء
العديدين للمعنى الواحد أو الصورة الواحدة ، فهو يكثر من إيراد
أشعار غير منسوبة إلى قائلها مما يعطل دعوى الأخذ والأغارة حيث
لا ندري ان كان هذا المجهول قد سبقت إلى المعنى أم أنه قد استعاره
من سابقه بل يورد الشارح أحيانا شعر معترفا بأنه يقارب سابقه فقط
وان لم يكن من نوعه تماما بحيث يصدق فيه الحكم بأخذ اللاحق عن
السابق فحين تعرض إلى أبيات يمدح بها بشار عمر بن العلاء وانتهى
إلى قوله :

إذا قال ثم على قوله مات العناء بلا أو نعم

علق عليه بقوله « وقريب منه وان لم يكن المعنى بعينه قول
الآخر » •

ان كنت لم تنو فيما قلت لى صله

فما انتفاءك فى حبسى وترديدى

فالمع أجمله ما كان أعجله

والمطل من غير عمر آفة الجود

ومثله قول الآخر :

وعدتني سبتا مضى فسبتا حتى اذا السبت أتى اخلفتا

أحسن من وعدك لو أنجزتا

وأخذه البحتري فقال :

« ووعدتني يوم الخميس وقد مضى

من دون موعدك الخميس الخامس » (٢٣)

ومن هذا النص نلاحظ أولا : أنه يعترف بأن ما يورده من معان
مقتاظة لا يعنى اعتقاده باتحادها أو مماثلتها التامة فهو يرى بين

المعنى وجوه غرق ويدعو المقارىء الى التفطن اليها ثم انه بعد ذلك لا يبتغى اتهام أحد بالسرقة أو لا يهتم بتعريف ذلك الآخر صاحب المعنى القريب . ومن ثم لم يقل بالأخذ الا في مثل حالة البحتري عندهما صار المعنيان من القرب والخصوصية بحيث يترجح القول بالتأثر والأخذ وهو مع ذلك لا يحكم بالأخذ على سبيل التهجين كما هي عادة أصحاب كتب السرقات كالمهمل بن عوث صاحب سرقات أبي نواس وبشر بن يحيى صاحب سرقات البحتري من أبي تمام وانما يحكم بالأخذ تمهيدا لفتح باب الموازنة بين قولى الأخذ والمأخوذ منه ، وعنده - بكل تسامح - أن الأخذ أحق بالمعنى اذا أحسن صياغته بالنسبة الى مبتدئيه ؟ اذ يقول عن بيان بشار :

جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

انه مأخوذ من قول جميل بن معمر :

كأن المحب قصير الجفون لطول السهاد ولم تقصر

الا أن بشار أحسن فيه فصار أحق به وتناول العتابى فأفسده

بقوله :

في مآقى انقباض عن جفونها وفي الجفون عن الآفاق تقصير (٢٣)

واذن فهو لا يهبط بقيمة بشار حين أخذ المعنى من جميل بل يثني عليه لحسن صياغته ولو تفروق العتابى في صياغته على بشار وجميل لكان الأحق به من دونها فليس يعيبه أخذه المعنى بل يعيبه افساده اياه ، وهذه لعمري نظرة متقدمة الى قضية السرقات مل الناقد فيها بدور الشرطى المتعقد بعد أن وعى جيدا أنه ما من شاعر الا وقد أفاد ممن قبله ، وكأنى به يقول مع الجاحظ ان المعانى مطروحة في الطريق يعرفها العربى والعجمى واليهودى والقروى ، وانما الشعر نسج وصياغة وضرب من التصوير ولذلك يكثر من ايراد الشواهد الدائرة حول معنى

واحد ليعتد للقارىء الموازنة بينهما ومعرفة أسرار تفوق بعضها على بعض ولا يعبأ بإسنادها الى أشخاص معينين اذ ليس همه الحكم على الشاعر وانما همه التأمل فى انشراح نفسه .

وحين يحث الشارح عن أصل المعنى ومصدره الأول لا يفعل ذلك إعادة للحق الى نصابه تنويها بفضل أصحاب الفضل وانما يفعلها بحثا عن المجال الذى يمكن أن يستمد منه الشعراء المعاصرون مزيدا من المعانى الجديدة ولذلك تتبع مصدر بيت بشار :

ما هبت الريح من تلقاء أرضكم الا وجدت لها بردا على كبدى

لقد كثر ثناء الشعراء على الرياح المقبلة من جهة الأحياء وهذا معنى مستملح مستطاب ولكن الى من يمكن نسبة أصله ان لم يكن الى عادات البشر وفطرتهم وطبيعتهم العنصرية « ان كل من له حب بناحية فانما يرتاح الى هبوب الريح من تلك الناحية صبا كانت أو جنوبا أو شمالا أو دبوراً » قال عمر بن الخطاب رحمه الله انى لارتاح للصبا لأنها تأتينا من ناحية زيد يعنى أخاه لأن زيدا رحمه الله كان قد استشهد باليمامة وقال عمر هذا وهو بالمدينة وقال يعقوب النخعي عليه السلام فيما قال الله سبحانه مخبرا عنه فى محكم كتابه : « ولما فصلت العير قال أبوه انى لأجد ريح يوسف لولا أن تفتدون » وكان يعقوب عليه السلام بوادى كنعان ويوسف عليه السلام بمصر « (٢٤) » واذن فما يأتيه من جهة يوسف ريح جنوبية وعمر رضى الله عنه ويعقوب عليه السلام لم يريدوا أن يقولوا شعرا وانما أرادوا أن يعبرا عن أنفسهم بما صدق وتلقائية وبساطة ولذلك حظى كلامهما بتأثير يفوق تأثير الشاعر . ومن هنا نأخذ أن من أقوى مصادر المعانى وأصوله عند أبى الطاهر الرجوع الى الطبيعة الانسانية وتصويرها وهى تعبر عن نفسها فى صدق وتلقائية وبساطة ، وبذلك يضمن الشاعر لقوله التأثير المطلوب .

غير أن أصل المعنى غالبا ما يكون ساذجا غفلا ولو رددت الشعراء كما هو دون تصرف لمن يلقى من السامعين غير الملل والاعراض كذلك بورد أبو طاهر البشار بيتا مطربا ثم يلحقه بأبيات لآخرين كثيرة، ثم يقول بعد امتداحها :

« أصل المعنى الأول (من كل ما قال الشعراء في وصف السهاد) قول الحارث بن خالد :

تعالوا أعينوني على الليل أنه على كل عين لا تنام طويل (٢٥) ولكنه — كما نرى — لم يرحب ببيت الحارث كما رحب بالذي وصف جفونه بالعقد أو ادعى أنها سملت والذي زعم أن أهدا به ربطت بحاجبيه (٢٦) * وهنا نلاحظ شيئا من التناقض وقع فيه أبو طاهر حين يلح في البحث عن أصل المعنى ثم ما يلبث أن يزهد فيه ويضعه في إطار من الإهمال حين يعثر عليه ، إذ يغلب على الناقد ذوق القرن الخامس والمشغوف بالصنعة ولو على حساب الصدق والتلقائية * بذلك يكون غايته من البحث عن أصل المعنى مجرد رصد عملية التطوير التي يجريها عليه الشعراء الواحد بعد الآخر * .

فاذا فرغنا من محوري الكتاب بقى أمامنا آخر قضايا البحث وهو المختص بتقييم الكتاب ، الواقع أن (المختار من شعر بشار) تقوم فكرته على أساس نقدي مغامر أو مغالط ذلك أنه لا يعنى ببناء القصيدة أو سياقها الخارجى الذى نظامت فى مناسبتها فضلا عن طبيعة المبدع والمنطقين والسياق التاريخى الذى يعيشون فى إطاره وإنما يلتقط منها بعض وحداتها الصغيرة بحجة استغنائها عن بقية البناء واكتفائها بذاتها دلاليا وجماليا ، ودراسة الوحدة الشعرية معزولة سواء كانت بيتا مزيدا أو صورة أو فكرة أو حتى معنى شعريا لم ينتج للنقد العربى القديم والبلاغة العربية الا أحكاما جزئية ، لا تتمتع بشمولية النظرة الى الأدب

في فهمه وتفسيره وتقويمه بل تتولد عنها — كما حدث أثناء القرن السابع الهجري وما بعده — أعداد لا حصر لها من التفريعات والتفريجات المنطقية العقيمة التي أبعدت النقد عن الثقافة العربية تماما وجمدت البلاغة داخل أطر متحجرة من القواعد المنطقية الجافة . ومع هذا فربما استسيغت دراسة بعض عناصر العمل الأدبي بعد عزلها بهدف تحقيق أكبر قدر ممكن من الثقة في الأحكام والتعمق في النظر ، ولو أمكننا تناول كتاب المختار بناء على هذا الافتراض فسيتبين أمامنا أن نقساعل حول مغزى الاختيار من شعر بشار من جهة ثم حول هذا الاستعراض المستفيض لما يناظر بعض أبيات بشار معانى أو صوراً الذى قام به الشارح .

ان الشعر الجيد يستحق هذا الوصف لأنه يحمل صورة جيدة وليس فقط لأنه يحمل معنى جيداً . فالصورة هي أهم عناصر الشعر الجيد ولقد فطن الى ذلك النقاد العرب القدامى بل سبقهم اليه المتذوقون من ذوى الحاسة النقدية الرفيعة ، فحسان بن ثابت يطرب عندما يصيب ابنه التشبيه في عبارة ويقسم أن ابنه شاعراً ، وعبد الملك بن مروان ينفى صفة الشعر عن هذين البيتين فهما عنده ليس أكثر من (شرح اسلام أو تفسير آية) .

والجباظ يفسر تأخر صالح بن عبد القدوس عن أضرابه من الشعراء المجيدين بأن شعره كان تقريراً مباشراً سواء في ارساله الحكم والأمثال ، اذ « لو كان شعر صالح بن عبد القدوس مفرقا في أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه بطبقات ولصار نوادر سائرة في الآفاق ولكن العقيدة اذا كانت كلها أمثالا لم تسر ولم تجر مجرى النوادر » (٢٧) . ان الشعر لغة الخاصة ووظيفته التي تجعله مختلفا عن الخطابة والكتابة بمختلف أنواعها ، ولغة الشعر هي لغة التصوير ، تصوير المعانى والمواقف والمشاعر والمواقف وما تقدم

اللفظ على المعنى عند أكثر النقاد العرب إلا لأنه دون المعنى هو الذى يحمل الصورة الشعرية ويؤديها واذلك كثر أيضا كلامهم عن اللفظ اللائق بالشعر الذى يتمتع باشعاع قوى وإيحاء نفاذ الى خيال السامع يثير على مسرحه الصور المختلفة حية نابضة . وربما كان تحسس أسرار الصورة الفنية هو الذى جعل عبد القاهر يؤمن بأن النظم وليس اللفظ ولا المعنى هو الذى عليه المعول فى الحكم على الكلام بالبلاغة وحسن البيان ، فهو يفسر النظم بأنه « ان تقتضى الألفاظ فى نظمها آثار المعانى وترتيبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس » فهو اذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وليس هو النظم الذى معناه ضم الشئ الى الشئ ، كيف جاء واتفق ، وكذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشى والتخيير وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضى كونه هناك وحتى لو وضع فى مكان غيره لم يصلح » (٢٨) .

ولكن علينا قبل ذلك أن نقوسع فى فهم الصورة عن النطاق الضيق الذى انحصرت فيه الصورة البيانية عند البلاغيين المبنية على الاستعارة أو المجاز . فالصورة كما يفهمها النقد الأدبى الحديث « صورة حسية فى كلمات ؟ استعارية الى درجة ما فى سياقها نغمة خفيضة من العاطفة الانسانية ولكنها أيضا شحنت — منطلقة الى القارئ — عاطفة شعرية خالصة أو انفعالا » (٢٩) . ومعنى كونها (استعارية الى درجة ما) أنها قد تبنى على ألفاظ حقيقية فى مجوعها كالصورة الكنائية مثلا أو الصورة الحديثة أو الوصفية ان أهم ما تتميز به الصورة هو اثارها لخيال الملقى وعاطفته بما تطرحه من عناصر حسية ملموسة لا معنوية مجردة حتى وهى تتكلم عن الصفات المطلقة فتوردها فى صورة متعينة وقد تشخصت امام خيال الملقى كقول الشاعر :

ان السماحة والاروة والندى فى قبة ضربت على ابن الحشرج

فها هي ذي المعاني المطلقة السماحة وال مروعة والندى وقد تشخصت
وأصبحت مخاوفات مرئية مسموعة تذهب وتجيء وتقيم مع
ابن الحشر في خيمته .

وعلى قدر حظ الشاعر من (التفكير بالصور) تكون قدرته على
مخاطبة أعماق أغوار الضمير الانساني بفطرته البسيطة والأصيلة معا
ذلك « أن الشعر هو النشاط الأول للعقل الانساني ، فالانسان قبل أن
يصل الى مستوى تصور الكليات فانه يتصور أفكارا متخيلة ، قبل
أن يفكر بعقل واضح يدرك الأشياء بملكات مشوشة قلقة قبل أن يتمكن
من الافصاح الواضح عنها ، أنه يعنى قبل أن يتكلم نثرا ، وهو يتكلم
بالشعر قبل استعمال المصطلحات التقنية ، والاستخدام الاستعارى
للكلمات يكون بالنسبة اليه فطريا مثل أى شئ تدعوه طبيعيا » (٣٠) .

فاذا رجعنا الى بشار وجدنا أن رؤيته المتميزة لطبيعة الصورة
الشعرية هي التي هيأت له المكانة الرفيعة التي حظى بها بين شعراء
عصره (٣١) . وبلغه الأسلوبيين نقول ان بشار قد حطم حدود الصورة
الشعرية القديمة وانحرف بها عن طريقها المرسوم منذ الجاهلين
فاكتسبت عنده أصالة وخصوصية وتميزا اقتضى به المولدون في خوض
هذه التجارب والتمادي بها الى غايات أبعد لقد كان التشبيه عند
الجاهلين يقوم على المماثلة الحسية وبقدر تحقق هذه المماثلة يكون
توفيق الشاعر في تكوين صورته حتى اذا جاء بشار ومعه عاهته التي
لا توصل اليه المحسوسات الا توها ومشبعة بألوان وجدانية وعواطف
متميزة أخذت الصورة الشعرية عنده هذا الشكل الجديد الذي
لا يكون فيه المشبه بالضرورة ممثلا للمشبه به من الناحية الحسية ،
بل يكفي أن يكون الأيحاء المنبعث فيهما من نوع واحد وبدرجات متقاربة
وهكذا استساغ لنفسه أن يشبه رجع حديث صاحبه بقطع الرياض .
وأن يجعل هاروت تحت لسانها ينثف فيه سحرا :

وكان رجع حديثها
 قطع الرياض كسين زهرا
 وكان تحت لسانها
 هاروت ينفث فيه سحرا
 حوراء ان نظرت اليه
 ك سقتك بالعينين خمرا

بالإضافة إلى عاهته التي هيأت له تصورا متميزا للمرثيات غير
 متقيد بوضعها الحقيقي فقد تمتع بشار بطبيعة انفعالية جياشة قد
 ترجع نوعا ما إلى أصله الفارسي — كما يرى الدكتور شوقي ضيف (٣٢) —
 — وقد ترجع إلى آفته مرة أخرى وفاقته والظروف الشاذة لأسرته •
 ولكنها على أي حال مسقدمة من فطرته التي جبل عليها قبل أي
 سبب آخر •

ولهذا فمن الصعب — مهما تأثر المرء بانفعال نقاد العرب للشعراء
 الجاهلين — أن يوازن بين بيت بشار :

كان مثار المنقع فوق رؤسنا وأسيفنا ليل تهاوى كواكب

وبيت امرئ القيس :

كان قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي
 فاذا قيل لقد شبه امرئ القيس اثنين باثنين كما فعل بشار
 فان في بيته الأخير من تصوير الحركة الصاخبة الآخذة بمجامع القلوب
 هولا ورهبة لا نعثر على شيء من حرارته وحيويته في بيت امرئ القيس
 الذي يمكن عده جيدا بمقياس القدامى الذين يهتم من التشبيه
 المضاهاة الحسية شكلا ولونا وهيئة ولكنه يفتقد الوظيفة الجديدة
 التي تحملتها الدورة عند بشار والمتمثلة في تكثيف الإحياء إلى الملتقى

بالحالة الوجدانية التي يعيشها المشبه . ولقد اجتهد الشارح في جمع أبيات عدة اقتفى أصحابها ببشار فوصفوا جو المعركة بذكر النقم المثار والسيوف المتهالكة وشبهوا هذا في قتالته بالليل وشبهوا ذلك في إيمانها بالشهب ولكن أحدا منهم لم يفد من رؤية بشار المتميزة أو قل إحساسه الشديد بالخصوصية بهول أجواء المعارك وأثرها على النفوس الذي يصوره الفعل (تهاوى) . فإذا راجعنا أبياتا مثل قول مسلم :
 في جحفل تشرق الأرض الفضاء به كالليل أنجمه القضببان والآنسل

وأخذه منصور النمرى فقال :

ليل من النقم لا شمس ولا قمر إلا جبينك والمذروبة والشرع

وأخذه العتابي فقال :

تبنى منابله من فوق هامهم ليلا كواكبه البيض المائير

وقد أوردنا الشارح على التوالي كما أورد أبياتا أخرى كثيرة ذكر فيها النقم والسيوف ولكنها خلت من الوصف الحقيقي للمعركة والحق أن الشارح قد أحس بهذا المفارق الدقيق بين بشار وبين من تأثر به من الشعراء فقل « بيت أبي معاذ أفضل وأحسن وأصنع وأرصن وهو من محاسن شعره وأفراد أبياته » .

ولكنه لم يجد لم كان بيت أبي معاذ أفضل على النحو الذي ذكر وإنما اكتفى بهذا التعميم القليل الجدوى والمشكلة أن معظم أحكامه وردت بهذه الصفات الجزافية مما يجعلنا نشك في مدى تقبوه الى القيمة الحقيقية للصورة في شعر بشار ، خصوصا إذا استعرضنا الأبيات التي صرح باستحسانها من بشار وغيره والحالات النادرة التي نص على موطن الحسن فيها والأسباب أو القيم الجمالية التي بنى أحكامه على أساسها ، وقد تقدم ذكرها وهي بالجملة لا تبعد عن الاستعارة التورية والتجنييس الطريف والمطابقة وحسن التعليل

ومراعاة الفخيز الى آخر هذه الجماليات التي عدها أبو الطاهر
(من صنعة الحاذقين بالشعر) •

بل أكاد أقول ان كثيرا من الشعراء الذين قتلهم ذوا على يد بشار —
سواء بالمصاحبة الفعلية كما تحكى أخباره مع الكثير من شعراء عصره
المثقفين حوله أو بمداومة النظر في شعره واستيلاء خيالاته المبتكرة
وأفكاره العذبة — لم يستطيعوا أن يلحقوا به فضلا عن أن يبلغوا
شأوه في جمال صورته بما تحمل من شحنات عاطفية وانفعالية متدفقة
وأخيلة استعارية مبتدعة • لقد أخذوا منه إشارة الانطلاق الى الاغراب
في الأخيلة والاهتمام بتزيين الصياغة • ولكن هذا الذي شرعه بشار
وانتهجه المحدثون كان بالنسبة اليه فعلا تلقائيا نابعا من طبيعة ظروفه
الخاصة منسجما معها ومعبرا عنها في صدق ودون تكلف وكان هو نفسه
بالنسبة الى المحدثين ميدانا للتبارى بينهم في بعد الأخيلة ومجالا
للسباق في البحث عن كل مستغرب مبتدع بصرف النظر عن مدى صدقه
في التعبير عنهم وقدرته على نقل أحاسيسهم وعواطفهم • ولذلك
فسرعان ما وجدنا طريقة بشار التي استحسنت عنده وحمدت له تنقلب
وبالا على الشعر العربي وتورط الشعراء في التكلف والتعقيد والاحالة
وتبعد بهم وبشعرهم عن وظيفته الانسانية المتمثلة في التعبير الصادق
عن التجربة الخصبة المتميزة المفعمة بالعواطف الانسانية غير الزائفة
أقول هذا حين أتذكر تجربة أبي تمام ومدرسته البديعية التي بعدت
بالشعر عن القوازن الجميل المعجز الذي اصطنعه بشار بين التلقائية
والصدق من ناحية وبين الابتداع والطارفة من ناحية أخرى ، وان كان
صدق بشار هو الذي أوقعه في كثير من الخصومات المريرة مع العلماء
والفقهاء ورجال الدولة وغيرهم ممن يحاسبون الشاعر أخلاقيا قبل
أن يحاسبوا فنيا حتى انتهى به الأمر الى الموت جلدا •

فتأمل كيف يمتدح في بشار الصفة التي أدت الى موته !

وعلى الرغم من التناقض الجوهرى الذى تكشف لنا بالتحليل بين
 أساس التقييم الجمالية التى يقوم عليها نقد أبى الطاهر التجيبي البرقى
 وبين ما أصبحنا نؤمن به من أسس ونسعى الى تحقيقه من قيم جمالية
 مستمدة من النقد الحديث فلا نستطيع أن نجد قيمة الكتاب فى تفجيره
 الكثير من القضايا النقدية الأدبية واثارة التساؤلات حولها وفى عرضه
 الكثير من النماذج الجيدة من الصور الشعرية المتقاربة واثاحة الفرصة
 للموازنة الدقيقة بينها التى تمكن من شحذ الحاسة النقدية وصقل
 الذوق الأدبى •

الهوامش

(١) من أوضح الأمثلة على ذلك قصيدته التي مدح بها عمر بن هبيرة والتي مطلعها :

جفا وده فازورا أو مل صاحبه

أورد جامع الديوان انه جاء بالأبيات ١ - ٢ - ١٢ - ١٣ - ١٦ ، من ٢٠ - ٣٠ ، ٣٧ من كتاب معاهد التنصيص ١ - ١٤٢ ، من المحاضرات ٢ - ٥٦ ، البيت ٣ وفي المختار ٧٥ الأبيات ٣ - ٤ - ٥ وفي القالي ٢ - ٢٣٤ ، البيتان ٦ - ١٠ المغيرة ابن حيناء وهما في المختار ٢٨٢ لابن الزبرقان ابن بدر ، ومن الموشى ١٩ الأبيات ٦ - ١٠ - ١٢ - ١٦ ومن ديوان المتلمس ٥٧ البيت ٧ وفي المحاضرات ٢ - ٣ البيت ٨ ومن غرر الخصائص ٢٧٢ الأبيات ١٢ - ١٣ - ١٤ - ١٦ وهي حماسة ابن الشجري ١٤٣ الأبيات ١٢ - ١٣ - ١٦ - ١١ .

وفي الطبقات ٤ - ٥ الأبيات ١ - ٢ - ٤١ - ٤٢ - ١٧ - ١٨ - ٧ - ١٢ - ١٣ - ١٦ - ٤٣ - ٤٥ - ٣٠ - ٢٣ - ٢٤ - ٤٤ .
فهذه خمسة وأربعون بيتا . وفي الديوان التونسي ١ - ٣٠٦
لهذه القصيدة خمسة وثمانون بيتا . ثم يعلق العلوي بقوله : فمن أبيات
مجموعتي توجد اثنان وعشرون بيتا في الديوان وهي ١ - ٢ - ١٧ - ١٨ -
٧ - ١٢ - ١٣ - ١٦ - ٣٨ - ٤٠ - ٤١ - ٣٠ - ٢٣ - ٢٤ - ٣٧ -
٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣١ - ٣٢ واليوافق من مجموعتي فلا توجد
فيه وهي ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٨ - ٩ - ١٠ وأما البيتان ٦ ، ١٠ المنسوبان
ال غير بشار في القالي والمختار فمعزوان في الموشى الى بشار وعليه
اعتمدت . فأذا أمر الترتيب بين الأبيات فقد كان صعبا جدا لأجل اختلاف
كثير وتشنت كبير في المآخذ فوضعت الترتيب بينها بمراعاة المعنى مهما
أمكن . انظر ديوان بشار جمع العلوي ص ٤٢ ، ٤٣ ط دار الثقافة بيروت
١٩٨٣ وهي المستخدمة في البحث .

(٢) انظر المختار ٦٤ - ٩٥ - ٩٦ - ٩٧ - ١٧٥ - ٢٣٣ .

(٣) انظر نفسه ٧٨ - ٩٠ - ١٦٠ - ٢٥٢ - ٢٥٨ - ٢٦٣ .

(٤) نفسه ص ٢٣١ .

- (٥) نفسه ص ٨
- (٦) وقد تناثرت تعبيراته الشديدة الإيجاز الدالة على ذلك في ٦٢ - ٢٣ - ٣٣ - ٣٥ - ٦٢ - ٧٨ - ١١٥ - ١١٦ - ١١٨ - ١٤٩ - ١٦٤ - ١٨٦ - ٢٣٩ - ٢٤٦
- (٧) نفسه ص ٧
- (٨) نفسه ص ١١٨
- (٩) نفسه ٢٠٦ - ٢٣٧
- (١٠) نفسه ١٥٥
- (١١) طبقات الشعراء ص ٤٦٢
- (١٢) المختار ص ١٦٤
- (١٣) الديوان ص ١٥١ طبعة العلوى
- (١٤) المختار ص ٢٤٥
- (١٥) طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز ص ٢٤ ط • دار المعارف
- (١٦) المختار ص ١٨٧
- (١٧) نفسه ص ٢٠٨
- (١٨) الذخيرة ج ١ ص ٢٠٣ نقلا عن تاريخ النقد الأدبي عند العرب د • احسان عباس
- (١٩) العملة ٢ : ١٨٥ ص ١٩٠٧
- (٢٠) طبقات الشعراء المحدثين ص ٢٣
- (٢١) الموشح ٢٥٠ السلفية ١٣٤٣ هـ
- (٢٢) العملة من ١ : ٥٨
- (٢٣) المختار ص ٨١
- (٢٤) نفسه ص ٨٤

(٢٥) نفسه ص ١٩ .

(٢٦) نفسه ص ٢٦ .

(٢٧) البيان والتبيين ج ١ : ١٥٠ .

(٢٨) دلائل الإعجاز ص ٤٠ .

(٢٩) الصورة والبناء الشعري ص ٢٢ ط . دار المعارف ص ٨١ .

(٣٠) نفسه ص ٣١ .

(٣١) وقد أشار الى ذلك الدكتور احمد كمال زكي في الفصل

الذي عقده عن بشار وشاعريته من كتابه (الحياض الأدبية في البصرة الى

نهاية القرن الثاني الهجري) ص ٥١٥ وما بعدها دار الفكر دمشق .

١٩٦١ .

(٣٢) العصر العباسي الأول ص ٢٠٧ دار المعارف بمصر ط ٦ .

• ده لقا نه عيط

فيمتد الى سنة ١٩٦١ م .

١٩٦٢ م .

١٩٦٣ م .

١٩٦٤ م .

١٩٦٥ م .

١٩٦٦ م .

١٩٦٧ م .

١٩٦٨ م .

١٩٦٩ م .

١٩٧٠ م .

١٩٧١ م .

١٩٧٢ م .

١٩٧٣ م .

١٩٧٤ م .

١٩٧٥ م .

الغربة النفسية في شعر العقاد

اعداد

الدكتور / رزق محمد داود

مدرس الأدب والنقد في كلية اللغة

العربية بدمنهور

ليس من شك في أن جماعة الديوان ، تعد من طلائع الاتجاه الرومانتيكي في أدبنا الحديث ، والمعروف أن الرومانتيكين عموما قد دعوا الى الخلق الفطري ، والعودة الى الطبيعة الحانية ، التي تتوفر فيها السعادة لكل أبناء الجنس البشري ، ومن هذا الخلق الفطري وتلك الطبيعة الحانية ، استمدوا عواطفهم الانسانية التي ترجع الى ما فطروا عليه من الهام .

وقد أراد الرومانتيكيون أن يكون الوجود أكثر استجابة لمعاناة الانسان ، وأن يكون الانسان اله حاكم ذاته ، وسيد قدره ، وأن يكون غاية وليس وسيلة ، تسييره الأقدار وترغمه الحتمية رغبات الوجود الغامضة، لذلك كانوا متشائمين رافضين ، لا يرضيهم شيء ، ولا يقنعون بشيء ، ومن ثم فشلوا في تحقيق النجاح الاجتماعي لأنهم كانوا يحتقرون كل شيء ، حتى أبناء مجتمعهم بل المجتمع ذاته ومن هنا شعروا بالغربة النفسية فيه .

والعقاد — رائد جماعة الديوان (١) — تأصلت فيه هذه النزعة منذ صغره ، فصارت جزءا من نسيج مشاعره وعواطفه ، فضلا عن سواوكة

(١) يرى بعض النقاد أن عبد الرحمن شكري هو رائد هذه الجماعة

وتصرفاته ، وبخاصة قبل أن يلتحم بأبناء الشعب مدافعا عن حقوقهم في مجلس النواب ، وفي منبر الصحافة ، ففي تلك المرحلة ، كمن شعوره النفسى بالاغتراب في أغوار نفسه البعيدة ، نظرا لظروفه السياسية التي كان يعيشها آنذاك .

والمعروف عن الرجل انه لم يتعلم تعليما رسميا بعد حصوله على شهادة اتمام الدراسة الابتدائية (٢) ، ولكنه استطاع بمجهود الخاص ، وبقدراته الذاتية ، وبما فطر عليه من نزعة التحدى ، والتي كانت اثرا من آثار النهضة الاسوانية ، أن يتقف نفسه في مختلف فروع العلم والثقافة بطريقة أهلتته لأن يتربح على قمة حياتنا الثقافية ، لأكثر من نصف قرن ، وهذه السمة التي لا يكاد يشرك العقاد فيها أحد ، غرست في يقيقه نزعة التحدى في وقت تفاخر فيه معاصروه بالألقاب والرتب ، وتباهوا بما وصلوا اليه من الدرجات العلمية ، الأمر الذي أدى الى ما يشبه رد الفعل لدى العقاد ، فبالغ في الاعتزاز بقيمه ،

ومنهم د . محمد خفاجي في كتابه الأدب العربى الحديث ومدارسه ص ٤٦ ،
د . محمد مندور في كتابه الشعر المصرى بعد شوقي الحلقة الأولى ص ٤٩ ،
ص ٩١ ، ١٢١ ، د . ابراهيم أبو الحشيش في كتابه تاريخ الأدب العربى في العصر الحاضر ص ٢١٨ ، هذا بينما يرى فريق آخر أن العقاد هو رائد الجماعة ومنهم د . عبد الحى دياب في كتابه عباس العقاد ناقد ص ١٣٥ ، د . شوقي ضيف في كتابه الأدب العربى المعاصر في مصر ص ٦٨ ، د . أحمد هيكال في كتابه تطور الأدب الحديث في مصر ٣١ ، ١٥٦ ، د . نعمات فؤاد في قمم أدبية ص ٩٦ والأستاذ محمد طاهر الجبلاوى في صحبة العقاد ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ وبعد التحقيق والتمحيص نرى رأى الفريق الثانى لقوة حججهم .

(٢) انظر « أنا » للعقاد ط دار الهلال ص ٣٠ .

وغالى في الدفاع عن مبادئه ، وأسرف في الذود عن كرامته ، وبطش كل
من شكر في الحوم حول عرينه •

وقد صور ذلك شعرا في قوله :

أنا حاطم الأصنام والقُبب
ألحقت منها الرأس بالذنب
في أمة الألقاب أسبقهم
سعيًا بلا نعت ولا لقب
في أمة الأموال أتركهم
بعدي بلا مال ولا نشب
في أمة الأتساب أنشئ لى
نسبا من العلية والأدب (٣)

من هنا شعر العقاد بالعربة النفسية ، وخاصة بعد أن اقتسعت
الفجوة بين آماله وطموحه وبين الواقع الممض الذى كانت تعيشه مصر
في عصره « ١٨٨٩ - ١٩٦٤ » وهو عصر وصفه العقاد بأبلغ وصف
في قوله : « انه عصر طبيعته القلق والقرود بين ماض عتيق ، ومستقبل
مريب ، وقد بعدت المسافة فيه بين اعتقاد الناس فيما يجب أن يكون
وبين ما هو كائن فغشيتهم الغاشية ، والشاعر بجبلته أوسع من سائر
الناس خيالا ، فالمثل الأعلى ، أرفع في ذهنه منه في أذهان عامة الناس ،
وهو الطفهم حسا ، فألمه أشد من ألمهم ، وانما يكون الألم على قدر بعد
البون بين المنتظر وبين ما هو كائن فلا جرم ان كان الشاعر أفطن
الناس الى النقص ، وأكثرهم سخطا عليه » (٤) •

(٣) ديوان العقاد « ما بعد البعد » ط دار المعارف ص ٢٩ •

(٤) مقدمة ج ١ من ديوان المازنى ص ١٧ ط المجلس الأعلى لرعاية

الفنون والآداب •

وقد نغم العقاد على المجتمع ، ونقد أساليب الحياة فيه ، وأدته
 الغربية النفسية الى العزلة والانطواء وهو أصلا مفطور على العزلة ،
 لأسباب يرجع بعضها الى الوراثة، وبعضها الى الطفولة الباكرة، وبعضها
 الى تجارب الحياة (٥) ، لذلك استغرقت الكتب حياته ما بين كتاب يقرأه
 أو كتاب يؤلفه ، أو قصيدة يبدعها •

وقد أحس العقاد ذلك في نفسه ، فاعتذر عنه في أسلوب رقيق إذ
 يقول : « وليس معنى العزلة أننى أحارب الناس ، أو أننى لا أبادلهم
 العاطفة والشعور ، فأننى أحب مسألة الناس جهدى ، ولا أستبيح
 لنفسي ان أبدأهم بما يسوء ، ولكننى لا أبيع لأحد أن يستخف بالأساءة
 الى » (٦) •

وقد يتعدى الأمر من ألفته الإخوان الى ألفته غيرهم من الأحياء
 والأشياء ، ودواوينه تفيض بالنماذج التطبيقية على تأصل هذه النزعة
 فيه ، فقد بكى كلبه (٧) ، وتعاطف مع كتبه (٨) ، وغنى للطائر المصرى
 غناء خالدا ، بل أهداه ديوانا كاملا هو « هدية الكروان » •

وقد أخذ الاغتراب النفسى لدى العقاد أكثر من مظهر ، فهناك
 الاغتراب الزمنى الذى يكمن فى احساسه بأنه لا يصلح لهذا الزمن ،
 ونقمته عليه من أجل النفوس المقيمة فيه ، لأنه يصاب مقامه بينهم ،
 ولا يتمنى الخلود فيهم ويعود العيش بينهم ساجنا ينفر الشاعر من
 الوجود كله :

نفوس أعاف مقامى بها
 أخلد فيها ؟ لبئس الخلود !

(٥) « أنا » للعقاد ص ٢٦ ط دار الهلال •

(٦) مجلة الرسالة العدد الصادر فى ١٧/١١/١٩٤٧م

(٧، ٨) انظر خمسة دواوين للعقاد ص ١٧٦ ، ١٨٥ ، ١٧٠ وديوان

العقاد ص ١٣١ •

وسجن أعاف وجردى به
 أليس كفيلا ببغض الموجود
 قرب خلود كفيد السجين
 ونسيان قوم كفك القيود (٩)
 ونلمح غربته في الحياة ، وأثر الزمن في سلوكه ، وأن جفاءه
 وغلظته أثر من فعال الناس معه ، وانعكاس لصورة الحياة لديه
 في قوله :
 إذا استصعبت نفسي وضاق فجاجها
 ولاحت لمراى العين كالجبل الوعر
 فلا تنكروا منها جفاء ووحشة
 ولا ترجموها بالقبيح من الكبر
 فتلك ظلال الناس فيها ودونها
 طبائع كالماء النمر إذا جرى
 ولولا صفاء الماء ما علقت به
 مشابه من أوعار شطآنه النعير
 وإن جشأت نفسي وصابت سماؤها
 وغامت دياجيتها على الأتجم الزهر
 فمن أرضكم ضوضاؤها وقتامها
 ومن صوبكم ذاك الغمام الذى يسرى
 تليكم غواشيتها الغضاب وفوقها
 شمس تميط الليل عن طلعة الفجر
 وأنا لمراة لما فى زماننا
 نحدث عنه حيث ندرى ولا ندرى

تفويض لنا أفراحنا من صadorنا

وما فاضت الدنيا لنا بسوى الشر (١٠)

ويبلغ العقاد قمة نقمته على زمنه ، بعد أن غدا الأسافل يصعدون ،
وأهل القيم يهبطون وتوسل ذور المناصب اليها بالخداع ، والحيل
الرخيصة ، وانعكست قيم الأشياء :

فشئت الجهالة واستقاض المنكر

فالحق يهمس والضلالة تجهر

والصدق يسرى في الظلام ملثما

ويسير في الصبح الرياء فيسفر

انا لفي زمن كأن كباره

بسوى الكبائر شأنها لا يكبر

بئس الزمان لقد حسبت هواءه

دنسا وأن بحاره لا تطهر (١١)

وهذا الاتجاه هو ذات الاتجاه الرومانتيكى حيث « ان الصلة بين
الرومانتيكين وعصرهم صلة صراع وجهاد ، أو صلة سخط وغضب ،
وهى صلة الشعور القوى النائر المتطرف الذى ينشد مثالا ، ومن شأن
هذا المثال أن تنعكس صورته في الأدب على أنه صورة لما ينبغى أن
يكون ، لا لما هو كائن ، فهذه الصورة في تعارض مع ما عليه المجتمع
الذى نشأت فيه » (١٢) .

أما الاغتراب المكنى لدى العقاد فيتمثل في احساسه بالفرار من
بيئته الى بيئة أخرى تحيا فيها روحه ، ويخلق في أجوائها بخياله، ويجد

(١٠) ديوان العقاد ص ٢٦٠ .

(١١) ديوان العقاد ص ١٣١

(١٢) الرومانتيكية د. محمد غنيمى هلال ط دار نهضة مصر ص ٤٠

فيها متعته الفكرية ، وفي رأى العقاد أن القرابة الفكرية أهم وأولى من القرابة البيئية والمكانية حينما يذهب الى أنه « لو كانت هناك نفس في المريخ خطر في ضميرها مثل الذي يخطر في ضميره ، لكانت ألصق به وأوفى رحما ممن يلونه ويجاورونه على فرقة في الرأى والاحساس ، ولو أن قائلنا جمعنى به الفكر والهوى لما كان غريبا عنى وان فرقتنا لغة وباعد بيننا زمان وموطن » (١٣) .

والعقاد يتفق في هذه النظرة مع المفكر الرومانتيكى « ستا ندال » الذى يقول : ان الوطن الحق هو الذى تلتقى فيه بكثير ممن يشبهونك » (١٤) والمفكر الرومانتيكى « جيراردى نرفال » الذى يقول : « لكل فنان وطن مثالى غالبا ما يكون بعيدا من وطنه الأصلى تترتاح اليه موهبته الفنية » (١٥) .

ومن مظاهر الاغتراب الزمانى والمكانى لدى العقاد ، ترفعه على جمهور الناس ، وهى سمة تأصلت في نفسيته منذ صغره ، اذ كان يحس في نفسه عظمة لا يجد لها ظلا في سواء منذ رفض أن يلبس البنطلون القصير — كزملائه — في حصة التربية الرياضية وهو طفل بالمدرسة الابتدائية بأسوان ، رغم أنه كان أصغرهم سنا وأطواهم قامة (١٦) .

ونمى هذا الشعور لديه ، مع نمو مداركه ومشاعره، وأضناه ما جلبه عليه حبه الناس فقد كلف بحبهم زمنا الى أن صارت غاية أمانيه أن يعرضوه ، لأنهم لا يعطفون الا على كل منحدر في الحس والمعنى ،

(١٣) الغربال — ميخائيل نعيمة ط ١٢ (١٩٨١) بيروت ص ٦ .

(١٤، ١٥) الرومانتيكية ب محمد غنيمي هلال ط دار نهضة مصر

ص ١٢١ ، ٦٨ .

(١٦) أنا للعقاد ط دار الهلال ص ١٢٢ .

ويعجزهم التطلع الى القمم العالية ، وكم نسج لنفسه من فضائلهم
حتى غدا ينظر الى أصغرهم ، شأن الطبيعة في قياس الأشياء ، ومن ثم
فهو يحتقر أرضا خلت من أنداده ، وموطنا لا يعمره مثاله :

وكم كلفت بحب الناس لي زمنا
فاليوم بغضهم من خير آمالي
فالناس تحنو على الوادي ويعجزهم
جهد التطلع عن ذي القمة العالی
وكم نسجت لنفسي من فضائلهم
نسجا على الزرع من هون واجلال
فاليوم أكبرهم عندي كأصغرهم
ان الطبيعة مقياسي ومكيالي
انى لأصغر أرضا ليس يعمرها
من الخلائق أندادي وأمثالي (١٧)

ويؤكد هذه الفكرة في موطن آخر حيث يرى أن شقاء العظماء
راجع الى افتقارهم الأشباه والنظائر ، أما الأصاغر فهم أشباه
كثيرون ، والناس يتوددون لمن شابههم فاذا علا عنهم رجموه ، وان سفل
احتقروه ، وعلى ذوى الذبوغ توطين أنفسهم على العزلة والشقاء :
ان الشقي الذي لا صـدو يشبهه

وللأصاغر أشباه وأمثال
من شابه الناس سرقة مودتهم
ومن علا عنهم ساءت به الحال

فاهناً بمجدك إذ تشقى بعزلته

وليحظ بالصفو أو غاد وجهال (١٨)

وهذا الشعور مسترقد من العواطف الرومانتيكية أيضاً إذ أن الفرد لديهم يكن دائماً فريسة ألم مرير بسبب الجفوة بينه وبين مجتمع لا يقدر ما فيه من نبل الاحساس ونتيجة انهيار آماله الواسعة ، وتعذر ظفره بالمثال المنشود ، ولذا كار الحزن طابع الرومانتيكية ، وهو حزن طابع الرومانتيكية ، وهو حزن يدل على عزلتهم الروحية ونفورهم من أدواء المجتمع (١٩) •

ويؤكد العقاد هذا حينما يذهب الى أن طالب الحق عليه أن يوطن نفسه على احتمال المكاره لأن الحق والأمن لا يجتمعان ، فاما أن تبحث عن المجد معرضاً نفسك لأخطاره ، واما أن تقبع في الهوان آمناً • هما سبيلان من ييخ السلامة لا

يأسف لعي الحق أو يحلم برؤياه
ومن بغى الحق في الدنيا فلا أسف
على السلامة ان خانتته دنياه
قد يهجر الأمن من ذلوا ومن وهنوا
وما تفرق قط الهول والجاه
فاختر لنفسك اما الجدد في خطر
أو الهوان وقد تشقى ببلواه
وما اختيارك الا ما خلقت له
ان الطبائع ما ترضاه نرضاه (٢٠)

(١٨) السابق ص ١١٢ •

(١٩) الرومانتيكية د • محمد غنيمي هلال ص ٤٣ •

(٢٠) خمسة دواوين للعقاد ص ٣٢١ وانظر « حياة الأمن »

الدواوين ص ٢١١ •

وقد وصل هذا الشعور الى قمته في نفس العقاد ، حينما اشترع
للعظماء قانون يحاسبون بمقتضاه لا ينسحب على العامة ، لأن
لكل مقياسه ومعياره اذ يقول :

لا تلح ذا بأس وذا هممة
على ذنوب العصبة الغلب
فليس مقياسك بمقياسهم
ولا هم مثلك في مأرب (٢١)

ويعلل العقاد ذلك بأن الليث لا يوثق بالحبالة التي تنصب للشعب،
ومن ثم فهو يطلب عدل الناس لا عدل الموازين التي لا تفرق بين
الغث والسمين (٢٢) .

اذا فريد اذا ما الظالم حاق بنا
عدل الأناسي لا عدل الموازين
عدل الموازين ظالم حين تنصبها
على المساواة بين الحر والودن
ما فرقت كفة الميزان أو عدلت
بين الحلى وأحجار الطواحين

ولما كان العقاد يستشعر العظمة ، في مجتمع عزت فيه العظمة
والعظماء ، فقد تضاعف شعوره بالخربة بعد البون بينه وبين معاصريه،
وهو بون يستحيل معه الالتقاء .

عرفت نفوسكم وعرفت نفسي
فليس الى التعارف من سبيل

(٢١) ديوان العقاد ص ١٢٤ .

(٢٢) خمسة دواوين للعقاد ص ١٢٤ .

أمور من بديهياتي وحدي

حسبتم صدقها كالمستحيل

جليل الأمر عندكم حقير

وأحقّره أجبل من الجليل

فلست مباليا منكم بذي

(١٦) ولا آسى على ظن جميل (٢٣)

وقد ترتب على ترفع العقاد على الناس ، واحتقاره سلوكهم وتفاهة

ما لديهم من بواعث وقيم ، أمر آخر أعنف من الترفع وهو الهجوم

الاجتماعي وهو هنا لا يحتقر الناس بتعداد مثالبهم الا ليوقظهم حتى

يتخلصوا من سلبياتهم ، لأنه وجه هذا النقد في الأغلب الأعم الى

الشباب ، بوصفهم رجال المستقبل ومناط الأمل في اصلاح الأمة :

كم اذا أعاشر من صـحـبـي وأعدائي

من ليس يعقل أمالي وآرائي

قوم على كتب مني ويفصلاني

عنهم مسافة بين اليث والشاء

لو كان يفرقنا بعد الطلاب لما

كنا وكانوا سوى نجم وبوغاه

هم الرجال كما قالوا وليس لهم

من الرجولة الا فضل أسماء

ويلي على مصر قد أمست وليس لها

سوى اعتزاز منوط بالأذلاء

قد أكملوا النقص موفورا فلا عجب

ألا يضيقوا بتتقيص الأجلاء (٢٤)

ويستطرد العقاد في وصف سلبيات الشباب المصري ، وهو يضع نصب عينيه سوء المصير الذي ينتظر مصر من شباب هذه أخلاقه وتلك قيمه وسلوكه .

وليس في هذا الكلام تعال بقدر ما فيه من أسف وعطف عليهم ، والرومانتيكى عندما يتعالى على الناس ، لا يعنى أنه عدو لهم بوصفهم من الناس ، لأن شغله الشاغل هو العطف على مظلومهم والثورة من أجلهم ، ولكن العبقرية لا يلائمها أن تنغمس في سواد الناس (٢٥) .

وفي هذا المجال نرى العقاد يحارب وسائل الخداع والتمويه ، وأساليب المرائين والمنافقين :

سحقا لهاتيك الوجوه فأنها

كذابة لا تحسن التمويها

حسنت ولو نقلت صفات نفوسها

لرأيت أقبح ما رأيت وجوها (٢٦)

وفي موطن آخر :

ليس أضنى لفؤادى	من عجز تصابى
ودميم يتحالى	وعليم يتغابى
وجهول يملأ الأر	ض سؤالا وجوابا (٢٧)

(٢٤) ديوان العقاد ص ١٥٨ .

(٢٥) انظر الرومانتيكية د . محمد غنيمي هلال ص ٤٧ .

(٢٦) ديوان العقاد ص ٦٩ .

(٢٧) ديوان العقاد ص ١١٣ .

وله في هذا المجال كثير من القصائد والمقطوعات مثل : « صديق
غاش » (٢٨) ، « الشيء من غير معدنه » (٢٩) ، « ذات وجوه » (٣٠) ،
« سر في طريقك » (٣١) ، « زماننا » (٣٢) وغيرها .

وقد اضطره ذلك أن يقتلون — أحيانا مع المتلونين متى كان في ذلك
حكمة ، متبعا لطريقة زهير بن أبي سلمى في قوله :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويظأ بمنسهم (٣٣)
حيث يقول العقاد :

در مع الناس كيسا كغبي
هكذا الكيسون كانوا قديما
وتجاهل فليس من يجهل الجهل
ل حريبا بأن يسمى عليما
واذا المرء كان بالحمق يحظى
فمن الحمق أن تكون حكيما (٣٤)

كما استدعاه ذلك أن يلوم أحيانا أخرى ، ليقى نفسه لؤم الأعداء الذين
يسرهم أن يكون كريما اذ يقول تحت عنوان « اللؤم سلاح » .

يسر صديقي أن يراني مبـرءا
من اللؤم موسوما بكل مسـماح

(٢٨) ديوان العقاد ص ١١٢ .

(٢٩، ٣٢) ديوان العقاد ص ١١٣ .

(٣٠) خمسة دواوين للعقاد ص ٣١٢ .

(٣١) خمسة دواوين للعقاد ص ٣١٨ .

(٣٣) شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ١٠٣ .

(٣٤) ديوان العقاد ص ١٠٤ .

كما سر خصما أن يراك أمامه
 تنزله حريا بغير سلاح
 هو اللؤم سيف للئيم وجنة
 من الناس والدنيا مجال كفاح
 فواها لنفسي في المجال مجردا
 أضعت مجنى بينهم ورماحي (٣٥)
 ويقول في مقطوعته « بمن تثق » التي تدور معانيها في هذا الفلك :
 ثق بالرديلة تلقها
 في كل حين حاضره
 ان الفضيلة قلمها
 تلقاك الا عابره
 حتى الأفاضل عرضة
 لهوى الهنات النادرة
 ما كل يوم يرتجى
 عطف النفوس الطاهرة
 ومن النوادر أن ترى
 عند التعطف قدرة
 من لم يدر في دهره
 دارت عليه الدائرة (٣٦)
 والخيانة في رأى العقاد متأصلة في الجنس البشرى كله :
 قلت لعمرى : خاننى خالد !
 وخاننى عمرو فماذا أقول ؟

(٣٥) ديوان العقاد ص ٨١ .

(٣٦) خمسة دواوين للعقاد ص ٣٢١ .

أبلغتها زيدا فما زادني
 عن صاحبيه فاحتواني الدهول
 ناجيتني سرا وبى خيفة
 ممن أناجيه ففيه فضول
 ثق من خيانات بنى آدم
 اذن وقل أنتم ثقات عدول
 لا تشك هذا عند هذا ففى
 هذا وهذا عنصر لا يجول
 كل بنى الدنيا ومن بينهم
 أنت فروع جمعتها الأصول (٣٧)

ومن ثم يرى العقاد أن أقصر الطرق للسلامة من الناس هو
 الاستغناء عنهم لأن تبادل اللوم والعتاب بين الناس وليد افتقارهم
 لبعض :

أنا لا ألوم ولا ألام
 حسبي من الناس السلام
 ليس العتاب بمصلح
 خللا توارثه الأتنام
 أنا ان غنيت عن الأنا
 م فقد غنيت عن الملام
 وإذا افتقرت إليهم
 فاللوم من لغو الكلام (٣٨)

(٣٧) خمسة دواوين للعقاد ط الهيئة المصرية للكتاب ص ٣٢١

(٣٨) ديوان العقاد ص ١٢١

واذا تعود الناس منك خيرا فإياك أن تتخونك الظروف يوما ، فقد صار حقا لهم لو منتعته حسبوك ، أما اذا تعودوا منك شرا فأمهلتهم يوما فانهم يثنون عليك ويشكرونك :

من عود الناس خيرا طالبوه به
 كأنه الدين يلوى بالمعاذير
 ومن تعقبهم شرا فأمهلتهم
 يوما تقبل منهم أجر مشكور
 لا رأى للناس في نفع ولا ضرر
 وما لهم قط من حكم وتقدير (٣٩)

ويوازن العقاد بين عطائه القيمي والفكري الخالد ، وعطاء غيره المادي الفاني وكيف كوفيء عطاء الناس بالموازنة بعطائه في قوله :

أعطيتهم لؤلؤا حرا فحين رأوا
 صغيرة منه صاحوا : أي افلاس
 وجادهم بالحصى غري فحين رأوا
 خريزة غيه قالوا : أكرم الناس (٤٠)

ومثل هذا كثير من القصائد والمقطوعات ، مثل « الظن » (٤١) ، « سر في طريقك » (٤٢) ، « الذم الصامت » (٤٣) ، « طباع مكشوفة » (٤٤) وغيرها .

(٣٩) خمسة دواوين للعقاد ص ١٦٩ .

(٤١، ٤٠) خمسة دواوين للعقاد ص ١٦٩ .

(٤٢) السابق ص ٣١٨ .

(٤٣) السابق ص ٢٠٧ .

(٤٤) السابق ص ٢٠٦ .

والعقائد بغربته النفسية ، ونقده الاجتماعي لأبناء مجتمعه ،
لا يتوقع منه أن ينتظر شهرة في زمن أصبحت الشهرة والمشهورون فيه
مواطن اتهام ، وهو الزمن الذي عناه بقوله :

صعد اللئام الى ذراه فقهقروا
ان القروء لبالسلق أخير
وبقدر ما بذل امرؤ من قدره

يرقى فأكبر من تراه الأصغر (٤٥)

وهو في البيت الأول يرسم صورة اللئام عصره ، وهي صورة
كاريكاتورية ساخرة اذ رأهم قروءا يتسلقون نحو الذرى وهم يقهقهون ،
ولا شك في أنه تنلمذ في هذه الصورة أمثالها على ابن الرومي شاعر
الأثير .

وفي رأى العقاد أن الدهر الذي يحيف على عظمائه ، لا يستحق
منهم أكثر من أن ينتعلوه ! وأن الشهرة اذا غدت سلعة يحظى بها من
يئذل لها العرض والقدر والكرامة ، فتعسا للشهرة والمشهورين :

دع الشهرة العوراء تقتاد غافلا
على حكمها يجرى وان طاش أو ظلم
اذا الدهر لم يعرف اذى الحق حقه
فلادهر عندي موطىء النعل والقدم
اذا جاز بيع الذكر في شرع أمة
فلا كان من ذكر ولا كانت الأمم (٤٦)

أما نتائج هذه الغربة النفسية في حياة العقاد ، فقد تمثلت — بعد
أن ضاق بحياة المجتمع — في هجره الى الطبيعة الحانية ، حيث ارتقى

(٤٥) ديوان العقاد ص ١١٣ .

(٤٦) خمسة دواوين للعقاد ص ٣٧١ .

بين أحضانها ليخلر الى ذات نفسه فأخذ يضرب في صحراء أسوان
وجبالها ويخيب عن نفسه في فسيح خياله حيث الفضاء الطلق بينما كان
قلبه يختنق في حدود الموجودات في المادى وزحام الناس *

لذلك خلع على الطبيعة احساسه وفكره ، وناجاها واستلهمها ، لأنها
تمثل لديه ينبوع المشعر الحق ، ومن ثم صور مشاظرها المختلفة في قوة
وصدق ، بذوق فطرى سمح ، فتحدث عن الشمس والرياح والثمار ،
كما تحدث عن رقة الأنسام ، وأنعام الطيور ، وجمال الورد والزهور
بشقى ألوانها ، ومختلف أشكالها :

الشمس تضحك والآفاق صافية

جلواء والروض بالأثمار قينان (٤٧)

والنسيم خفوق في جوانبه

والطيور ترانيم رالحان

في كل روض قرى للزهر يعمرها

يا حبذا هي أبيات وسكان

الورد يحمر عجا في كمائه

والياسمين على الأغصان ميسان (٤٨)

والبنفسج أمساح ممسكة

كأنه راهب في الدير محزان

وحبذا زهر الليمون يسكرنا

منهن جام خلا من مثله الحان

والليل يحييه والأطيار هاجعة

بلابل وشحارير وكروان (٤٩)

(٤٧) فينان : مثير *

(٤٨) ميسان : نائم من الوسن *

(٤٩) ديوان العقاد ص ٤١ ، ٤٢ *

ويستطرد الى وصف الصبح والنهار ويتعاطف مع الطيور والنبات
والنيل ، ويغنى للطائر المصرى « الكروان » غناء خالداً ويوظف له
ديواناً كاملاً هو « هدية الكروان » .

والعقاد فى مباحج الطبيعة والافتتان بها مقطوعات ، وقصائد أكثر
من أن نحيط بها ونظرة الى عناوين بعضها يدلنا على باقىها مثل « وقفة
فى الصحراء » (٥٠) ، « الشتاء فى أسوان » (٥١) ، « البدر فى
الصحراء » (٥٢) ، « الطبيعة والحياة » (٥٣) ، « الى ربه الحب —
الزهرة » (٥٤) ، « على شاطئ البحر » (٥٥) « الربيع الحزين » (٥٩) ،
« زهر القرنفل » (٥٧) ، « النهر النائم » (٥٨) ، « الورد » (٥٩) ،
« ليلة على النيل » (٦٠) ، « زهریات » (٦١) ، « الليل والبحر » (٦٢)
وغیرها ...

(٥٠) ديوان العقاد ص ٦٠ .

(٥١) السابق ص ٧٠ .

(٥٢) السابق ص ٧٣ .

(٥٣) السابق ص ٧٤ .

(٥٤) السابق ص ٧٥ .

(٥٥) السابق ص ٧٧ .

(٥٦) السابق ص ٧٨ .

(٥٧) السابق ص ٩٥ .

(٥٨) السابق ص ١٠٧ .

(٥٩) السابق ص ١١٤ .

(٦٠) السابق ص ٢٢٦ .

(٦١) السابق ص ٢٩٥ .

(٦٢) السابق ص ٣٦ .

وإذا كانت العودة للطبيعة والتعاطف معها والهيام بها من سمات الرومانتيكيين عندما فشلوا في مواجهة الواقع فهربوا اليها وإلى الخمر وإلى النساء ، فالذى لاشك فيه أن الغربة النفسية التى كانت تعيش عواطف العقاد ، كانت أحد الأسباب فى هيامه بالطبيعة وتعاطفه مع غير الأحياء من الجمادات والحيوانات ومظاهر الكون والطبيعة .

أما النتيجة الثانية التى أفرزتها تلك الغربة النفسية فى شعر العقاد فتكمن فى احتفاله بالتاريخ واحتفائه بآثار مصر الخالدة وكأنه بعد أن ضاق صدره بمعاصريه ، لجأ إلى أجدادهم يستلهم العظمة ويستمنحهم الخلود .

وقد حذق أجدادنا فى وادى النيل صناعة التماثيل ، رفعوها ضخمة مكيئة يرى فى ضخامتها معنى الخلود ، وغشوا باطنها بالظلام الدامس فعكسوا على جدرانها ظلام الغيب المجهول ، وأحاطوها بالرموز والأسرار ، وها هو يقول فى « هيكلى ادفو » :

دار البطالسة الكرام جلالات
زالوا وهذا مجدهم مازالا
هاتى امنحيننا من خلودك نفحة
فنقول فيك من الخلود مقالا
واسستفتحى باب الرموز تمسدا
بالسحر لفظا صادقا وخيالا
انى وقفت لديك أرفع أخصى
حذرا وأخفض ناظري اجلالا
فحنيت رأسا فى رصيدك ما انحنى
من قبل الا لاله تعالى

وذكرت قوما فيك لم يتهينوا

الا عروشا ضخمة وظلالا (٦٣)

فهو يستمنح المعبد الخلود ، بعد أن دخله خاشعا يطا الأرض بخطو
لامس وحديث هامس ، وهناك طاب له الخضوع فحنى رأسه اجلالا
واعظاما ، وهو رأس لم ينحن الا الله تعالى وكل ذلك صادق حين يصدر
من العقاد لأن هذه خلأته وذلك تعبيره ، وتكاد شخصيته تطالعنا خلف
كل بيت .

وفي هذا التيار نجد كثيرا من القصائد والمقطوعات التي يحتفى
فيها بأثار مصر وتاريخها مثل :

« هيكل الكرنك » (٦٤) ، « على مقابر الملوك المفراعنة » (٦٥) ،
« تمثال رمسيس » (٦٦) « يوم الجهاد » (٦٧) « عمود فرعون » (٦٨)
« مدينة الشمس » (٦٩) ، « في جانب الهرم » (٧٠) . . . وغيرها (٧١) .

ومن نتائج غربة العقاد النفسية في شعره ، عكوفه على ذات نفسه
بعد أن شقى بحياة المجتمع وخاصة بعد الحرب الأولى التي زلزلت

(٦٣) ديوان العقاد ص ١٤٣ .

(٦٤) ديوان العقاد ص ٢٧٠ .

(٦٥) السابق ص ٣٤١ .

(٦٦) السابق ص ١٩٥ .

(٦٨) السابق ص ٣٧ .

(٦٩) السابق ص ٣٣٨ .

(٦٧) خمسة دواوين للعقاد ص ٤٢٠ .

(٧٠) السابق ص ٣١٢ .

(٧١) انظر خمسة دواوين للعقاد ص ٢٣٣ ، ص ٤٦٥ .

القيم في النفوس (٧٢) ، حيث أصيب بمحنة نفسية (٧٣) أثمرت مطولته الكبرى « ترجمة شيطان » التي تمثل لونا من الترفع على الناس بما تضمنته من عمق الفكر وصلابة المادة اللغوية وعنف المصياغة الشعرية ، وبما تمثله من التمرد الصارخ على نظم الحكم الشاملة والمطلقة .

ونعدها من رمزيات العقاد التي يرمز بعنوانها الى الترجمة لنفسه باعتباره واحدا من النابغين والعظماء وكيف يعامل في مجتمع لا يقدر مواهبه ، ولا يتجاوب مع قيمه الفكرية العاقية ، ولعل في تنكير كلمة « شيطان » ، في العنوان ما يدل على أنه واحد من جماعة أهدرت حقوقهم وضاعت مشاعرهم وسط أكداس المظالم .

لذلك جاءت القصيدة ، بصورة خير تصوير ، حالة الفنان الحر في وطن تكاثرت فيه القيود وتعاقبت عليه ألوان الاستبداد .

وفي القصيدة التي لا نستطيع تحليلها لطولها وعمقها — نرى خيال العقاد يخاق هذا الشيطان في قاع الجحيم في وقت اشتد ظلامه ، ويصعد معه الى السماء ، ويهبط الى الجحيم مرة أخرى ، ويأذن له أن يمارس مهمته في اغواء الناس ما استطاع .

قال كوني محنة للأبرياء

فأطاعت ! يا لها من فاجرة

ولو استطاعت خلافا للقضاء

لاستحقت منه لعن الآخرة (٧٤)

(٧٢) مجمع الأحياء للعقاد مكتبة غريب ص ١٦ .

(٧٣) انظر المدخل الى شعر العقاد ط (١٩٧٤) ص ٢٨٦ .

(٧٤) ديوان العقاد ص ٢٤١ .

نعم ! للأبرياء فهم الذين ينجح بينهم الاضلال ويروج الافساد ،
أما الأشرار فقد غنوا عن غواياتك بطبيعتهم الملتوية ، والشاعر يرسم هنا
صورة لبطش الحكام بمن يوالونهم ممن يوادون احراجهم من رجالهم ،
فيأمر الحاكم أحدهم بأمر يكون في تنفيذه ثورة الناس عليه ، وفي تعطيله
تمرد على الحاكم وعدم تنفيذه أمره مما يستوجب عقابه .

وهن ثم كان شديدا أمام الشيطان ، أيعصى الله فيكسب رضا
الناس أم يطيع الله ويخسر الناس ، وفي كلتا الحالتين هو الخاسر
الضال فكان أن أطاع ، وبدأ رحلته ببلاد الزنج فاحتقرهم وترفع بنفسه
عن أغوائهم ، وطوف بالأرض حتى بحر الروم أو بحر العجم وهناك
استطاع اضلال الناس بأن أخرج لهم شيئا سماه « الحق » وبسبب
هذا الحق تقاتل الناس ، وفسدت الحياة فسادا مريعا ، حيث برر به كل
انسان سلوكه ، فالضعيف يبرر ضعفه بأنه من أجل الحق ، والقوى
يبرر اعتدائه بأنه من أجل الحق .. وهكذا وبعد أن أناب الشيطان عنه
هذا « الحق » في اغواء الناس ، خلد هو الى السكون والراحة :

ورمى أول فسخ فأصابا
ودعاه الحق واستلقى فنام
وأناب الحق عنه فاستجابا
فاذا الحق لجاج واختصام

نلاحظ هنا أن الشيطان يوظف الحق ويستخدمه ، وهي رمزية
تعنى الكثير في فكر العقاد الذي لاشك في أنه كامنا وراء الشيطان في
كل تصرف .

وهكذا يظل هذا التجديف الفكرى الهائج والقانط من الحياة
والأحياء الى نهاية القصيدة التي تقع في مائتين وعشرين بيتا .

وبعد ...

فإن عكوف العقاد على ذات نفسه ، ومحاولته نحت هذه الصورة
وأمثالها — وهي صور تنم عن عمق الفكر والتمكن من اللغة وطرائق
استعمالاتها — تعد احدى النتائج التي أثمرتها الغربة النفسية في شعره،
فابتعد عن الناس بقدر ما تحصن داخل أسوار نفسه متخذاً من إمكاناته
الفكرية الهائلة وسائل بديلة يعايشها بدلاً من الحياة والأحياء .

قصيدة «السيفينة والطوفان»

شعر الدكتور صابر عبد الدايم

تحليل ونقد الدكتور / محمد على داود

أستاذ الأدب والنقد المساعد

في كلية اللغة العربية بدمنهور

القصيدة :

قال تعالى : « حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة
وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان » •
واصل السـير يا سفينة فوح
ربانك الذى غاب حى
مزقى ظلمة الخطوب وصدى
زحفها واحمى عزك السرمدي
وأبىدى الطوفان فى عنفوان
يحسر الموج عن حماك الفتى
لم يزل شاطئ الأمان بعيدا
دون مرماك كل عمر زكى !!
انها رحلة الكرامة فامضى
واصل رعى اللج بالصمود القوى
واعصرى العزم ثورة واحتسبها
ثم شقى طريقك الأبدى

يددى اليأس من خطاك وسيرى
 نحبو فجر الكرامة العبقري
 ضمدى الجرح ليس يعصم الا
 وحيدة الصف للثرى اليعربى
 خفت غدر الطوفان أن يغرق الأ
 بناء فى ليل فرقة عصبي
 جبل الجودى اعتلاه ضباب
 وجليد أخفاه عن ناظرى
 وأرى فى الأفاق أشباح يأس
 وشراع الرجاء عنها قصى
 وبشير السلام لم يأت بالزي
 تون بل جاء بالخلاف العصى
 فى يديه حقيبة نام فيها
 سبر مأساتنا البعيد الخفى
 دار فى كل محفل ينشر الآ
 راء مثل المثل المسرحى
 جاء فى جولة وعاد لأخرى
 ثم ذابت وما قضى أى شى
 وكان السلام ظل كلام
 يتجدداه ضوء خطو عفى
 وكان السلام عذراء تمشى
 فى طريق الأشواك بين العصى
 صار العوبة تحركها الأظما
 ع فى مسرح الأسى العالمى
 باسمه صار موطنى الحر فى
 بئر الصراع المدمر الدموى

فاذا الويل فيه ينهش كالذئب
 الذى راح ينهش الادمى
 فى ثرى « هورشيم » صاحبت ألوف
 من قضى عرضه فهو حى
 ودماء الشهيد فى كل شبر
 أنبتت دوحه الغد الملقى
 لم تزل تحرق المأس رياضا
 شوهتها حروب عصر غبى
 عشب الذر فى بطون العذارى
 فاذا بالجنين غير سوى
 أى ذنب جناه طفل برىء
 فىرى بيننا بوجه شقى
 ربما عانق الوجود كسيحا
 أو ضريرا أو ذاهلا أو عيبى
 أو بأنفسين أو بخمس أياد
 أو برأسين أو بلا أى شى
 انها وصمة العلوم ووجه الـ
 عقل فى درب فكره التترى
 سلم فى الحياة غير شريف
 شاده من دم الضعاف القوى

هذه الروم فى السباق مع الـ
 فارس وكل مضادع شعابى
 ان يقدم جنى ففقيه سموم
 أو يناصر فنصره لولبى

كم على العرب صب نار هلاك
 ومحا نشوة ابتهاج هنى
 كم ببيوت وزع الموت حتى
 شاهد الطفل حنقه وهو حى
 وفلسطين فى يديه تلوى
 فى قيود من الدمار العتى
 انها فى سوق السياسة بيعت
 ثم منوها بانعتاق بهى
 فاذا جنلة الأمانى لهيب
 واذا الضوء اللدجى محنى
 واذا النصارى كالأمانى سراب
 واذا العز فى الثرى منسى
 واذا غلبة الضياع تهز الـ
 فلك هذا مباغتيا هتلى

فتهادى الشرع والفلك غاصت
 فى محيط الأسى العميق الأتى

واذا باللاء يرفعه الربى
 بأن فى همة الجسور الكمى
 بدأ السير والسفينة أشـ
 لاء بلا دفعة ومجرى سوى
 أصبح الفلك والشرع لديه

أمل أخضر وصبح ندى

فانهضى يا سفينتى لا تقولى
 مات نوح وجف عطرى الشذى

كل من فيك أنضجته المآسى
 فارتدى ثوب ثأره اليعربى
 وتحدى الرياح فى عنفوان
 وصمود يفل عزم الدعى
 عبر موج الصعاب انا سبجنا
 نبتغى شاطئ الأمان الأبى
 واتخذنا الصمود مجدا
 فنا المساحق مد الهزيمة الهمجى
 ونسجنا الآمال أشعة حا
 مت بأنق المس تقيل الشاعرى
 فعدا نلتقى على قبة المع
 راج نجنى انتصارنا الأبدى
 ونقيم الصلاة فى المسجد الـ
 أقصى سراج الهدى ومسرى النبى
 وهنا يا سفينتى أحضن الآ
 مال اذ هبت بالحياة على
 وأنادى هواءك ملء فؤادى
 يا بلادى وكل شئ لى
 قد عشقت الهوى وأنت هوايا
 فاسلمى وانعمى بنصر هنى

تحليل ونقد

السفينة والطوفان

الدكتور صابر عبد الدايم شاعر ذو شخصية نهلت منذ نشأتها من
 معين الثقافة الإسلامية : القرآن الكريم الذى حفظه فى كتاب القرية
 والسنة النبوية الشريفة .

كما استقرأ التاريخ العربى والاسلامى وضم الى ذلك المذبح الشرى
ما قرأ من رياض القراث العربى يقرؤه ويستجليه فكرا وفنا وتذوقا
ويستظهر منه الذى يروق ، كما يمكننا القول انه ضم الى هذا التكوين
المنهجية والعمق ، يتضح ذلك اذا ما وقفنا على نشأته فى أحضان
الأزهر الشريف الذى فيه بدأ يتألق يوم أن كان يقول الشعر طالبا فى
معهد الزقازيق الدينى ينال اعجاب مشايخه وتشجيعهم وحبهم ، وكم
نال الجائزة الأولى فى المسابقات الشعرية آنئذ .

ولقد توج هذه المسيرة التى ظلت تحيا معه نامية فى كل اتجاه بما
يمدها من مصادره توجهها بقدراته الفياضة فى هذا المجال بمسيرته
الأكاديمية التى هيات له أن يعيش مع الشعراء والأدباء فى جولائه
البحثية القيمة وحبه لكل ما يتصل بهذه النوحة الباسقة التى تجمع
فرسان الكلمة من الأدباء والشعراء والنقاد ، فكم من مهرجانات للشعر
أقامها فى جامعة الأزهر بالزقازيق كما شارك فى الكثير من المهرجانات
الشعرية المصرية .

كما قرأنا فى ديوان له قصائد تنادى بوحدة الصف العربى تحت
لواء الاسلام ، ويميز فى بعضها دور المرأة منذ ظهور الاسلام ومبلغ
ما قدمته لقومها وعروبقتها واسلامها من هذه القصائد قصيدة «أين الطريق
اليك» التى ألقاها فى مهرجان الشعر الأول بكلية اللغة العربية بالزقازيق
عام ١٩٨١/١٩٨٢م .

واذكر من هذه القصائد واحدة بعنوان « أسماء الثورة والعطاء
والتحدى » فلا عجب اذا عذما نطالع له قصيدته التى عذون لها
السفينة والطوفان » ولا عجب أيضا عندما نقف على استلهامه الروح
الاسلامية فى القصيدة .

ولعله أراد أن يؤكد لنا هذه الانتمائية فكان البدء ببعض من الآية
الثانية والعشرين من سورة يونس : « ... حتى اذا كنتم فى الفلك

وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج
من كل مكان .. » والتقى نشير الى روح المعنى الذى دارت حوله هذه
القصيدة التى مطلعها :

واصلى السير يا سفينة نوح ان ربانك الذى غاب حى
وبذور القصيدة تتركز فى نظرة الشاعر العميقة الواعية الى هذه
المرحلة الحرجة من تاريخ العرب وموقفهم من عدوهم وما هم فيه من
تشتت وتمزق وما تعكسه المواقف المخزية مع كل فجر جديد — ولا تزال
— من انتكاسات واتساع لهوة الخلاف فى كثير من الأمور الممزقة
لوحدة الصف العربى مما يذهب ريح العرب ويؤدى الى استتعار
الخلافات التى تؤدى فى النهاية الى التردى فى ليل الفرقة العصبى
فتتمزق الأرض والكرامة بين مخالب الضياع وتخفت البقية من أشعة
الأمل بين أشباح اليأس ولا يكون بعد غير اليأس الذى يقطع كل خيوط
الرجاء ، وهذه الحالة لا مخلص من شرها ولا منقذ من ضياعها الا الله
بحكمته وقدرته .

فالشاعر يرى أن العرب أصبحوا فى حالة من اليأس تشبه حالة
اليأس التى كان عليها نوح عليه السلام حين دعا قومه بكل المسبل
والمرسائل ليلا ونهارا فلم يستجيبوا ، ولم يكن الا ما أرادله الله حيث أمره
أن يصنع السفينة برعاية الله ويحمل فيها من كل زوجين اثنين وجاء
الطوفان وكانت القصة المذكورة فى كتاب الله عز وجل .

ان هذه المرحلة من التمزق تجاه القضية العربية والاسلامية قد سبى
الشاعر أغوارها وعاشها فكرا ممزوجا بروحه التى تخفق بحب
العروبة والاسلام حتى صار يرى أن لا منقذ من هذا الضياع سوى
سفينة كسفينة نوح عليه السلام . تحمل ما هو صالح من الحياة
والأحياء وتترك ما بعد ذلك للطوفان ليتبخر فى أوردة الضياع .

— ان هذه السفينة رمز الانتصار المأمول الذى تصنعه يد القدرة

الالهية ، ولم لا تسير السفينة مادام المبدأ باقيا ، فان نوح عليه السلام قد مضى وأساس دعوته باق ممثلا في توحيد الله عز وجل ، وهو بذلك حتى في شخص رسالة التوحيد، لقد رأى الشاعر أن العرب أصبحوا في حاجة شديدة الى مثل السفينة المذكورة ليذهب الزبد جفاء ويمكث في الحياة ما ينفع الناس دينيا ودنيا ، ولم لا والناظر الى واقع العرب يرى أنه ما زينت أبصار من ضاروا وما تهزقت وحدة العرب الا من انصرفهم عن العمل بشريعة الاسلام فانصرف الله عنهم وألقى في قلوبهم الوهن ، وكيف لا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنتي » .

ومن هنا سلكوا مسالك الهلاك ، فقد أخذ اللجاج بهؤلاء المتمزقين حتى أقصاهم عن الحق فهجروا من مأمنهم الى مكان سحيق ، فلا ريب أن نسمع الصوت عاليا من الشعاع يقول :

واصل السير يا سفينة نوح ان ربانك الذي غاب حتى

وفي استلھام الشاعر لهذه الصورة من قصة نوح رمز للقوة الالهية المخالصة من الحالة التي تردى اليها العرب من تفرق وتمزق تجاه عدوهم وما يصنعونه كل يوم من افتراء للخلافات وفي ضياع عنصر الأخلاص تقوسع هوة الخلافات حتى باتوا غشاء كغشاء المسيل أمام عدو شرس توازره قوى المضلال والفساد والبغى من كل جانب .

— واذا كانت سفينة نوح عليه السلام سببا آخر لنجاة المؤمنين وما معهم مما أمر الله نوحا بحمله معه ورعايته فلعل ما يعنيه بها في قصيدته السبب الأسمى الذي من أجله نجى الله هؤلاء ، انه السير على الطريق المستقيم فكرا وسلوكا والتمسك بالشريعة الغراء : الكتاب والسنة قولاً وعملاً ، وبذلك تتحقق لهم الوحدة والنصر فالله عز وجل يقول : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ويقول في محكم آياته « ولينصرن الله من ينصره » .

— انها سفينة يرجوها الشاعر لتسير ممزقة ظلمة الخطوب ولتقصد
زحف الطغيان وتحمل المعز السرمدي وتبيد الظلم واليأس عن الحمى
العربي يقول :

واصلى المسير يا سفينة نوح
ان ربانك الذى غاب حى
مزق ظلمة الخطوب وصدى
زحفها وأحمى عزك السرمدي
وأبيدى الطوفان فى عنفوان
يحسر الموح عن حماك الفتى
وبالنظرة النافذة والبصر الثاقب يؤكد فى عزم واصرار متطلبات
المسيرة من صبر وحزيمة وصمود فشاطيء الأمان ما زال بعيدا والوصول
إليه يتطلب تضحية بالدماء الزكية ، ولم لا نضحى فى سبيل رحالة
الكرامة متسلحين بالصمود والعزم موقنين أن فى ذلك العزة كل العزة
والكرامة كل الكرامة • يقول :

لم يزل شاطئ الأمان بعيدا
دون مرساك كل عمر زكى
انها رحلة الكرامة فامضى
واصرعى اللج بالصمود القوى
واعصرى العزم ثورة واحتسيبها
ثم شقى طريقك الأبدى

ان هذه المسيرة المباركة التى يرجوها الشاعر مستبدا اليأس من خطى
العرب ومستسير بهم نحو فجر الكرامة العبقري وستضمد الجراح ،
ولا ريب أن البعث لهذه المسيرة يتمثل فى اتحاد الضمير العربى واعتصام
العرب جميعا بحبل الله ، فالقوة والعزة كل العزة فى الاتحاد والتمسك
بحبل الله المتين ، ومن هذا المنطلق يهيب الشاعر بالسفينة قائلا :

بددى اليأس من خطاك وسيرى
 نحو فجر الكرامة العبقري
 ضمدى الجرح ليس يعصم الا
 وحيدة الصف للشري العبقري

وبهذه الأساليب التي تحمل رجاء الشاعر في ثوبه المتألق يقدم صورة لأمنيته التواقية الى سير السفينة التي هي رمز للمطلب السالف، يلجأ اليها في ثورة اليأس يحدثها على اسراع الخطى نحو تجسيد آماله القومية . ثم يخيم شبح اليأس أمام ناظريه فيستنطق السفينة في هذا الحوار تقول على لسانه :

خفت غدر الطوفان أن يفرق الـ
 أبناء في ليل فرقة عصبي
 جبل الجردى اعتلاه ضباب
 وجليد أخفاه عن ناظري

وبعد أن يستنطق الشاعر السفينة لتعكس فكره وتظهر رأيه الذي يؤكد في هذه المحاورات أن العامل الأول في ضعف العرب هو تمزقهم يتوجه بفكر مركز حول مرحلة من مراحل التاريخ المعاصر للأمة العربية مسجلا تأملاته حول هذه المرحلة صابا جام غضبه على بعض من كان لهم أثر بارز في هذه المسيرة ، والتي تلت حرب العرب مع اسرائيل ١٩٧٣ من أحداث كان على اثرها اتفاقية بين الجانب المصري والجانب الاسرائيلي، والشاعر في هذه الفكرة يقف ازاء شخصية معينة يعرض ذلك في صور متلاحقة من السخرية التي تتقاطر من خلال التصوير والتعبير موضحا عدم الجدوى مما كان محملا اياه كل ما يهب في الجو العربي من أعاصير التمزق يقول :

وبشير السلام لم يأت بالزيقو
 ن بل جاء بالخلاف العصي

في يديه حقيبة نام فيها
 سر مأساة البعيد الخفى
 دار في كل محفل ينشر الآرا
 مثل الممثل المسحوق
 جاء في جولة وعاد لأخرى
 ثم ذابت وما قضى أى شى
 وكان السلام ظل كلام
 يتحداه ضوء خطو عتى
 وكان السلام عذراء تمشى
 في طريق الأشواك بين المعصى

ان ما أتى به المتحدث عنه — في نظر الشاعر — جعله في موطن
 السخرية ، كما صار ألعوبة في يد الأطماع يستهزأ بها ، فقد تردى موطن
 الشاعر — بما فعله بشير السلام — في ليل فرقة عصبى ، يقول :
 صار ألعوبة تحركها الأطماع في مسرح الأسمى العالمى
 باسمه صار موطنى الحرفى بئر الصراع المدمر الدموى
 ويرى الشاعر أن بشير السلام صنع بفعله الهلاك الذى راح
 ينفش الناس من كل جانب ويمزق صرح حياتهم ، يقول :
 فاذا الويل ينفش كالذئب

الذى راح ينفش الأدمى

وبعد هذا يخلق الشاعر بفكره منتقلا من الجو الوطنى الى الأجواء
 الانسانية ، انها نقلة من الخاص الى العام ، من الحديث عن المأساة
 التى ألمت بالوطن الى الحديث عن المأساة التى ألمت بهيوشيميا في
 الحرب العالمية الثانية وما خلفت من آثار أتت على الكثير من سكانها
 وامتدت حتى لازالت تلم بالأحياء بما فيها ، ومن فيها ما بين حريق يقضى
 على رياض الحياة وآخر يشوه وجه الحياة يعشش في بطون العذارى ،

يلاحق الأجنحة في البطون حتى صرنا نرى أنماطا من التشويهاات
المتلاحقة

يقول الشاعر :

في نرى هور شيم صاحت الوف
من قضى عرضه فهو حي
ودماء المشهيد في كل شبر
أنبتت دوحه الفدا الملقى
لم تزل تحرق الماسى رياضا
شوهتها حروب عصر غبي
عشعش الذر في بطون العذارى
فاذا بالجنين غير سوى
أى ذنب جناه طفل برىء
فيرى بيننا بوجه شقى
أو بأنفيسن أو بخمس أياد
أو برأسين أو بلا أى شى

ان ما حدث في هيروشيما يمثل وجه الحضارة المظلم ووصمة
العلم وانحراف الفكر الى الوجه القتري ، وهذا سلم غير شريف بنه
الأقوياء من دماء الضعفاء ، يقرر هذا فيقول :

العقل في درب فكره القتري انها وصمة العلوم ووجه
سلم في الحياة غير شريف شاده من دم الضعاف القوي

ثم يستعرض الشاعر التاريخ ليذكر بطبيعة العدو على امتداد
الأزمان مذكرا بما شهدته التاريخ مما كان من خداع الروم والفرس
للرب ، هذا الخداع الذى يقدمه العدو فى ألوان براقة ظاهرها فى
بعضه النفع بينما يخفى تحته السم الزعاف ، كما يشير الشاعر الى

بعض الألييب العدو وأحياناً يناصر فريسته على غيره ليتولى هو
ازدرادها وحده ، يقول :

هذه الروم في السباق مع
الفرس وكل مخادع عبقرى
ان يقدم جنى ففيه سموم
أو يناصر فنصره لولبى

وهذه بعض صفحات التاريخ التى تطالعنا ببعض مما صب على
العرب من نيران الهلاك وما وقع عليهم من اعتداءات ، وصفحات التاريخ
تفيض بما يؤكد لكل من ينفق أدنى تأمل أن قول الله الكريم « ولا تؤمنوا
الا لمن تبع دينكم » حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،
وكان ينبغى أن يفهم هؤلاء هذه الحقيقة وأن يتنبهوا للألييب الأعداء
وخداعهم ، ومن يتصفح تاريخ الحروب بين العرب وأعدائهم يقرأ فى
كل حرب من هذه الحروب شاهداً على تأصل الغدر فى أغوار الأعداء ،
يقول :

كم على العرب صب نار هلاك
ومحاشرة ابتهاج هنى

ولا يزال العدو يذيق العرب والمسلمين الموت الزؤام فى كل مكان
فى العالم ، ألم يكن هو الذى دس سموم الفرقة والخلاف بين العرب
من قديم ؟ ألم يشعل نيران الفتنة فى كثير من بلدان العرب والمسلمين
كما هو الحال فى بيروت ؟ ألم يقتحم كل الحرمات ؟ وها هى ذى غاراته
ونيرانه التى يقضى فيها على كل شئ حتى شاهد الطفل مصرعه وهو حى .

كم بيروت وزع الموت حتى

شاهد الطفل حتفه وهو حى

وها هى ذى فلسطين أكبر شاهد على وحشية العدو وجبنه وأوغدره
فقد ازدردتها منذ قرابة نصف قرن فاغتصب أرضها • وشرد أهلها وحطم

— ولا زال يحطم — مقدساتها وأذاق الكثير من أهلها التشريد والموت
والذل والهوان بسياسة غدرة وخيافته وطغيانه حتى راحت فلسطين
تلاوى في يديه •

يقول :

وفلسطين في يديه تلاوى
في قيود من الدمار العتي
انها في سوق السياسة بيعت
ثم منوها بانعتاق بهى

وكم من أمان راودت أهلها والعرب ثم وأدتها الأغيب الغدر
والخيانة حتى غدت الأمانى لهيبا كما غدا النصر سرايا •
فاذا جنة الأمانى لهيب

واذا العز في الشرى منسى

ومرة أخرى يعود الشاعر الى الحديث عن أثر هذه المسيرة على
السفينة التى يعنى بها الشاعر — كما يبدو لى — رمز الصمود والتجمع
والقوة التى تعمل للتخلص من مخالب الضياع الذى ينهش فلسطين
والفلسطينيين وهذا فى حد ذاته ترد للعرب أجمعين ، هذا الضياع
نيران تهب على السفينة فتتهاوى من جديد وتغوص فى محيط الأسى ،
نسمعه يقول :

واذا غلبة الضياع تهز
الفاك هذا مباغتا هتلى
فتهاوى الشراع والفاك غاصت
فى محيط الأسى العميق الأتى

وينتقل الشاعر بعد ذلك محدثا عن فترة اليقظة التى لأحت فى

الأفق أثر ما أحاط بفلسطين والقدس من سوء فوق ما كانت عليه في السابق حيث استباح اليهود قدسياتها •

هذه اليقظة التي بدت واضحة في الأجواء العربية مجسدة عزما وتصميما وتضحية بين الفلسطينيين ترى واضحة في أعينهم ونفيس بها قلوبهم ، كما يقف العرب معبرين عن اللحمة القوية في هذه المساندة ما بين مساندة بالكلمة أو بسواها •

وليس بعيد أن يكون هذا الحديث عما حدث من ربانها ، فقد رفع اللواء في همة الجسور وشجاعة الكمي ، يبدأ السير غير أن الأمور لا تستقيم والسفينة أشلاء ، ولعله يرمز بذلك إلى افتقاد العرب للوحدة الصادرة من القلوب وحدة الضمير ، فالكلام كثير والشعارات أكثر والروح في ذهول وغيبة فكيف المسيرة والأجزاء في تبعثر •••

ولعل لا أكون بعيدا عن الصواب إذا قلت ان المقطع الرابع الذي يقول فيه الشاعر :

واذا باللواء يرفعه الربان
في همة الجسور الكمي

معبرا فيه الشاعر عن ارتفاع اللواء يعني به القائد الفلسطيني الذي بدأ يتحدى كل الصعاب قوهب نفسه فدية لأرضه وراح يرفع اللواء وبدأ المسيرة في وقت ضاع فيه التئام شمل الجميع تحت لوائه حيث اختلفت مرئيات بعضهم عن رؤيته فتفرقوا أشلاء ، غير أن عزيمته لم تكن بل ظل يقود السفينة غير آبه بما يعوق المسيرة من رياح قاسية وأمواج عاتية حتى أخذ الجمع يتسرب تحت لوائه وينخرط تحت طاعته حتى سرت الحياة في خلأيا أهلهم من جديد وراحوا يرتقبون الصبح الندي •

وإذا بالهواء يرفعه الزبان
 في همة الجسور الكهى
 بدأ السير والسفينة أشلاء
 بلا دفعة ومجرى سوى
 أصلح الفلك والشرع لديه
 أمل أخضر وصبح ندى

— ويتوجه الشاعر داعياً العرب إلى النهوض والصمود والأمل
 يحدوه ، أنه يدعوهم رغم كل الصعاب ، فلقد اقتضح الأمر جاليا وجنى
 الجميع ثمرات التجارب وقرأوا ما فى الفرقة من ضياع لهم ، وبات
 واضحا أنه لا سبيل سوى الاتحاد وأن يلبس الجميع ثوب القار اليعربى
 يتحدون كل العقبات فى عزم وصمود يبتغون شاطئ العزة يتخذون من
 الصمود مجدافهم ومن الآمال شرعتهم *

— وتترأى للشاعر الآمال الندية دانية من الثورة والثوار حتى
 راح يعد آماله على اللقاء عند قبة المعراج يفترون التهاني بهذى الجنى
 العظام مقيمى الصلاة فى المسجد الأقصى المبارك ، يقول :

فانهضى يا سفينتى لا تقولى
 مات نوح وجف عطرى الشذى
 كل من فيك أنضجته المآسى
 فارتدى ثوب ثأره اليعربى
 وقصدى المرياح فى عنفوان
 وصمود يفل عزم الدعوى
 عبر موج الصعاب انا سبحنا
 نبتغى شاطئ الأمان الأبقى
 واتخذنا الصمود مجدافنا
 الساحق من الهزيمة الهمجى

ونسجنا الآمال أشربة حامت
 بأفق المستقبل الشاعري
 فغدا نلتقى على قبة
 المعراج نجني انتصارنا الأبدى
 ونقيم الصلاة في المسجد الأقصى
 سراج المهدي ومري النبي

— ويتراءى الأمل الذاتي للشاعر عندما ترفرف رايات النصر
 وتتحقق اللقيا فيعانق هذه البلاد التي فاض فؤاده بهواها وعشقتها حتى
 صارت هواء داعيا لها باستمرار الحياة في ظلال السلام والنعمة والنصر.
 يقول معبرا عن ذلك :

وأنادي

هواك ملء قـؤـادى
 يابلادى .. وكل شيء .. لـدى
 قد عشقت الهوى وأنت هوايا
 فاسلمى وانعمى • بنصر هنى

★ ★ ★

العنوان « السفينة والطوفان »

استطاع الشاعر باختياره هذا العنوان أن ينسج حوله أفكاره
 التي أكد بعضها بالتقاريف في حوار جيد ، سولقد وظف السفينة قروظيفا
 بارعا ومساعدته على ذلك اندياح آفاق السفينة مما جعله يحملها تيارات
 فكرية مجسدة ما في أعماق الشاعر وموجهة نحو هدف واحد ، لقد راح
 يعنى بالسفينة رمز التجمع الصالح والتدخل الإلهي تارة وقارة أخرى
 يعنى بها الالتفاف حول الشريعة الإسلامية التي فيها المنقذ من هذا
 التمزق ، وثالثة يعنى بها الصمود والخلاص •

وبهذا التطويع استطاع أن يقيم حولها أنماطا من الفكر المناسب الذي أشرى التجربة وفتح له باب الحرية ليحاورها في كل اتجاه وهو بعيد عن حرج المباشرة الذي يؤدي الى الابتعاد عن تفريغ الشحنة والاسترواح الى الحد الذي يريحه •

بين طوفانين :

لعل لا أكون بعيدا عن الصواب اذا قلت : ان الشاعر يقصد في قصيدته بكلمة الطوفان التيارات المعيقة لجمع الشمل العربي المبددة للاقتضارات والعاملة على كل ما من شأنه بث الفرقة والعداء بين العرب ، فهو تيار هدم بينما هو في سفينة نوح مسخر من الله للجانبين ظهرت فيهما حكمة الله وقدرته : مسخر لدهل السفينة بمن فيها وما فيها لفتجلى قدرة الله وحكمته وارادته في انجاء هؤلاء ممن آمن به من ناحية وما تصلح به حياة هؤلاء من مخاوقات أخرى ومن ناحية أخرى مسخر لاغراق الكفار ممن لم يستجيبوا لنداء نوح ودعوته عليه السلام ، فلا تنافر بين السفينة والطوفان ففيهما تتجسد القدرة الالهية والارادة في حسن ووضوح •

لكن السفينة في القصيدة بكل ما تحمل من رمزية تعمل لآبادة الطوفان الغادر الذي هو من كيد الشيطان وأوليائه كما تهدف الى القضاء على البغاء ... الخ • ورحلتها رحلة الكرامة ، تقرأ للشاعر هذه الجزئيات الحوارية • وأبيدى الطوفان في عنفوان ... ، انها رحلة الكرامة فامضى ... ، كما تظهر رسالة السفينة في القصيدة فهي تمزق ظلمة الخطوب ، وتصد الزحف وتحمي العز السرمدى ، وتبديد اليأس ، وتضمم الجراح الى غير ذلك مما هو مذكور في القصيدة •

الفكر في القصيدة :

دارت القصيدة حول فكرة عامة شغلت — ولا زالت تشغل — العرب والمسلمين ، انها حالة العرب تجاه عدوهم الذي اغتصب أرضهم واستحل مقدساتهم أو القضية العربية بشكل عام والفلسطينيون بشكل خاص كما تضم ما يتصل بذلك من حروب العرب مع المعتصب وما ترتب على حرب ١٩٧٣م من اتفاقية « كامب ديفيد » وما تبع ذلك من مواقف عربية بعيدة عن الاعتصام بحبل الله المتين ومن خلال هذه الفكرة الشاملة الغنية الفسيحة استطاع الشاعر أن يستوحى صفحات التاريخ وشواهد الماثلة التي أخرجها الشاعر من الجو الخاص الى العام بما حملها من فكر استنطقه في النهاية بالحكمة التي نطق بها القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرنا والماثلة في القول الكريم « ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم » (١) وبهذا أصبحت القصيدة ترف بالشعر القومي كما استلزمت الفكرة الكبرى ما يسم البعض من الأبيات بالنظرة الانسانية .

ولقد جمعت القصيدة من الجزئيات التي استلزمته الفكرة الجامعة في نظر الشاعر وهي ما يلي :

* ١ — دعوة السفينة لتواصل السير من جديد في حوار شيق بين الشاعر والسفينة • استنطقها بما دار في الأجواء العربية من معوقات ، وانقسمت الفكرة الى قسمين حسب الحوار الذي دار •

القسم الأول :

يرجو فيه الشاعر السفينة أن تواصل سيرها وتمزق ظلمات الخطوب وامتد ذلك في الأبيات من (١ — ٨) •

(١) صدر الآية ٧٣ من آل عمران •

القسم الثاني :

يستتطق فيه السفينة بما يمنعها من المسير مما يدور في الأجواء العربية من معوقات وأحداث وآثار ذلك كله في أسلوب أحسن فيه استخدام الرمزية ذات الأيحاء المكثف بما حوى ذلك من كناية وتلميح جمع هذا في الأبيات من (٩ - ٢٠) .

ولقد ظهرت براعة الشاعر في عرضه للأسباب السابقة ساعده على هذا مقدرته الفنية ، فقد تحدث بأسلوب ذي كثافة من لون معين أعطى به من الأسباب لكل حسب طاقته وفكره وثقافته وقدم هذا في ثوب من الحوار الفني الشيق .

٢ - العروج على الحرب العالمية وذكر بعض مخلفاتها الشهيرة ، لقد ذكر هيروشيما وضربها بالقنبلة الذرية وأثر ذلك الممتد الى الحاضر والمستقبل ويختم حديثه عن هذا الجزء بتقرير بمثابة الحكمة وهو أن استخدام العلم والفكر في التدمير « سلم في الحياة غير شريف » ، وأنه شريعة الغاب : (٢١ / ٢٩) .

٣ - التفاته الى صراعات بعض الأعداء على مر التاريخ واستعراض ذلك بايجاز يحمل كل عبرة من صراعات الأعداء مشيراً الى بيروت وما فيها من هلاك وقتل يوزع حتى للأبرياء من الأطفال والعجزة ومستعرضاً ما جرى في فلسطين من استنزاف وضياع وغوص في محيط الأسى العميق (٣٠ / ٣٩) .

٤ - التحول والصحو العربية ممثلة في حكمة ريان السفينة الصامد المصلح (٤٠ / ٤٣) .

٥ - « رجاء وأمل » وفي هذه الفكرة يرجو الشاعر من السفينة أن تنهض من جديد معتمدة على من فيها من مجاهدين أصقلتهم المآسى

وكله أمل بأنهم سيحققون بأفق المستقبل الشعاري عندما يتحقق الأمل
بالعودة واللقاء (٥٣/٤٤) •

« ومما يكن رؤيته بوضوح في الأفكار الجزئية » :

أن الشاعر تنقل حين سرد لأحداث التاريخ من الحديث إلى القديم
إلى الحديث ، والحاضر ولعله كان مشغولا بما في عصره غير أنه أراد
التذكير بما تخلفه الحروب من تدمير وخراب أيا كانت ، وفي حديثه عن
الحرب العالمية ما يؤكد ما نذهب إليه إذ نراه يذكر معلما من مهالكها
التي صارت حديث الناس مذ كانت ولا يزال من خلال الدمار والتشويه ،
واستنزمت طبيعة الحديث عن هذه الجزئية الروح الانسانية التي نراها
في اظهاره ما قد تجره من هول وتشويه وتخلف في الولدان والذري
ليخلص إلى الحكمة المقررة أنها وصمة العلوم الخ •

وهين تناول الروم في حديثه :

اكفى بذكر أبيات ثلاثة يستوحى القارىء من خلالها مواقف الروم
والفرس مع العرب في القديم ويستلهم التاريخ والوجدان العربي
أوقفيهما وكيف كان كل منهما يسخر العرب في الصدفته وحمايته على
نحو ما كان يفعل المناذرة والغساسنة فقد كان الفرس والروم
يسخرانهما ولو أدى ذلك إلى اقتتال الامارتين معا ، ويذكر بشداع
الأمراء الدائم ومن ذلك نلمح ما حدث في هدنة ١٩٤٨م بين العرب
واسرائيل •

ويمكن أن تكون الرمزية كامنة في لفظتي الروم والفرس ، والروم
والفرس عدوان وهما عدو للعرب منذ القدم ، وقد ظلا يتنازعا على
المسباق نحو القوة والسيطرة في القديم ، ولا زالت الصورة تتكرر في
المعسكرين الشرقي والغربي ففي موقفيهما ما يذكر بموقف الروم
والفرس وكل منهما •

ان يقدم جنى ففيه سموم أو يناصر فنصره لولبي
وكم خدع كل منهما العرب والعرب لا يمتثلون ، فمضى يكون
الاعتبار ؟ والعدو هو العدو ولا يمكن جنى المعنى من الشوك .

* وما يتعلق بالأفكار حديث الشاعر عن بشير السلام ووصفه
بصفات تتقاطر سخرية ، وفي تصويري أنه كان ينبغي — تكملة للصورة
الواقعية — ذكره السبب الأول الذي به تردى العرب في بئر الصراع
الدهوي كما يقول الشاعر ، — فما هو ذا بلفور المشعوم ، كذلك ما يشير
الذعر مما يحدث من شدة الشعرات الذين لا يلهيهم سوى در الكراهية
وارضاعها لأبناء العروبة حتى تظل أسواق أربابهم رائجة على حساب
أصحاب الأرض وأصحاب القضية الأواين ، لقد قدم هؤلاء الشدة
أصحاب القضية وجبات شهية للأحزان والافتراس .

* وجانب آخر وهو أنه حين قص الشاعر قصة بعض الحروب
كالفرس والروم لتسجيل العبرة بعد الذكر والتذكير كان يمكن استغلال
ذلك في التنويه بنتائج الصراعات بين الحق والباطل في الأزمنة المغامرة
وأن الحق ينتصر في النهاية وأن هذه الصراعات كانت مذ كانت الحياة
فلعل في ذلك ما يقوى العزيمة ويدفع إلى التصميم على وجه خاص .

الطائفة والتعبير :

ضمت القصيدة بين دياتها جملة من العواطف التي أسفر عنها
التعبير في وضوح ، بينما ترى الآمال الدانية اذ بك تلحظ اليأس يطل من
خلال الحوار ليسجل هذا الصراع الذي يندور بينه وبين الأمل عاكسا
الحيرة التي تجوب نفس الشاعر ، كما تقرأ البغض والاشمئزاز وما
يحرك عوامل الشفقة والرحمة لتصل بعد إلى ما يحرك الغضب ويثير
اليأس ثم يرد تيار الأمل المازوجينفس الشاعر ويشع من قلب كل مسلم
وعربي ، وهذه العواطف نابغة من تجربة ذاتية تسيطر على الوعي

الجماعى ، ولذلك جاءت الأفكار أشبه بالمتعددة الا أنها أقيمت حول أساس واحد يربطها وتتجذب الى مركزه .

وهذه العواطف جاءت ممتدة فى القصيدة على النحو السابق وسيقت فى أسلوب يتروى بين الحوار والأقرار نلمح هذا فى الجزء الذى ساقه الشاعر فى حوار رشيق بينه وبين السفينة ومن ذلك « وأصلى المسير .. ، مزقى ظلمة الخطوب .. ، أبيضدى الطوفان .. ، اعصرى العزم ثورة .. ، بددى اليأس من خطاك .. » ويتموج الأسلوب فى الأبيات الثمانية الأولى بين الرجاء والتعليل لىأتى الرد فى اسلوب خبرى يتقاطر حسرة وألماً ، ويتدرج الرد فى ثوب من الحوار الذى يتلون بالوصف السردى لأحداث التاريخ على لسان الشاعر حين تقرأ له :

وبشير السلام لم يأت بالزيتون بل جاء بالخلاف المعصى

ومن يقرأ هذا البيت الى قوله :

صار العروبة تحركها الأطماع

فى مسرح الأسى الحسامى

باسمه صار موطنى الحر فى

بشر الصراع المدمر الدموى

يلمس وحدة الشعور وتجانس العناصر الفنية فى رسم الصورة وبناء العبارة بطريقة قادرة على حمل عاطفة الغضب والسخرية فى أنصع ألوانهما .

غير أن القارىء لهذه الأبيات — أيضاً — يحس بكثافة السخرية من خلال ذكر الصفات والصور وأيضاً من خلال تكرار المسند اليه احدى عشرة مرة فى ثمانية أبيات ، وعلى الرغم من هذا فكل بيت من هذه الأبيات يتضمن صفة تعكس العاطفة من غير أن يضيف الى سابقه تأكيداً بهذا الاحساس .

ولكن من يطالع الأبيات التي يقول فيها :

في ثرى هورشيم صاحت ألوف من قضى عرضه فهو حى

الى قوله :

سلم في الحياة غير شريف شاده من دم الضعاف القوى

يرى أن كل بيت يضيف تأكيداً للشعور بالمرارة والحسرة والاشفاق
كما يضيف تأكيداً للشعور بالألم الممض حتى إذا ما وصل الى نهاية
المقطع بلغ الشعور منتهاه ، ومن هنا نلمس الوحدة في صورتها المعنوية
والتعبيرية .

وحين يتحدث الشاعر عن الروم والفرس مقررًا الحقيقة السالفة
المذكر ذراه يسير على نمط من المخالفة إذ يرى وقد بدء بدءاً يتسم
بالهدوء الذي يتدرج الى التكتيف الهادئ لياخذ بنا فجأة لنشهد انهيار
الأمانى وتصدع الآمال والمتردى الى الهاوية من جديد في تصوير
بديع .

ثم تتراءى الرمزية التي تحوى من الغموض ما يحتاج كشفه الى
فضل من التأمل في صفحات التاريخ ليصل الى الفكر المقصود ، وهذا —
في تصويرى — يعد لونا من البراعة في التعبير عن مثل هذه المعانى
التي يقول فيها :

واذا باللواء يرفعه الربان

في همة الجسور الكمى

بدأ السير والسفينة أشلاء

بلا دفعة ومجرى سوى

أصلح الفلك والشرع لديه

أمل أخضر وصبح ندى

وهذا عكس ما نرام في نفس القصيدة عند تعبيره المكشوف عندما
تحدث عن « بشير السلام » كما دعاه •

وفي المقطع الأخير :

الذي تترقرق فيه الآمال وتتراءى الصحوة العربية المأمولة يحدو
الشاعر الأمل البسام فيرجو سفينته أن تنهض من جديد نافضة غبار
اليأس عن أجوائها متحدية الرياح بما يجرى في عرقها من عزيمة وإصرار
ليتحقق الأمل الأخضر ويبدؤا الصبح الندى ويتعانق الأحبة حول
المعراج •

* وتحوم الصورة مع الآمال الشعرية متجانسة مع الأنسجة
والألوان ، والأبيات التي حملت حوارها مع السفينة ترى فيها الصورة
الفياضة بالعزيمة والتصميم والقوة والحماس يتخذ فيها الشاعر من
التشخيص والتجسيد وسيلة للوصول بالصورة الى درجة من القوة
تناسب مع الماطة ، ومن ذلك « مزقى ظلمة الخطوب •• وصدى زحفها
•• وأبىدى الطوفان •• وأصرعى اللج بالصمود •• وأصرى العزم ••
وضمدى الجرح •• وأرى في الآفاق أشباح يأس •• » الخ •

وعندما يقف تجاه « بشير السلام » تتساده الصورة التي انتقاهها
في انعكاس ما يترقرق في ذاته من سخرية واشمئزاز في أنماط من الصور
الوصفية والفنية فهو يحمل :

في يديه حقيبة نام فيها

سر مأساتنا البعيد الخشى

دار في كل محفل ينثر الآراء

مثل الممثل المسرحي

صار العوبة تحركها الأطماع

في مسرح الأسي العالي

باسمه صار موطنى الحر فى
 بئر الصراع المدمر الدموى
 فاذا الويل فيه ينهش كالقثب
 الذى راح ينهش الادمى

وفى حديثه عن هيروشيما لا يكتفى بالوقوف مصورا ما تحمله ذاته
 من أسى وانما يوجهها مخترقة الحجب والأستار نحو القلوب ، وهذا
 لا يتأتى الا من موهبة ذى رؤية شاملة تتحرك فى مساحات فسيحة .

فدماء الشهيد فى كل شبر
 أنبتت دوحة الفدا الملقى
 لم تزل تحرق المأسى رياضا
 شوهتها حروب عصر غبى

كما نطالع هذه الصور التى تعكس مرارة المعاناة وزوغة الاشفاق ولوعة
 الحزن فى قوله عما ينتظر الأجنة بسبب ما حدث فى هيروشيما ، فالطفل :

ربما عائق الوجود كسيحا
 أو ضريرا أو ذاهلا أو عيى
 أو بأنفسين أو بخمس أياد
 أو برأسين أو بلا أى شى

يجعلنا نقول : ان الشاعر بتجربته فى هذا الميدان استطاع أن
 يوظف المفردات توظيفا جيدا ، وهذه مرحلة ابداعية تتم عن مقدرة
 معطاءة ، ومما تقدم فلمس التماس بين العاطفة والصورة والتعبير .

فى القصيدة تعبيرات فى حاجة الى وقفة لما فيها من دلالات معينة ،
 وهى تعبيرات تشيع فى أشعاره حتى صارت من سماته التعبيرية - فى
 تصويرى - ومن هذه التعبيرات :

« فجر الكرامة العبرى » :

وهو تعبير يوحى بكرامة من نوع خاص ، انها الكرامة العربية في
أسمى معانيها والتي كانت ولا زالت حديث صدائف التاريخ وموطن
العجب ، كرامة العربى منذ القدم ، انها الحياة الحقيقية كما يراها
العربى .

« التعبير الخفى » :

عبارة يصف بها سر المأساة تردينا فيها ، وفي وصفه بالبعيد
الخفى تنبيه القارىء والمستمع المتأمل الى استلزام الماضى من جديد
والبحث عن أبعاد المشكلة للوقوف على الحقيقة بوضوح ، وفي الخفى
ما يرشد الى أن فيها آثارا تتبع آثارا . وأن استجلاءها فى حاجة الى
دقة ووقفنة واسترشاد لأدراك هذا الخفاء وفيه دعوة الى العرب لترك
الخلاف المريب وتقصى مشاكلهم للانتشال منها ببصيرة .

بئر الصراع المدمر الدموى :

فى هذا الشطر ما يوحى بالنتيجة السيئة التى وصلنا اليها من
جراء الخلاف وأن المشكلة أعمق وأخطر مما يتصوره البعض وأنه اذا
لم يتفاهم العرب لحقيقة القضية ويسارعون نحو الحل بخطى مدروسة
ومنظمة سيصير الأمر خطيرا والنهاية هى الفناء الذى يجر فناء ويريق
دماء ودماء .

حروب عصر غبى :

وصف العصر بأنه غبى يوحى بمدى ما فيه من خداع السياسيين ،
كما يوحى بأن كل اتفاق يخفى تحته قتلا وتدميرا ، كما يدعو الى أخذ
الحذر بصورة دائمة .

بـخمس أياد :

والتعبير بخمس دون غيرها « كسبع أو تسع » يمكن أن يكون
ثميناً من الشعار إذ الصلوات خمس وأركان الإسلام خمسة ، أو أن
الأصابع قد يعتريها التشويه ، فيكبر حجمها حتى يصل الى درجة يظن
معها أن كل اصبع يد •

وزع الموت :

تعبير يوحى بضياح من هذا العدو الغادر الذي راح لا يجد
خرجاً في هذا التوزيع بل أصبح عنده مناحاً وكأن الموت صار منقذاً من
قسوة الحياة التي صنعها لهؤلاء •

الضوء للأدبى هدى :

تعبير يفيد انقلاب المعايير وضياح اقيم وتفتش الباطل الى غاياته •

العز في الثرى منسى :

فيه اثاره لهؤلاء الذين هانت عليهم نفوسهم فراحوا يرضون
بهذه الحياة •

انتصارنا الأبدى :

يوحى بالانتصار القائم على أساس من الدين والاسلام والمبادئ
لنحظى بتأييد الله ونصره على الدوام •

أحضر الآمال :

تعبير يعكس غاية الشعور بالفرحة الغامرة التي فيها الاحساس
بالحياة نتيجة تحقق الأهداف على خير وجه •

وأما طول النفس في القصيدة الى الحد الذي بلغته من الأبيات
فهذه سمة شائعة في شعر الشعراء ، كما أن المضمون الفكري فيها
يتطلب من الطول ما يؤدي الى توضيحه وتأكيدده في النفوس ولما
للموضوع من أهمية على النطاق القومي مما جعله يستتفد فيه هذا
القدر من الامتداد .

وجاءت القصيدة من بحر الخفيف ولقد صنع الشاعر للقافية قيودا
فسكن حرف الروي ولعل ذلك من باب سكن تسلم وفي ذلك بعد عما تجره
اختلاف حركة الروي « لو حرك » من اقواء واصراف ، ويمكن أن
يضاف الى ذلك تعليلا وهو أن التسيكين يؤدي الى احتباس الصوت
مما يؤدي الى تكوين طلعة انفجارية تظهر في البيت الثاني مما يجعل
كل بيت بمثابة طاقة مدوية ولعل هذا مما يناسب هذا النداء الموجه الى
العرب والمسلمين للنهوض من التردى القاتل ...

والله أعلم ...

السخاوى

ومنهجه في كتابه الإعلان بالنوبخ

لسن ذم أهل التاريخ

دكتور / محمد نيسان سليمان

جامعة الأزهر بأسسيوط

السخاوى مؤرخ من علماء القرن التاسع الهجرى ، قدم لقراشنا الثقافى مؤلفات كثيرة فى مختلف فروع المعرفة استفاد منها الباحثون فى مجال الدراسة التاريخية وغيرها ومازالوا على الرغم من أنه عاش فى فترة زمنية غير مستقرة سياسيا فقد عاصر السخاوى دولة السلاطين الجراكسة ، وهى دولة عسكرية متعسفة استحوذت على السلطة فى مصر بصورة سيئة (١) .

يضاف إلى ذلك الأحوال المالية بمصر ، فان المماليك منذ نشأة دولتهم إلى آخر أيامهم استحوذوا أيضا على خيرات أرض مصر بحيث أصبحت لهم أشبه بملكية خاصة من السلطان إلى أصغر مملوك وقد قربت على ذلك أن تحول عدد غير قليل إلى أجراء .

(١) راجع : كتاب المماليك فى مصر والشام د . سعيد عاشور .

ولعل الذى ساعد على ازدهار الثقافة العربية فى مصر مع الوضع الاقتصادى السيئ ، أن مصر أصبحت وحدها حاملة لمشعل الثقافة العربية بعد أفول المراكز الثقافية فى المشرق ، ولا سيما بغداد نتيجة الغزو المغولى وفى الأندلس مثل قرطبة ، وقد كان لاحتكار الممالك لشئون السياسة فى مصر ، سبب آخر فى أن جعل العلماء ينشغلون بآب العلوم بين الناس والطلاب بصفة خاصة (٢) بحديث نبغ عدد كبير منهم فى مختلف العلوم ، وكان من هؤلاء السيوطى ، والمقرئى وابن حجر والذهبى والسخاوى وابن خلدون وغيرهم وقد عبر عن ذلك ابن خلدون حيث قال : ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر ، فهى أم العالم ، وإيوان الاسلام ، ويذبح العلم والصنائع (٣) .

والسرخاوى عاش فى ذلك العصر ، الذى نضج فيه مفهوم وماهية التاريخ وتأثر بذلك ، ورأى أن موضوع التاريخ هو الانسان والزمان فهو يرى التاريخ فى نظره أكثر شهولا من غيره من المؤرخين وهو أحد تلاميذ ابن حجر العسقلانى ، وأحد معاصري السيوطى ومنافسيه .

السرخاوى :

هو : محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر بن عثمان بن محمد . عرف بألقاب كثيرة ، لشهرته ، منها : الحافظ ، شمس الدين ، وكنى بكتبه منها أبو الخير ، وأبو عبد الله ، أبو محمد : ولكن الذى عرف به وترجم له : هو لفظ السرخاوى ، ونسب السرخاوى هذا : يرجع

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨٥ .

(٣) راجع : مقدمة ابن خلدون ص ١٠٨ ، الضوء اللامع للسرخاوى

الكتاب ١٠٨

ص ٧ ، ص ١٧٢ .

الى سخا وهي بلدة غربى الفسطاط بمصر(٤) فهو قاهرى نسبة الى القاهرة ، وشافعى نسبة الى مذهب الامام الشافعى ، الذى أخذه السخاوى مذهباً له .

ولد السخاوى فى ربيع الأول سنة احدى وثلاثين وثمانمائة من الهجرة ، بحارة بهاء الدين محل أبيه وجده(٥) فهو سخاوى قاهرى شافعى المذهب ، نشأ السخاوى فى بيت علم وحبب اليه حفظ القرآن الكريم ، فأقبل عليه وحفظه وهو صغير ، وصلى به فى شهر رمضان وحفظ عمدة الأحكام والفقه والمنهاج ، وألفية ابن مالك العراقى والنخبة لابن حجر ، وقد حرص السخاوى على ملازمة ابن حجر ، فسمع الأحاديث الكثيرة منه ، فكان من أكبر الأخذيين عنه وأعانه على ذلك قرب منزله ، فكان لا يفوته وقد علم ابن حجر شدة حرص السخاوى على ذلك ، فكان يرسل خلفه أحياناً بعض خدمه ، يأمره بالحضور للقراءة . والدرس ، ولما وثق ابن حجر من السخاوى أذن له فى القراءة والافادات ، والتصنيف للكشف عن التراجم والمتون وسائر الاصطلاحات ، حتى صار أكثر أهل العصر سموعاً وأكثرهم رواية وقال عنه ابن حجر : هو أمثل جماعتى واذن له .

وبعد وفاة شيخه الشهاب ابن حجر ، سافر الى مكة والمدينة أكثر من مرة للحج والمجاورة ، والتقى بالعلماء فى مكة ، وقرأ بها الكتب الكبار والأجزاء الصغار ما لم يتهياً لغيره من الغرباء ، ثم رحل لى

(٤) راجع شذرات الذهب فى اخبار من ذهب . لابن العماد الحنبلى

ج ٢ ص ١٥ ، الضوء اللامع للسخاوى والمقدمة ، الاعلان التوبيخ لمن ذم

أهل التاريخ المقدمة .

(٥) راجع : النبر المسيوك فى ذيل السلوك للسخاوى ص ٢ - ٣

شذرات الذهب لابن العمار ج ٨ ص ١٥ .

الآفاق وجلب البلاد ، ودخل حلب ودمشق وبيت المقدس وغيرها طلبا للعلم ، واجتمع له من المرويات بالسماع والقراء ما يفوق الوصف ، ثم عاد الى القاهرة ولازم الاستتقال والاشتغال والتأليف لم يفتر أبدا فانتفع به الخاصة والعامة والكبير والصغير ، وانتشرت في عصره الأسانيد المحررة والاسمعة الصحيحة ، والروايات المفيدة ، فاستفاد منها السخاوى وافاد (٦) ومن ثم فان السخاوى تعلم تعليما دينيا أثر فيه وكان له صدق في مؤلفاته التي ألفها ، يضاف الى ذلك أن السخاوى كان له منهجا تاريخيا مخالفا لمنهج المؤرخين في القرن التاسع الهجري ، متأثرا بشيوخه وظروف عصره (٧) .

مؤلفات السخاوى :

السخاوى قدم للتراث العربى مؤلفات كثيرة ومفيدة ، أغلبها يميل الى العلوم الدينية والتاريخية وهذا يرجع الى النشأة والتربية من هذه المؤلفات .

- ١ - « الجواهر والدرر » فى ترجمة الشيخ ابن حجر .
- ٢ - « فتح الغيث » بشرح الفية الحديث .
- ٣ - « الضوء اللامع فى أخبار أهل القرن التاسع » ويسمى الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ويقع فى ست مجادات ذكر فيه ترجمة لنفسه على عادة المحدثين وهو مطبوع .
- ٤ - المقاصد الحسنة فى الأحاديث الجارية على الألسنة وهو أجمع وانقى من كتاب السيوطى المسمى بالجواهر المنتثرة فى الأحاديث المشتهرة .

(٦) راجع الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى ج ١ ص ٢

(٧) راجع : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ص ١٥ السخاوى

وفي كل واحد منهما ، ما ليس في الآخر .

٥ - القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع ، وهو نفيس

جدا .

٦ - التاريخ المحيط على أحرف المعجم .

٧ - عمدة المحتج في حكم الشطرنج .

٨ - تلخيص تاريخ اليمن .

٩ - الأصل الأصيل في تحريم النقل من التوراة والانجيل .

١٠ - تحرير الميزان .

١١ - عمدة القارئ والسماع في ختم الصحيح الجامع .

١٢ - غنية المحتاج في ختم صحيح مسلم بن الحجاج .

١٣ - الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ (٨) .

وهذا الكتاب الأخير هو الذي ميز السخاوى عن غيره من

المؤرخين في تناولهم لمفهوم علم التاريخ .

السخاوى بين معاصريه :

السخاوى كان يقدر مشايخه ومن تلقى على أيديهم العلم ، وقد

نقل عنه ابن حجر هو أمثل جماعتي (٩) ويقدر أقرانه يوم أن كان يافعا

من طبقة التلاميذ ، وقد مدح السيوطي : حيث قال : في ترجمة والده ،

قال : ...

...

(٨) راجع : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ للسخاوى ص ٢ .

(٩) راجع : الاعلان المقدمة .

...

وهو والد الفاضل جلال الدين عبد الرحمن ، أحد من أكثر التردد على ، ومدحني نظما ونثرا نفع الله به (١٠) كما أثني عليه في مناسبات متعددة ، ولكنه عاد وتحامل على السيوطي في كتابه الضوء اللامع ، واتهمه بالحمق والسرقه ، واتهمه في آخر أيامه كلما وجد مناسبة ، تحامل عليه وذمه ، ودافع السيوطي عن نفسه في رسالة له وسماها « الكاوي على تاريخ السخاوي » ذكر فيها أن السخاوي « حقير فقير لا يباع في سوق العلم بقطمير (١١) أكب على التاريخ فأفنى فيه عمره ، وأغرق فيه عمله ، وسلق فيه أعراض الناس ، وملاه بمساويء الخلق (١٢) ورد عليه السخاوي فقال : ويمكن تفسير الكم الموافق من المؤلفات الكبرى والصغرى للسيوطي ، بأن كثيرا من رسائله الصغير لا يزيد الواحدة منها على مقالة طويلة أو صغيرة أو مختصرة منها « ما هو ورقة وما هو دون كراسة » (١٣) .

يضاف الى ذلك أن السخاوي اتهم السيوطي بأنه اختلس مؤلفاته منه حين كان يتردد عليه فأخذ عنه كما يقول : الخصال الموجبة للضلالة ، والأسماء النبوية والصلاة على النبي الخ ، بل أخذ من مكتبة المدرسة الاحمدية وغيرها كثيرا من القصصانيف القديمة التي لا عهد للكثير من المعاصرين بها ، وقدم وأخر ونسبها الى نفسه (١٤) على أن السيوطي لم يتغاض عن حملات السخاوي عليه ، بل سخر

بعض علماء عصره في بعض مناسباتهم من ذلك ، فذكر في كتابه « تاريخ السخاوي » (١٥) ما ذكره السيوطي في كتابه « الكاوي » (١٦) من أن السخاوي كان يتردد على السيوطي في دار الكتب .

ورقة ٢ - ٣ .

(١٢) نظم الاقدام في أعيان الأعيان تحقيق فليب حني ص ١٥٢ .

(١٣) راجع الضوء اللامع للسخاوي ج ٤ ص ٧٠ - ٧٥ .

(١٤) راجع الضوء اللامع للسخاوي ج ٤ ص ٦٩ .

منه وتحامل عليه في مؤلفاته التي أفرد مؤلفا منها للنيل من السخاوي سماه كما ذكرت .. الكاوي في تاريخ السخاوي ، وجاء فيه نزعت أعراض الناس ، وهدمت في تاريخه من أسانس (١٥) .

وأرى أن هذه الاتهامات والقذح لا يجوز بين مثل هؤلاء العلماء الذين قدموا لقراءتنا التاريخي والحضاري مؤلفات كثيرة وكان الأجدر بهما أن يذأيا عن مثل هذه الأمور التي تجعل الباحثين ينظرون إليها نظرة نقال من قدرهما العلمي وقد أعجبني موقف أحد الباحثين حيث قال وأصبح القرن التاسع الهجري معسكرا يقوده السخاوي ومن قواده ابن الكركي ، وابن العلي ف تليمذ الجوهري ، وأحمد بن العسقلاني يقوده السيوطي ومن أنصاره الفخر الديمي وأمين الدين الأقصراني وسراج الدين العباسي وغيرهم ، ويتناول المعسكران التهم والنقائص والسباب وذكر الماثلب وأخذت الخصومة بينهما زمنا ليس بالقليل ويرى البحث أن واجب العلماء في كل عصر أن يترفعوا عن مثل هذه الخصومات التي قد يساء الظن في فهم المراد منها والتي تشوه سمعة أئمة جيل بأكمله (١٦) .

علم التاريخ بين العاوم الأخرى :

ارتبطت الكتابة التاريخية منذ بدايتها في صدر الإسلام ، بالعاوم الدينية ارتباطا وثيقا ، فكان المؤرخون الأولون يكتبون في المسيرة النبوية وفي المغازي وفي نسب قريش ، وفي الطبقات وفي التراجم لرجال وفقه والتفسير ومما لاشك فيه أن القرآن الكريم أكثر على

(١٥) ٥٢ ٢٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠

(١٥) راجع الكاوي في تاريخ السخاوي مخطوط . (١٦) ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠

(١٦) راجع بحث السيوطي والدراسات القرآنية : د . أحمد عمر

أمثلة الشعوب الماضية البائدة لما تتطوى عليه هذه الأمثلة الدينية من عبر دينية ، ومواعظ خلقية ، كما جاء القرآن الكريم بنظرة علمية الى التاريخ ممثلة في تتابع النبوات ، وكان لهذه النظرة أثرها العميق في اهتمام المسلمين بدراسة « تاريخ الرسل والأنبياء » (١٧) .

يضاف الى ذلك أحوال الأمم السابقة لأمة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وقد وقع الاستبدال بالتاريخ في الكتاب العزيز ، حيث قال الله تعالى : « قل يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم ، وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون » (١٨) وهذا من اللطف الاستدلالي وانفسه من حيث أنه تعالى : استدلل على بطلان دعوى اليهود في إبراهيم عليه السلام انه يهودى وبطلان دعوى النصارى في إبراهيم عليه السلام أنه نصارى ، وصورة أخرى للاستدلال قال الله تعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ، ما تثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق ، وموعظة للمؤمنين » (١٩) ثم قال أيضا في كتابه العزيز : « ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغنى النذر » (٢٠) .

ثم صورة أخرى يستدل بها على أخبار الأمم ، فقال تعالى : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتقصيل كل شيء » (٢١) واستدلال

(١٧) راجع : التاريخ العربى والمؤرخون د . شاكر مصطفى جاد ٢١١

(١٨) سورة آل عمران آية ٦٥ .

(١٩) سورة هود آية ١٢١ .

(٢٠) سورة القمر آيات ٤ - ٥ .

(٢١) سورة يوسف آية ١١١ .

آخر من كتاب الله تعالى على علم التاريخ للأهلة ، فقال تعالى :
 « يسألونك عن الأهلة ، قل هي مراقيت للناس والحج » (٢٢) وفي كتاب
 الله الذي لا يأتيه الباطل ، الكثير والكثير من الأدلة على أن التاريخ
 علم له فوائد ولكن مجال البحث لا يتسع لها .

يضاف الى ذلك أن كتب الحديث بها الكثير من الأدلة على أن علم
 التاريخ مفيد ، ولا غنى لعلم من العلوم عنه ، روى السيوطي في
 الجامع الصغير - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بلغوا
 عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا ،
 فليتبوأ مقعده من النار » (٢٣) .

وكذلك روى ابن عباس رضي الله عنهما . قال : قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم : « مررت ليلة أُسرى بي على موسى بن عمران
 عليه السلام ، رجل آدم طواله جعد ، كأنه من رجال شنوءة ورأيت
 عيسى بن مريم مربوع الخلق الى الحمرة والبياض سبط الرأس وأرى
 مالكا خازن النار ، والدجال في آيات ، أراهن الله اياه » (٢٤) .

وقد كان تطور الكتابة التاريخية جزءاً من التطور الثقافي الذي
 عرفه المجتمع الاسلامي في القرون الثلاثة الأولى ، وهذا التطور كان
 اسلامياً صرفاً ، لم يتأثر بمؤثرات ثقافية أجنبية ، أي في جوانب
 منه ومحددة ، وإذا كان التاريخ تعبيراً عن مشيئة الله في الناس وقد

(٢٢) سورة البقرة آية ١٨٩ .

(٢٣) راجع الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٧٦ .

(٢٤) راجع صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٢٧ - ٣٢٨ .

استخدم للعبارة ولبيان التجارب والخبرات والاجماع والمسنن ، وإذا كان اعترى منذ البدء ، علما خاصا أو نوعا من العلم ، فإنه بالمقابل غير اتجاه نحو الفلسفة الجبرية ونحو ارتباط الإنسان بقدر الله ، كما عبر عن شعور متزايد بقيمة التراكم الزمني في تكوين الأمة (٢٥) وفي القرون الثلاثة الأولى كما ذكرت لم يوضح علم التاريخ عناصره في المنهج والمادة وصار علما مستقلا ، بصرف النظر عن مكانته غير البارزة بين العلوم الاسلامية الأخرى •

ومع بداية القرن الرابع والخامس الهجري ، بدء علم التاريخ مسيرته العلمية المستقلة الى حد كبير ، مسجلا طورا خاصا جديدا ، في تلك المرحلة ومتأثرا دون شك بنمو العلوم الأخرى ، واتساع نطاق الحضارة المادية وانتشار الورق •

وإذا كان علم التاريخ حسب المفهوم القديم ، ادى الكثير من الكتاب تسجيل أخبار الأحداث والناس ، فقد كان دوما بالضرورة على صلة بأحداث السياسة وأخبار الرجال ولا شك أنه تأثر بها أكثر من تأثر أى علم اسلامى آخر ، بل لعل الفروع الثقافية كلها كانت تفسر وتطور من وراء الأحداث ومن فوقها ، فان الفقيه والحنفي والمحدث وصاحب الفلسفة لا يهتمون بالحاكم ولا بالمعارك الخارجية ولا الطبيب باحتلال بلد أو بموت حاكم ، أما المؤرخ فان عينه ويده مرتبطتان بالأحداث نفسها وهو صورة للعصر الذى يعيش تأثر به ويؤثر فيه ، ولذا فقد أضحت علم التاريخ في جانب التراجم ، وفي جانب الحوادث ، ركنا أساسيا في علم المحدثين ورجال الفقه ، والدين ، والأدب الكل يطالعه ، ويدرسه ويؤلف فيه ، وأصبح علم التاريخ من

(٢٥) التاريخ العربى والمؤرخون ج ١ ص ٢١٥ د شاكى مصطفى

المهمات ومشغل أهل العلوم الدينية بأنفسهم ، وبجانب هذا فإن رجال السياسة من خلفاء وحكام وأمرأء ووزراء وكتاب ، وحجباء وبلاط عملوا بدورهم في الحقل التاريخي ، وبعضهم حتى من الخلفاء كتبوا التاريخ وإذا كان هؤلاء كتبوا التاريخ ومؤلفاتهم ميزة خاصة فلأنهم كانوا يضعون أيديهم عمليا على مناجم التاريخ الأساسية من دواوين ومن وثائق ووسائل وغيرها ، ولم يكن أصحاب العلوم الأخرى على اهتمامهم العلمي والفلكي والبياضي والفلسفي ، بالبعيد عن الاهتمام التاريخي وهناك أمثلة كثيرة من هؤلاء ألفوا لعلم التاريخ لأهميته وفوائده (٢٦) .

وهذا كله يعنى أن التاريخ قد أخذ يشتمل كعلم خاص ونشاط ثقافي يشغل أفهام المفكرين في القرنين الرابع والخامس الهجري وأن لم يبحث هؤلاء في ذاته وفي دراسة خاصة به وقد استمر ذلك أيضا في القرن السادس وما بعده من مؤلفات حتى النصف الثاني من القرن الثامن والقرن التاسع الهجري لتظهر أولى الأبحاث الإسلامية الخاصة بعلم التاريخ نفسه وقد ظهرت أربعة أو خمسة أعمال متتابعة وظهرت على أرض مصر العزيزة أرض الأمجاد والبطولات وحملت في الغالب طابع الدفاع عن علم التاريخ (٢٧) أكثر مما حملت من طابع التعمق والتحليل لكنه وماهيته ومناهجه الفكرية وأولى هذه الأعمال : كتاب المختصر في علم التاريخ « لمحيى الدين محمد بن سليمان الكافيجي المتوفى سنة ٨٧٩هـ (٢٨) » ، وهي رسالة في عشرين ورقة انتهى منها في

(٢٦) راجع التراخي المؤرخون د . شاکر مصطفى ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢٧) راجع شذرات الذهب اخبار من ذهب لابن العماد الجنبلي

ج ٦ ص ٢١٨ .

(٢٨) راجع كشف الظنون حاجي خليفة والسرخاوي كتاب الاعلان

سنة ٨٦٧هـ حسب ما ذكره السخاوى وكتاب الشماريخ في علم التاريخ « للسيوطى » : المتوفى سنة ٩١١هـ (٢٩) ، وكتاب الشماريخ في علم التاريخ لعبد الرحمن بن عبد القادر الفارسي المتوفى سنة ١٠٩٦هـ (٣٠) .

أما السخاوى فقد ألف كتابا أستدرك فيه على السابقين ما وقعوا فيه وهو كتاب الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، وسوف نقدم له دراسة نقدية في هذا البحث لأهميته حيث اعتمد السخاوى على الكافي .

وقد اهتم الكافي برسالته فهي أقدم رسالة اسلامية معروفة عن علم التاريخ انها محاولة أولية هامة سبق بها الكافي الى طرق عدد من المسائل المتعلقة بخصائص علم التاريخ وغرضه وأهدافه وفوائده وأجابه عليها باختصار محاولا وضع نظرية للتاريخ وأصوله ومسائله (٣١) وقد طبق المنهج الفقهي وأراد استخراج منهج البحث والتدوين التاريخي وقد قدم الكافي مرة أخرى لهذا الفن كتاب آخر سماه « النصر القاهر والفتح الظاهر » ولم أتمكن من الاطلاع عليه ، وأما كتاب الشماريخ في علم التاريخ للسيوطى فهي رسالة أخرى في علم التاريخ لكنها صغيرة الحجم لا تزيد على عشرين صفحة، وهي دون ذلك أقل شأنًا بكثير من الناحية الفكرية لرسالة الكافي لأن السيوطى لم يحاول إيجاد فكرة جديدة تتعلق بالتاريخ كعملية علمية واكتفى بأن قسم الرسالة الى ثلاثة أبواب الأول منها في بدء التاريخ أى الحوادث التى تتخذ

(٢٩) راجع التاريخ والمؤرخون د . شاکر مصطفى ج ١ ص ٢١١

(٣٠) راجع كتاب الاعلان للسخاوى ص ١٣٠ .

(٣١) راجع التاريخ العربى والمؤرخون د . شاکر مصطفى ٢٢٥/١

بدء لتواريخ الناس كهبوط آدم وبناء البيت والهجرة ، والباب الثاني في فرائد التاريخ وكلها ذات طابع ديني أخلاقي ، وفي الباب الثالث جمع بعض المعارف التاريخية ومنها حساب التاريخ بالشهور والأيام فكأنما أراد عدم بحث ماهية التاريخ ولكن وضع بعض الأسس العلمية لتدوين التاريخ بين أيدي الناس (٣٢) ولذلك قال السخاوي عنها انها وريقات صغيرة غير مفيدة (٣٣) .

منهج السخاوي في الكتابة التاريخية :

السخاوي من علماء القرن التاسع الهجري ، تأثر منهجه بكثير من المؤرخين السابقين له وخاصة الذهبي والكافيجي ويظهر هذا التأثير في نقل الروايات واسناده وقد اعتمد في كتابه الضوء اللامع على الذهبي في كتابه تاريخ الاسلام وقد غابت على اسلوب السخاوي النزعة الدينية وقد انعكست هذه النزعة على صفحات كتبه التي ألفها وخاصة في كتابه المقاصد الحسنة في الأحاديث على الألسنة (٣٤) .

يضاف الى ذلك أن السخاوي نقل كثيرا من مؤلفات الذين عاصروه والذين سبقوه وكان النقل مألوما في العصور الوسطى وربما عاد الى ذلك قلة النسخ التي كانت تكتب من المؤلفات وعدم انتشارها انتشارا كافيا بسبب غلاء الورق وعدم اختراع آلات الطباعة (٣٥) ومثال ذلك

(٣٢) نفس المرجع السابق ص ٢٨٠ .

(٣٣) راجع الضوء اللامع للسخاوي ج ٤ ص ٦٩ .

(٣٤) راجع كتاب الاعلان للسخاوي ص ٣ .

(٣٥) راجع بحث دراسة نقدية لكتاب حسن المحاضرة للسيوطي

نلمدكتورة / سيدة الكاشف ص ١٣٨ .

نقله لكتاب الجواهر والدرر في ترجمة ابن حجر وغيره (٣٩) •

السخاوى معاصر لأحداث القرن التاسع الهجرى ولأنك أن
معاصرة المؤرخ العربى لأحداث زمانه تطبع رواياته بطابع الصدق
والدقة - فالمؤرخ الذى يعيش فى زمن قريب من الزمن الذى دارت
فيه الأحداث التى يقوم بتسجيلها أقدر من غيره من المؤرخين اللاحقين،
على تصويرها بألوانها الحقيقية ، ذلك لأن الكتابة التاريخية المعاصرة،
فى زمن الأحداث تعتمد كثيرا على المعاينة والمشاهدة والسمع من
مصادر متنوعة والمعاينة والتحقيق يجنبان المؤرخ من الوقوع فى الأخطاء
التي وقع فيها من لم يحاذر حذره والسخاوى حرمانا من كتابة تاريخية
على نظام الحوليات لعصره ولو انه كتب نجاءت ملاحظته على الأحداث
بصورة صادقة محايدة ولكنه لم يفعل وان قلة المعلومات التاريخية التى
قدمها السخاوى فى الحوادث قياسا بالمادة الضخمة التى قدمها فى
التراجم تجعل من العسير علينا ، أن نميز له منهجا خاصا فى هذا
المجال خالف فيه غيره من كتاب الحوليات الذين سبقوه مثل الطبرى
وابن الأثير وابن الجوزى ومما يلاحظ على منهج السخاوى أنه حشد
فى بعض مؤلفاته ما هو غريب وعجيب كما فعل السيوطى فى بعض
مؤلفاته ، وربما أن يكون دافعهم الى ذلك خلق أو افتعال جاذبية
الباحثين ، ولكن أغلب مؤلفات السخاوى جاءت بصورة طيبة هادفة •

والسخاوى قدم كتاب الاعلان على فكرة جديدة ومنهج متطور
له فوائد وأهداف • ولذلك رأينا أن نقدم دراسة منهجية له فى كتابه

الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ :

ان السخاوى سلك منهجا في القرن التاسع الهجرى ميزه عن غيره من معاصريه حيث ألف كتاب الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ (٣٧) فقد جعله عبارة عن عرض جميل لأهمية علم التاريخ وأوضح في هذا المنهج صورة بارزة لفوائد علم التاريخ من بين العلوم الأخرى والذي دفع السخاوى الى هذا المنهج ان العصر الذى كان يعيش فيه كما ذكرت سابقا عصر غير مستقر سياسيا ومتدهور ماليا ، فنصب السخاوى نفسه مدافعا لعلم التاريخ وأهله .

ولابد أن السخاوى تأثر بمن سبقه من المؤرخين مثل الأستاذ محيى الدين الكافيجى الذى كتب رسالة فريدة من نوعها وهدفها وعنوانها المختصر المفيد فى علم التاريخ فيها نظرية التاريخ وأجاب عن المسائل المتعلقة بخصائص علم التاريخ وغرضه وهدفه وفوائده .

وعرف الكافيجى التاريخ بأنه علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله ، وعن أحوال ما يتعلق به من غير تعيين ذلك وتوقيته (٣٨) وبرهن الكافيجى على أن التاريخ علم كسائر العلوم المدونة كالفقه والنحو والبيان وغير ذلك ، وهذا الاستدلال يؤكد الحاجة الى علم التاريخ كما هى الحاجة الى أى علم آخر من العلوم الاسلامية .

ويرى الكافيجى أيضا أنه يشترط فى المؤرخ ما يشترط فى راوى الحديث وقد بينها فى رسالته حيث قال يشترط فى المؤرخ العقل

(٣٧) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ج ٤ .

(٣٨) المختصر المفيد فى علم التاريخ مخطوطة فى دار الكتب رقم

والضبط والاسلام والعدالة (٣٩) ولا ريب أن السخاوى تأثر بالكافييى ومن سبقه من المؤرخين كالذهبى والسيوطى وقرى ذلك واضحا فى كتابه الاعلان •

الا انه رأى أن موضوع التاريخ هو الانسان والزمان وبالتالى فهو يرى التاريخ فى نظره أكثر شمولاً من نظرة الكافييى خاصة، عندما فسر ذلك بقوله « بأن مسائل التاريخ هى أحوال الانسان والزمان المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الوجودية للانسان وفى الزمان، ورأى السخاوى أن فائدة التاريخ هى معرفة الأمور على حقيقتها » (٤٠) •

وقد جاءت معلومات السخاوى وفيرة والروايات التى نقلها من المؤرخين السابقين كثيرة فى توضيح فائدة علم التاريخ حيث رتبها ترتيباً زمنياً متناسقاً •

أما عن الأسلوب الذى كتب به السخاوى الاعلان أسلوباً سهلاً طيباً ابتعد عن الألفاظ الصعبة والعبارات الغامضة حتى يتمكن الباحث من أن يدرك بسهولة هدف السخاوى من دفاعه ورده على الذاميين لعلم التاريخ وأهله ، وهو جزء مهم فى الاعلان فقد قال « وأما الذامون فمنهم من خصص ومنهم من عمم » (٤١) •

ويلاحظ على السخاوى حشد المادة الزائدة وهو ما يشوش على النص حيث انه استطرد فى توزيع العلماء على مختلف العصور التاريخية وكذلك مختلف المدن الاسلامية وقد أخذها من المذهبى مع تبديلات طفيفة (٤٢) •

(٣٩) اعلان بالتوبيخ ط ١٩٦٣ ترجمة د. صالح أحمد العلى ص ٥

(٤٠) المختصر المفيد فى علم التاريخ الكافييى دار الكتب ورقة ٣

(٤١) راجع الاعلان للسخاوى ص ٨٦ - ٩١ •

(٤٢) راجع الاعلان بالتوبيخ السخاوى ص ١٧ - ٥٨ •

اهتم السخاوي بالنقد التاريخي في عبارات موجزة أحيانا ولاذعة في أخرى حيث قال : انتقد بعض المعاصرين لشيخنا كثيرا من تراجم معجمة ، بانتقادات ساقطة فلم يكن ذلك بمانع من التنافس في تحصيل المعجم والتناقل عنه الى وقتنا بين العرب والعجم بل كان والله الحمد سببا لأخمد القائم باظهاره ونشره وعدم امتقاره ، مع اطفاء ذكره واخفاء فخره (٤٣) وقال أيضا واقحش أبو عمر بن الرباط في حق الذهبي بسبب التاريخ ونحوه (٤٤) .

أن السخاوي لم يهتم بالتطابق والتجانس في العناوين الرئيسية لكتابه الاعلان ، انما يتوقف طول الشرح للعنوان أو قصره على حسب الروايات والمعلومات التي يعتقد انها توفى بالعرض ، ومع ذلك فان الاختصار لبعض الروايات لا يعنى انه تختصار غير مفيد فحين يختصر يخرج القارئ بلب الموضوع وهذا منهج المؤرخ من فكرته ولغته ، وبحق فان السخاوي قدم للقرات العربي منهاجا فريدا وفي هذا الكتاب طرح السخاوي أفكاره الأساسية عن التاريخ كعلم ، وجدواه وضرورته كأداة حضارية بيد أن الخلفية الثقافية للسخاوي كمحدث من جهة وحقيقة انه يتدرج في إطار « عالم الدين - المؤرخ » من جهة ثانية جعلته يؤكد أهمية التاريخ وجدواه باعتباره قرعا من فروع الثقافة المساعدة في خدمة العلوم الدينية ، والحقيقة أن كتاب الاعلان - بالتوبيخ يعكس وجهة نظر عالم الدين أكثر مما يكشف عن رؤية المؤرخ وتتحدد أبعاد فكرة التاريخ لدى السخاوي من خلال أفكاره التي يطرحها في كتابه اذ يقول وفي الاصطلاح التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة وعقل وبدن وحج

(٤٣) راجع الاعلان ص ١٥٠ - ٣٣٧ .

(٤٤) راجع الافلان ص ١٠٢ .

وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن
أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم (٤٥) .

هذه هي الوظيفة الأولى لعلم التاريخ ، وهي وظيفة محدودة
للغاية كما يراها السخاوى . وذلك أنه يجعل من التاريخ أداة لتتبع
سير الرواة والأئمة كغاية من أهم غايات هذا العلم . بيد أنه لا يهمل
حوادث التاريخ الأخرى التى يراها تحتل درجة أدنى فى أهميتها من
الدرجة التى تحتلها أحوال الرواة والأئمة . وحين يريد السخاوى أن
يسوق لنا تعريفا جامعاً مانعاً لمصطلح التاريخ يقول « . والحاصل أنه فن
يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت » (٤٦) .

وقد عرض شمس الدين السخاوى بعض جوانب مشكلة التاريخ
عند المسلمين وأعطانا صورة من المآخذ التى كان علماء عصره يوجهونها
إلى أهل التاريخ وحاول الدفاع عنهم (٤٧) .

دراسة وصفية لكتاب الاعلان بالتوبيخ لى نى أهل التاريخ :

الغرض من هذه الدراسة ، هو تصحيح بعض الأخطاء التى وقع
فيها من قاموا بتحقيق كتاب الاعلان للسخاوى .

وصف نسخ المخطوطة :

١ - نسخة مخطوطة سنة ٥٨٩٧ هـ :

توجد نسخة من كتاب الاعلان لم تطبع وهى الام كما يقال عنها
فى لغة التحقيق أو (أ) ولم أتبعين مكانها ولكن من خلال العبارات

(٤٥) الرؤية الحضارية للتاريخ د . قاسم عبيد قاسم ص ٢٠ .

(٤٦) الاعلان بالتوبيخ للسخاوى ص ١٧ .

(٤٧) التاريخ والمؤرخون د . حسن مؤنس ص ١١ .

الآتية أيقنت انها كما ذكرت » قال مؤلفه رحمه الله تعالى ورضي عنه
آخره وانتهى تبييضه مع اننى لم استوف فيه الغرض في أحد الربيعين
سنة سبع وتسعين وثمانمائة بمكة المشرفة وكتبه محمد بن عبد الرحمن
السخاوى وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
تسليماً « (٤٨) •

٢ - نسخة من المخطوطة سنة ٩٠٠ هـ :

وهي نسخة محفوظة في خزانة رواق الأتراك بالأزهر الشريف
بمصر وهي لم تطبع والاستدلال على ذلك ما قاله الدكتور صالح
أحمد العلى الذى ترجم الكتاب من الانجليزية الى العربية قال : «وقد
حاولت أن أرى المخطوطة التى نقلت منها مخطوطة تيمور تاريخ ٧٠٤
والتي كتبت سنة ٩٠٠ هجرية • والنص يقول : انتهى الى هنا في يوم
الخميس ثالث عشر جمادى الأولى سنة تسعمائة بمنزل كاتبه من مكة
المشرفة المفتقر الى لطف الله وعونه أبى الخير وأبى فارس محمد
المدعو عبد العزيز بن محمد بن محمد بن فهد الهاشمى المكي الشافعى
والأثرى ، عاملهم الله بلطفه الخفى » (٤٩) •

٣ - نسخة من مخطوطة « تيمور » سنة ١١١٥ هـ •

وقد تمت كتابة هذه النسخة على يد الفقير عبد الوهاب بن محى
الدين السلطى نسبة والدمشقى وطناً ومولداً غفر الله له ولوالديه ولأسائه

(٤٨) راجع النسخة المطبوعة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ تيمور طبعة

القدس ص ١٦٩ لكتاب الاعلان السخاوى •

(٤٩) فهرس المخطوطات مكتبة الأزهر رقم ١٣٢ تاريخ ، النسخة

الترجمة لروزنتال ١٩٦٣ م •

المسلمين أجمعين في يوم الخميس ثالث عشر جمادى الأولى سنة خمس عشرة ومائة وألف (٥٠) ١١٥ هـ .

٤ - نسخة أخرى من المخطوطة : مصورة :

توجد في مكتبة حلب أطلق عليها مخطوطة أحمدية ولم يدون أمامها برقم كشفها محمد راغب الطباخ عندما شاهد النسخة المطبوعة بالعربي في دمشق سنة ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م (٥١) .

٥ - نسخة من المخطوطة : مصورة :

عرفت بمخطوطة ليدن رقم ٧٤٦ قد حققها وطبعها الأستاذ روزنتال تحت عنوان علم التاريخ عند المسلمين وقد كتبها رجلاً اسمه على إبراهيم اليماني الحنفي ويشير إلى أن السخاوي كان لا يزال حياً عندما كتبت المخطوطة واعتقد أنها ترجع إلى النسخة الأولى لسنة ٨٩٧ أو النسخة الثانية سنة ٩٠٠ هـ (٥٢) .

نتائج البحث :

قدم البحث دراسة لمنهج السخاوي وقد اهتم بمنهجه في كتابه الاعلان على حسب ما توفر من معلومات وروايات عن ذلك المؤرخ .

انتهى البحث إلى أن عنوان الكتاب للنسخ التي طبعت قد حدث فيه أخطاء ربما أن تكون من الطباعة أو غيرها فالعنوان الصحيح للكتاب

(٥٠) راجع النسخة المطبوعة سنة ١٣٩٩ هـ للسخاوي التي لم يعلق

عليها في الهامش محققها المجهول ص ١٧٠ .

(٥١) راجع النسخة المترجمة للدكتور صالح أحمد العلي ص ١٥ .

(٥٢) المرجع السابق لكتاب الاعلان للدكتور صالح أحمد العلي ص ١٢ .

حسبما رجعنا الى المخطوطات فتبين أنه « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » وليس الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (٥٣) ، أو الاعلان بالتوبيخ على من ذم علم التورخ (٥٤) ، أو الاعلان بالتوبيخ لمن ذم علماء التاريخ (٥٥) .

بعض الباحثين أضاف كتابا آخر وهو « الجواهر الدرر » الى كتاب الاعلان وسماه « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » (٥٦) ، وهذا لم يرد في النسخة المخطوطة بالأزهر .

بعض الباحثين كذلك نقل كتاب الاعلان من اللغة العربية الى اللغة الانجليزية وحققه واطلق عليه اسم جديد « علم التاريخ عند المسلمين » والذي قام بهذا هو الأستاذ الفريد روزنتال (٥٧) .

الدكتور بشار عواد الذي ألف كتاب « منهج الذهبي في كتابه تاريخ الاسلام » ادعى أن كتاب الاعلان للسخاوي طبع في القاهرة سنة ١٩٧٢م وأنه يشتمل على ثلاثة أجزاء (٥٨) .

وبالرجوع الى كتاب الدكتور بشار تبين أنه اعتمد على كتاب الاعلان أكثر من ثمانين مرة ولم يحدد مثلاً ج ١ أو ج ٢ أو ج ٣ وإنما

(٥٣) راجع النسخة المطبوعة سنة ١٩٧٩م محققها مجهول .

(٥٤) راجع مقدمة تلك النسخة السابقة ص ٢ .

(٥٥) بحث منشور في مجلة العربي العدد ١٥٧ ص ١٥ .

(٥٦) راجع النسخة المترجمة للأستاذ روزنتال ص ٣٣٨ .

(٥٧) رجع مقدمة بحث الدكتور بشار عواد علم التاريخ الاسلامي

ص ٣٠ .

(٥٨) راجع الذهبي ومنهجه في كتابه الاسلام ص ٢٢٨ .

اكتفى في هامش كتابه بلفظ الاعلان كذا (٥٩) وهذا يدل على أن الكتاب لم يشتمل على أجزاء ثلاث .

وبالرجوع الى النسخ التي طبعت لكتاب الاعلان سواء النسخة التي طبعت سنة ١٩٣٠م أو التي طبعت سنة ١٩٦٣م أو التي طبعت سنة ١٩٧٩م نجد أن جميعها اشتملت على جزء واحد فمثلا طبعة ١٩٧٩م تقع في مائة وأربع وسبعين صفحة من القطع الكبير وان آخر صفحة بها ١٧٤ فقط .

والنسخة التي طبعت مترجمة للدكتور الصالح أحمد العلي سنة ١٩٦٣م تقع في أربع مائة وستين صفحة من القطع الكبير أي أن آخرها صفحة ٤٦٠ ، بينما يشير الدكتور بشار في كتابه الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الاسلام الى ص ١٥٧ هامش رقم ٧ الاعلان ص ٦٧٥ ، ص ١٦٩ هامش رقم ١ الاعلان ص ٧٢١ ، ٧٢٣ .

واعتقد أن كتاب الاعلان جزء واحد ولا توجد فيه مثل هذه الصفحات وربما أن يكون الدكتور بشار على صواب اذا كان الكتاب قد طبع واشتمل على ثلاثة أجزاء كما ذكر أو انه قد اختلط عليه كتاب الاعلان ، وكتاب علم التاريخ عند المسلمين . وكلاهما للأستاذ روزنتال .

وهذا جهد مقل وأسأل الله القدير أن يلمهنا الصواب والرشد .

دكتور / محمد نيسان
جامعة الأزهر بأسسيوط

المصادر والمراجع

الكافيجي :

• محيي الدين محمد بن سليمان ت ٨٧٩ هـ

المختصر المفيد في علم التاريخ (مخطوط)

السيوطي جلال الدين عبد ابن أبي بكر ت ٩١١ هـ

الكافيجي : محيي الدين محمد بن سليمان ت ٨٧٩ هـ

الشماريخ في علم التاريخ (مخطوط)

• الكاوي على تاريخ السخاوي محققه فيليب حني

الفارسي : عبد الرحمن بن عبد القادر ت ١٠٩٦ هـ

• زهرة الشماريخ في علم التاريخ (مخطوط)

قاسم عبده قاسم : دكتور

• الرؤية الحضرية للتاريخ دار المعارف ١٩٨٥ م

حسين مؤنس : دكتور

• التاريخ والمؤرخون دراسة في علم التاريخ دار المعارف

صلاح الدين المنجد :

• أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب ١٩٦٣ م

شماكر مصطفى : دكتور

• التاريخ العربي والمؤرخون ج ١

المقرئزي : تقى الدين أحمد بن علي

• كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك

ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحى ت ١٠٨٩ هـ

• شذرات الذهب في أخبار من ذهب

راوس : (أ - ل)

• التاريخ وأثره وفائدته ترجمة مجدى الدين حنفى

سيادة كاشفة : دكتور

مصادر التاريخ الاسلامي ومناهج البحث فيه .

عبد العزيز الدوري : دكتور

بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب .

عبد الحميد العبادي : دكتور

التاريخ عند العرب .

محمد عبد الغني حسن : دكتور

التراجم والسير دار المعارف .

سعيد عاشور : دكتور

الممالك في مصر والشام .

ابن خلدون : دكتور

مقدمة ابن خلدون .

السرخاوي : دكتور

الضوء الالامع في أعيان أهل القرن التاسع .

الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ .

التبر المسبوك في ذيل السلوك .

الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ .

الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ .

الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ .

الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ .

الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ .

الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ .

الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ .

العُصَامِيَّةُ وَالْفَصْحَى

تاريخ ، وعلاقة

د. عبد الفتاح أبو الفتوح إبراهيم
مدرس بقسم أصول اللغة

تمهيد :

من المسلم به أننا لا نعرف على وجه اليقين ، متى كانت النشأة الأولى لأمة العرب في شبه الجزيرة العربية ، وكذلك لا نعرف النشأة الأولى للغة العربية ، تلك اللغة الفصحى التي وصلت إلينا في أوج اكتمالها مدونة على وجه اليقين ، لأول مرة في تاريخها الطويل ، من خلال القرآن الكريم ، الذي يعد أول كتاب مدون بالعربية الفصحى . والذي عليه جمهرة الباحثين ، واستقر عليه الرأي منذ أمد قريب ، أن اللغة العربية بلهجاتها التي كانت منتشرة في شبه الجزيرة العربية ، تبعاً للقبائل المختلفة في البادية والحضر ، اكتملت ونضجت خلال قرون طويلة ، دلت عليها تلك النقوش العربية القديمة ، التي يرجع أقدمها إلى القرن الثاني قبل الميلاد ، وهي النقوش اللحيانية (١) . وأقدم النصوص المتكاملة بالعربية الفصحى بلهجاتها المختلفة التي وصلت إلينا ، كانت قبل الإسلام بقرن ونصف تقريباً ممثلة في الأدب الجاهلي ، وبخاصة الشعر .

(١) تنسب إلى قبائل لحيان التي يرجح أنها من قبائل ثمود التي كانت تسكن شمال الحجاز . وينظر لمزيد من التفصيل تاريخ اللغات السامية (الباب السادس ص ١٦١ وما بعدها) لاسرائيل وفنسون ، وفقه اللغة ص ٩٨ د . علي عبد الواحد وافي ، وفصول في فقه العربية ص ٥٠ د . رمضان عبد التواب .

فمؤرخو الأدب العربي (٢) ، يحددون الفترة الزمنية للعصر الجاهلي بمائة وخمسين عاما قبل الاسلام ، وهي أقدم فترة زمنية وصلت اليها خلالها أقدم الأشعار التي صحت روايتها ، وهي مطولات وقصائد مهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب ، ومقطعات نفر من الشعراء قريبي العهد به أمثال : العنبر بن عمرو بن قميم ، ودريد ابن زيد ، والأفوه الأودي ، وأبي داود الأيادي .

ثم قصائد امرئ القيس بن حجر الكندي ، وعلقمة ، وزهير ابن أبي سلمى وطرفة ، وغيرهم من شعراء المملكات .

ثم ما لبثت تلك اللهجات العربية أن التقت في لغة نموذجية واحدة هي العربية الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم ، وتوحدت عليها قبائل العرب جميعا ، والأقطار التي دخلت في الاسلام تحت ظلال القرآن الكريم .

وطلأت على الفصحى أمور كثيرة ، باعدت بينها وبين المتحدثين بها حتى غدا المالحن متفشيا بين المعوام والخواص الى أن تعددت اللهجات في الأقطار العربية ، وصار لكل دولة لهجتها العامية التي تميزها عن غيرها — وهذا ما سوف نعرض له بالتفصيل في هذا البحث ، الذي نؤرخ فيه للعامية ، مبينين العلاقة بينها وبين الفصحى في تاريخها الطويل حتى العصر الحديث ، فالعامية ما هي الا لغة محرفة عن الفصحى ، أو اندرقت عنها ، وليست لهجة منفصلة عنها ، أو لغة مغايرة لها .

(٢) ينظر الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص ١٠ ، ٤٣ ، ٤٤

للمشيخ أحمد الاسكندري والشيخ مصطفى عناني ، وأدبيات اللغة العربية

ص ٤ ، ٨ لمحمد عاطف بك وآخرين .

وقد يكون من المفيد أن نعرف بمعنى اللغة واللهجة ، والعلاقة بينهما ، ليتضح مفهومهما لذكرهما في البحث .

اللغة :

كما يذكر ابن جنى : « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » (٣) .

ويعرفها ابن خلدون بقوله : « هي عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لسانى ، ناشئة عن المقصد لأفادة الكلام ... وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم » (٤) .

وعند فندريس من علماء الغرب المحدثين : « نظام من الرموز الصوتية » (٥) .

واللهجة :

في اصطلاح علم اللغة الحديث لها تعريفات عديدة منها « أنها مجموعة من الصفات اللغوية ، تنتمى الى بيئة خاصة ، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة » (٦) .

وفي تعريف آخر هي : « طريقة معينة في الاستعمال اللغوى ، توجد في بيئة خاصة ، وهذه الطريقة تكون صوتية في غالب الأحيان » (٧) .

وفي المعجم الروسيط : « طريقة من طرق الأداء في اللغة » (٨) .

(٣) الخصائص ٣٣/١ .

(٤) مقدمة ص ٥١٤ .

(٥) اللغة ص ٣١ ترجمة د. الدواخل ، ود. القصاص .

(٦) في اللهجات العربية ص ١٦ د. ابراهيم أنيس .

(٧) اللغة العربية ، خصائصها وسماتها ص ٧٢ د. عبد الغفار حلال .

(٨) المعجم الروسيط ٨٤١/٢ مادة « لهج » ؟

وبالنظر في التعريفات السابقة ، نرى أن الخلاف اللهجي ، لا يقتصر على الجانب الصوتي وحده ، وإنما يتعداه ليشمل الظواهر اللغوية كلها ، الصوتية ، والصرفية ، والنحوية والدلالية ، وأن كان الغالب هو الجانب الصوتي .

العلاقة بين اللغة واللهجة :

هي العلاقة بين العام (اللغة) والخاص (اللهجة) ، فاللهجة جزء من بيئة لغوية أوسع وأشمل ، تضم عدة لهجات ، لكل منها بعض الخصائص التي تتفرد بها وتميزها عن غيرها ، مع اشتراكها جميعاً في كثير من الخصائص اللغوية العامة .

فخصائص العربية الفصحى التي تميزت بها اللهجة القرشية ، تشترك في كثير منها لهجات تهيم ، وأسود ، وهذيل وغيرهم ، إلا أنه أثر عن بعض هذه اللهجات ما سمي بالهفوات اللهجية كمنعته تهيم ، وقطعة طيء ، وتلتلة ربيعة وأسود ، وعجمة قضاة وغير ذلك من الهفوات التي لا تؤثر على الخصائص العامة الغالبة .

ولذا فهذا التصنيف اللغوي للغة واللهجة لا يجعل بينهما انفصالاً وانقطاعاً ، والاصارت اللهجة لغة مغيرة ، وإنما هو تنظيم تعليمي ، وتصنيف منهجي في الدرس اللغوي ، لنقف من خلاله على الفروق في المظاهر اللغوية بين اللهجات المختلفة ، واللغة الشائعة المشتركة أما من الناحية الوظيفية ، أو الاستعمال اللغوي فليس ثمة فرق بينهما ، « فكل منهما كاف ومؤد للغرض أداء واقياً عند أصحابه ، بمعنى أن النظام اللغوي الذي تقوم عليه اللهجة يؤدي وظيفته ، ويأبى طليسة أبنائها تماماً كالنظام اللغوي بالنسبة للغة » (٩) .

(٩) اللهجات العربية نشأتها وخصائصها ص ٤٢ د . عبد الله ربيع .

تاريخ العامية

العامية :

هي تلك اللغة ، أو اللهجة التي نتحدث بها في حياتنا اليومية ،
مهما تباينت الطبقات ، واختلفت البيئات ، وتنوعت الأغراض ، ويكتب
بهما أدباء العامية ، وشعراؤها .

وهذا المصطلح له أسماء عديدة عند اللغويين منها « اللغة العامية »
والشكل اللغوي الدارج ، واللهجة الشائعة ، واللغة المحكية ، واللهجة
العربية العامية ، واللهجة الدارجة ، واللهجة العامية ، والعربية
العامية ، واللغة الدارجة ، والكلام الدارج ، والكلام العامي ، ولغة
الشعب » (١٠) .

وتلك اللغة أو اللهجة العامية ، لم تنشأ طفرة في عصر من العصور
وانما تضافرت في خلقها عوامل ، ومرت من حين بدايتها الى شيوعها
وانتشارها بأطوار ومراحل .

أما العوامل فكثيرة ، منها السياسية والاجتماعية ، والاقتصادية ،
والصراع اللغوي ، والتواصل الحضاري ، ويؤازرها ما يتصل بالجهاز
الصوتي في الانسان ، كالأخطاء السمعية ، وسقوط بعض الأصوات
الضعيفة عند الكلام ، وانحراف الأصوات اللينة أو حذفها .

وهناك عامل أخطر من العوامل السابقة ، وهو انهيار القيم
الدينية والأخلاق الإسلامية بالنسبة عن كتاب الله وسنة رسول الله ،
لأن من يتهاون في دينه ، يسهل عليه كثيرا التهاون في لغة دينه .

(١٠) فقه اللغة العربية وخصائصها ص ١٤٤ ، ١٤٥ د . اميل

وإذا تتبعنا تاريخ العامية منذ البداية الأولى ، لوجدنا أنها كانت قديمة ومواكبة لاكتمال العربية الفصحى ، وذلك منذ بدأ اللحن يظهر في بعض الحالات الفردية ، التي لا تمثل ظاهرة تسترعى الأنظار في أول أمرها ، ولكنها سرعان ما كثرت وانتشرت ، وأصبحت في العصور التالية لعصر النبوة ، ظاهرة خطيرة استوقفت العلماء واستقرعت أنظار الباحثين ، فسجلوها في كتبهم ، ودونوها في مؤلفاتهم كاشفين مواطن الخطأ في تلك الظواهر الطارئة على الفصحى ، موضحين وجوه الصحة والصواب ، ووضعوا قواعد وضوابط في النحو العربي تعصم مراعاتها اللسان من الخطأ .

وسوف نؤرخ لهذه المظاهرة على سبيل التجوز ، لأنه من الصعب التأريخ الكامل عقل هذه الظواهر اللغوية بالمعنى المفهوم (١١) للتاريخ أو التطور اللغوي التاريخي .

يذهب الدكتور حسن عون إلى أن اللحن قد بدأ قبل الإسلام لاعتبارات واقعية ومنطقية ، منها اتخاذ بعض العرب الأماة غير العربيات موردا للرزق ، مما أثرت لغاتهم غير العربية في العربية ويضرب مثلا بشاعر مشهور هو عنقرة بن شداد المتوفى (٦١٥ م) .

حيث كانت أمه حبشية اسمها زبيبة . ولكنه لم يتتبع أثر الحبشية في لغته .

ثم في أيام ظهور الإسلام نجد من غير العرب صهييا الرومي ، وبلالا الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وغير ذلك ممن كان لهم أثر في تسرب بعض الكلمات من لغاتهم إلى العربية ، ناهيك عن المصاهرة الزوجية التي لها أبلغ الأثر في اللغة .

والواقف اللغوي من وجهة نظري يؤيد بعض ما ذهب اليه
الدكتور حسن عون ، فالرحلة الأولى للحن بدأت بالخطأ في المعاني
حيث أثر عن بعض شعراء الجاهلية نماذج من هذه الأخطاء .

— من ذلك قول زهير بن أبي سلمى في وصفه للصفادع (١٢) :

يخرجن من شربات مأوها طحل
على الجذوع يخفن الغمر والغرقا

الشربات : جمع شربة ، وهي حويض يتخذ حول أصول النخلة
فيرويها ، والطحل : الكدر ، ويريد بالجذوع : جذوع النخل .

ومذكر المرزبانى في الموشح «٤٧» أن هذا أنكر على زهير ، لأن
الصفادع لا تخرج من الماء ، لأنها تخاف الغمر والغرق ، وإنما تطلب
الشطوط لتبيض هناك وتفرخ .

ومن هذه الأخطاء قول أبي ذؤيب الهزلى في الدرة (١٣) :

فجاء بها ما شئت من لطيمية
يدوم الفرات حولها ويموج

اللطيمية : نسبة الى اللطيمة ، وهي غير كانت تحمل البز والعطر
ونحوهما الى أحياء العرب ، وكانت مما تحمل ، الدر . وقوله يدوم
الفرات : أى يسكن ، ويقول الأصمعي : الفرات : العذب ، ولا يجىء
منه الدر ، الا أنه غلط وظن أن الدرة اذا كانت في الماء العذب فليس
لها شبه ، ولم يعلم أنها لا تكون في الماء العذب ، « .

(١٢) ينظر الأخطاء اللغوية الشائعة ص ٢ للأستاذ محمد علي النجار

(١٣) السابق ص ٢ . وأبو ذؤيب من الشعراء المخضرمين .

أما الخطأ في عهد النبوة فكانت بدايته تقتصل بحركات الاعراب
لأن أول ما اختلف من كلام العرب ، وأحوج الى التعلم الاعراب ، لأن
اللحن ظهر في كلام الموالي ، والمتعربين من عهد النبي - ﷺ - ،
فقد لحن رجل بحضرته فقال : « أرشدوا أخاكم فقد ضل » (١٤) •

وروى أن أحد ولادة عمر - رضي الله عنه - كتب اليه كتابا لحن
فيه فكتب اليه عمر : أن قنع كاتبك سوطا (١٥) •

ومن ذلك قصة الأعرابي المشهورة إذ سمع قارئاً يقرأ قول الله
تعالى « أن الله بريء من المشركين ورسوله » بالكسر في « رسوله » (١٦) ،
فقال الأعرابي : أو قد بريء الله من رسوله ؟! أن يكن الله تعالى بريء
من رسوله ، فأنا أبرأ منه » (١٧) •

وحكاية أبي الأسود الدؤلي (١٨) مع ابنته مشهورة حيث أخطأت
في ضبط الجملة إذ قالت لأبيها وهي تريد التعجب - يا أبت ما أحسن
السماء (بضم أحسن ، وكسر السماء بالاضافة) قال أي بخية نجومها •
قالت لم أرد أي شيء فيها أحسن ؟ إنما تعجبت من حسنها • قال :
إذن فقولي ما أحسن السماء ! (بالفتحة على الكلمتين) •

(١٤) انظر الخصائص لابن جني ٨/٢ •

(١٥) السابق •

(١٦) القراءة الصحيحة المشهورة بضم اللام على الاستثناف ، أما
القراءة بالكسر فهي خاطئة لأنها تفيد عطف الرسول على المشركين ، وهذا
ما استوجب تعجب الأعرابي حين سمعها • (من الآية رقم ٣ من سورة
التوبة) •

(١٧) ينظر الخصائص ٨/٢ ونزهة الألباء لابن الأنباري ص ٥ •

(١٨) ينظر أخبار النحويين البصريين للسيرافى ص ١٤ •

ومراتب النحويين لأبي الطيب اللغوى ص ٢٦ •

تلك البوادر اللحنية في حركات الاعراب ، كانت الحافظ الأول
الذى استنهض همم علماء العربية لوضع قواعد النحو العربى ، وعلى
رأسهم أبا الأسود الدؤلى الذى وضع الأساس الأول لهذه القواعد •

ولا نريد أن نطيل في سرد النماذج ، فكتب اللغة ، والأدب بها
الكثير ، وكذا كتب لحن العامة والفصيح •

ثم تلت المرحلتين السابقتين ، مرحلة جديدة في اللحن ، حيث
تطرق الى بنية الكلمة ، ودلالة الألفاظ ، وكان ذلك بعد عصر الراشدين ،
في سكان الحاضرة حتى انه « لم يأت زمن الحجاج حتى فشا اللحن في
كلمات اللغة ، وحتى صار يستهجن الفصيح في كلمات العامة » (١٩) •
ثم تلت هذه المرحلة ، مراحل متعاقبة ، وكل منها تسلم اللغة
للتالية وقد أصابها من الانحراف والتغيير ما جعلها غريبة بين أهلها ،
وكلما « سادت العامة على خطها المنحرف ، وامتد سيرها هذا ، وكثر
توغل العرب الفاتحين في بلاد الأعاجم ، وكلما امتد السير زادت بعدا
عن الفصحى ، الا أن هذا الطريق لم يكن ممهدا ، بل كانت تعترضه
عقبات من عناية العلماء بالفصحى لما رأوا ما منيت به من التحريف ،
فأخذوا في محاربة هذا الداء ، وصنفوا في تقويم العامية ووردها الى
الفصحى ، وتطهيرها ، أو تطهير أقلام الكتاب على الأقل من اللحن ،
ونجد كثيرا من هذه الجهود في مثل أدب الكاتب لابن قتيبة ، ودرة
الغواص للحريرى » (٢٠) • وغيرهما من كتب لحن العامة •

ولم يقتصر الأمر في تأثر العربية بلغات البلاد التى فتحوها ،
وانما تعداه الى أكثر من ذلك ، حيث امتزجت الأمة العربية « بالفرس

(١٩) ينظر مولد اللغة ص ١٢٧ للعلامة الشيخ أحمد رضا •

(٢٠) السابق ص ١٢٧ ، ١٢٨ •

والروم واليونان ، وغيرهم من الأمم الأجنبية ، امقترجا قويا تمثل في مصاهرة العرب هذه الأمم ، فاتخذوا منهم الزوجات والجوارى ، قانحين لهم البنات والأولاد ونحن نعلم أن للامهات تأثيرا كبيرا على بناتهن ، وأولادهن ، وأزواجهن ، بفضل التربية ، والمعاشرة ، مما جعل اللمعة الأعجمية تشيع بين الناس حتى الشعراء والأمراء منهم » (٢١) . لأنها شاعت وكثرت في هذه المرحلة .

وأصدق مثال (٢٢) على هذا عبيد الله بن زياد ، الذى أصبح أميرا على خراسان ثم الكوفة ، والبصرة ، يحرف فى كلامه فينطق بما يعاب عليه ، لأن أمة فارسية اسمها مرجانة ، من ذلك قوله : « افتحصوا سميرفكم » يريد سلوا سميرفكم . مما فتح مجالا لهجو يزيد بن المفرغ له حيث قال :

ويوم فتحت سيفك من بعيد
أضعت وكل أمرك ضائع

وهو صاحب المراثية المشهورة التى نظمها بعد موت المغيرة بن المهلب والقتى جاء فيها .

فان مررت بقبوه فاعقر له
كرم المطى وكل طرف سباح

فقال له : يزيد بن المهلب بعد ما أنشده هذه القصيدة : أفعقرت أنت عنده ؟ قال : كنت على بنت الهمار ، يريد الحمار .

(٢١) مجلة مجمع اللغة العربية العدد ٤١ ص ١٥٥ بحث بعنوان

« بين العامية والفصحى » للأستاذ عبد الرازق البصير .

(٢٢) السابق ص ١٥٥ ، ١٥٦ . ولد عبد الله بن زياد فى أصفهان

وانشأ بها ، ثم انتقل الى خراسان ولم يزل بها حتى مات ٦٧ هـ ٦٨٦ م فى

(الأعلام ص ٤٥٥) .

ودعا زياد غلامه فأرسله في حاجة فأبطأ ، فلما جاءه قال : منذ
لادن سأوتك الى أن قلت لبي ، ما كنت تسناً ؟ •

يبىد : منذ لادن دعوتك الى أن قلت لبيك ، ما كنت تصنع ؟ •

وهذا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ —
٨٦٨ م) بروى نماذج من هذا اللحن أو الانحراف اللغوى • منها :

— قال يوسف بن خالد التيمى لعمرو بن عبير : ما تقول في دجاجة
ذبحت من قفائها ؟ قال له عمرو : أحسن • قال : من قفاؤها • قال :
أحسن • قال : من قفائها — قال له : من عنك هذا ؟ قل من قفاها
واسترح (٢٣) •

— وذكر أن أحد الموالى نطق حمار وحش : همار وهش ، والعرير :
اير (٢٤) •

وهذا ابن جنى (المتوفى سنة ٣٩٢) يعقد في كتابه الخصائص باباً
في أغلاط العرب (٢٥) ، وآخر في سقطات العلماء (٢٦) •

ومن أخطاء الشعراء :

أبلغ أبا دختنوس مألكة

غير الذى قد يقال ملكذب (٢٧)

(٢٣) البيان والتبيين ٣١٩/٢ •

(٢٤) السابق ٣٢٠/٢ •

(٢٥) انظر الخصائص ٢٧٣/٣ •

(٢٦) السابق ٢٨٢/٣ •

(٢٧) أبو دختنوس كنية لقيط بن ذرارة ، ودختنوس ابنته ،

سميها باسم كسرى (انظر السابق ٣١١/١ • وملكذب : أصلها من

الكذب حذفت النون) •

يرى ابن جنى أن « مألكة » خطأ ، إذ أن أصلها « لأك » فهي
ملئكة (٢٨) •

ويقول في موضع آخر (٢٩) : ومن أغلاطهم ما يتعاليون به في
الألفاظ ، والمعانى من نحو قول ذى الرمة :
والجيد من أدمانة عتود

فقيل : إنما يقال أدماء و آدم • والأدماء جمع ، كأحمر و حمران •
وأنت لا تقول جمرانة ، ولا صفرانة •

ويسجل الحريري (المتوفى سنة ٥١٦) في كتابه درة الغواص في
أوهام الخواص نماذج كثيرة من هذه اللحن وتلك الأوهام المخالفة
لقاييس العربية وقواعد النحاة ، منها قوله : « ومن مفاحش ألحان
العامة إلحاقهم هاء التانيث بأول فيقولون : الأول كناية عن الأولى ،
ولم يسمع في كلام العرب ادخالها على « أفعل » الذى هو صفة مثل
أحمر وأبيض ، ولا على « أفعل » الذى هو للتفضيل نحو أفضل
وأول » (٣٠) •

« ويقولون في المنسوب الى الفاكهة والبقلاء ••• فاكهانى ،
وباقلانى فيخطئون فيه ، لأن العرب لم يلحقوا الألف والنون في النسب
إلا بأسماء محصورة زيدتا فيها للمبالغة ؛ لقولهم للعظيم الرقبة :
رقبانى ، والكثيف الحية لحيانى ••• وللمنسوب الى الروح :

(٢٨) الخصائص ٢٧٤/٣ ، ٢٧٥ •

(٢٩) السابق ٢٨٠/٣ ، والأدمانة : يربدها الطيبة البيضاء •

وانعتود : التى ترعى وحدها وأصله فى النوق •

(٣٠) درة الغواص ص ١٧٠ •

روحاني ... والى بائع الصيدل والصيدين (اسمين للعقاقير)
صيدلاني ، وصيواني « (٣١) .

وفي ذيل الفصيح للبغدادى (المتوفى سنة ٦٢٩ هـ) نرى كلمات
كثيرة قد اشتهرت وذاعت في عصره ما زالت موجودة كما هي في
عاميتنا ، من ذلك .

١ - الشحات : وهو السائل . ويعقب البغدادى على هذا الخطأ
الشائم بقوله : لا يقال بالتاء ، فهو شحاذ (٣٢) .

٢ - يشتر (٣٣) : التى نسمعها كثيرا في ريغنا ، وهي محرفة عن
الفعل يجتر . وهو يفتعل من الجر أى يجذب الحيوان الغذاء من جوفه
فيعيد مضغه .

وهما يطرد اللحن فيه في عصره ، ومازال شائعا في عاميتنا ،
قولهم : في اسم الفاعل المعتل العين بغير همزة ، وهو بالهمز فقط ،
نحو القائم ، والقاتل ، والبائع ، والسائر « أى انهم يتقوون قائم ،
وقايل وبائع وسائر » (٣٤) ولعل ذلك فيه تسهيل للهمزة وهي لهجة
مشهورة في قریش .

وما أن جاء القرن الثامن الهجرى حتى اختلفت لهجات الأقطار
العربية والاسلامية التى استبدلت لغتها بالعربية الفصحى ابان
الفتوحات الاسلامية ، وأصبح لكل قطر لهجته التى تميزه عن الآخر ،
وجميعها تباينت عن الفصحى ، أو لغة مضر كما يسميها ابن خلدون

(٣١) السابق ص ١١٢ .

(٣٢) ذيل الفصيح ص ١٦ .

(٣٣) السابق ص ١٩ ، وانظر ص ٢٣ .

(٣٤) السابق ص ٢٣ .

(المتوفى سنة ٨٠٨ هـ) الذى يسجل الواقع اللغوى فى عصره بقوله :
 « اعلم أن ملكة اللسان المضرى لهذا العهد قد ذهبت وفسدت ، ولغة
 أهل الجيل كُتهم ، مغايرة اللغة مضر الذى نزل بهما القرآن ، وأما هى
 لغة أخرى من امتزاج العجمة بها » (٣٥) •

ثم قال تحت « فصل فى أن لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة
 بنفسها مخالفة للغة مضر » : اعلم أن عرف التخاطب فى الأمصار وبين
 الحضر ليس بلغة مضر القديمة ، ولا بلغة أهل الجيل ، بل هى لغة
 أخرى قائمة بنفسها ، بعيدة عن لغة مضر ، وعن لغة هذا الجيل العربى
 الذى لعهدنا ، وهى عن لغة مضر أبعد • فأما أنها لغة قائمة بنفسها
 فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التغاير الذى يعد عند صناعة أهل
 النحو لنا •

وهى مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار فى اصطلاحاتهم ، فلغة
 أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب ، وكذا أهل الأندلس
 معها ، وكل منهم متوصل بلغته الى تأدية مقصوده ، والابانة عما فى
 نفسه ، وهذا معنى اللسان واللغة ، وفقدان الاعراب ليس بضائر
 لهم • • • • •

وأما أنهما أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجيل ، فلأن البعد
 عن اللسان إنما هو بمخالفة العجمة ، فمن خالط العجم أكثر كانت لغته
 عن ذلك اللسان الأصلى أبعد ، لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم • • • • •
 وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التى كانت للعرب ، ومن الملكة
 الثانية التى للعجم ، فعلى مقدار ما يسمعون من العجمة ويربون عليه
 يبعدون عن الملكة الأولى ، واعتبر ذلك فى أمصار إفريقية والمغرب

والأندلس ، والمشرق ، أما أفريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم بوفور : مرانها بهم ، ولم يكذبوا عنهم مضر ولا جيل ، فغلبت العجمة فيها على اللسان العربى الذى كان لهم ، وصارت لغة أخرى ممتازة ، والعجمة فيها أغلب * * * * * » (٣٦) •

وبهذا يتأكد لنا ما سبق ذكره من أن هذه العامية كانت نتاج عوامل كثيرة ، خلال قرون عديدة ، اختمرت فيها هذه اللحون وكثرت ثم شاعت حتى أصبحت فى عصرنا هذا لهجة عامية لها بعض الخصائص التى تميزها ن الفصحى ، وصارت فى مد وجزر خلال هذا القرن ، فأدياننا قطعى ، وأدياننا متحسر ، فى الحديث اليومى ، وغيره من مناحى الأدب كالشعر العامى ، والقصة ، والمسرحية وغير ذلك من ألوان الفنون •

ولكن الأمر لم يتف عند حد سريان العامية فى مسارها الطبيعى دون تدخل ، أو تنظيم لها ، أو توجيه من المارقين على الفصحى ، أو من أعدائها الخارجين عنها ، وإنما ظهرت فى الأفق دعوة ، قام بها أعداء الفصحى يدعون الى اتخاذ العامية بديلاً عنها ، واتخذت هذه الدعوة أشكالاً ، وانقسمت الى مذاهب واتجاهات ، وسوف نعرض لتاريخ هذه الدعوة من بدايتها حتى الآن •

الدعوة الى العامية :

ان الدعوة الى العامية ، لتحل محل الفصحى ، كانت تصرف الى غرض أساسى هو القضاء على القرآن الكريم ، الذى رأى فيه أعداء الاسلام القوة العظمى التى تجمع المسلمين ، وتوحددهم فى لغة واحدة • تلك اللغة التى تربط المسلمين بتراثهم العلمى والحضارى والدينى ، واللغوى •

وهذا « الاتحاد اللغوي » (٣٧) كما يقول الأستاذ عباس حسن :
 « دعوة قديمة جديدة ، تظهر حيناً ، وتختفي حيناً على حسب ما يحتاج
 لها من جو ملائم ، وفرصة مهيأة » (٣٨) .

ولقد بدأت هذه الدعوة كعمل منظم ، وبرنامج مخطط منذ القرن
 التاسع عشر الميلادي ، وذلك على أيدي مجموعة من المستشرقين .
 « ففي عام ١٨٨٠م على التحديد كانت البداية الصريحة المكتوبة ،
 والمنشورة ، حينما نشر الدكتور « ولهم سبيلنا » كتابه « قواعد
 العربية في العامية المصرية » ، وتنبأ فيه بموت العربية الفصحى ، كما
 ماتت اللاتينية » (٣٩) .

ولكن دعوته تلك قد تحطمت على أعقاب الفصحى ، كما أن ذبوعته
 لم تتحقق ، ولن تتحقق ، ما دام يتلى كتاب الله ويدرس ، ومعه سنة
 رسول الله — ﷺ — باقية على مر الزمن ، وما بقي الأثر عامراً
 بعلمائه ، وهؤديا لرسائله ، مع معاهد العلم الأخرى في مصر والعالم
 الإسلامي .

وهذه البداية الصريحة المعلنة قد سبقها أعداد وتجهيزات وتخطيط
 ودراسة قبل ذلك التاريخ المذكور بأكثر من قرن ، ويتجلى هذا في
 اهتمام الأجانب بدراسة اللهجات العامية ، والتركيز عليها في بحوثهم ،
 دون اللهجات الفصيحة ، أو العربية الفصحى بوجه عام ، وهذا الاهتمام
 له مظاهره ودلائله ، « حيث أدخلوا تدريس اللهجات العامية في

(٣٧) اللغة والنحو ص ٢٥٣ للأستاذ عباس حسن .

(٣٨) السابق ص ٢٥٢ .

(٣٩) ينظر اجتنا والحياة ص ١٠١ دكتورة بنت الشاطيء . وامل

نشر هذه الدعوة باللغة الألمانية أبعدها عن التأثير في المجال الفكري

العربي . ينظر فقه اللغة ص ١٥١ د . أميل يعقوب .

مدارسهم وجامعاتهم ، كما أنشأوا مدارس خاصة لدراسة هذه اللهجات ، واستعانوا بالمستشرقين المهتمين بهذه الدراسات ، وكذلك الشرقيين الذين كانوا يعملون في بلادهم » .

١ - ففي إيطاليا : أسست سنة ١٧٢٧م مدرسة نابولي للدروس الشرقية .

٢ - وفي النمسا : أنشئت مدرسة « فينا » سنة ١٧٥٤م .

٣ - وفي فرنسا : أنشئت مدرسة باريس للغات الشرقية الحية سنة ١٧٥٩م . وقام بالتدريس بها المستشرق الفرنسي سلفتردي ساسي ، والسوري ميخائيل الصباغ ، الذي شاركه في تدريس العربية ولهجاتها المحلية ، وألف كتابا « في العامية المصرية والشامية » وذلك في سنة ١٨٨١م .

٤ - وفي روسيا : أنشئت في موسكو سنة ١٨١٤م مدرسة « لازارف » للغات الشرقية . ودرس فيها محمد عياد الطنطاوي ، وألف كتابا في العامية المصرية بعنوان « أحسن النخب في معرفة لسان العرب » وذلك في سنة ١٨٤٨م .

٥ - في ألمانيا : أنشئ مكتب في « برلين » لتدريس اللغات الشرقية ومنها العربية ولهجاتها المحلية ، وكان من المدرسين العامية فيها دكتور أحمد والي ، والعامية الشامية ، أمين معريس ، والدكتور مارتن هارتن الألماني الذي كان يعمل « قنصلا » لبلاده في بيروت .

٦ - وفي المجر : أنشئت الكلية الملكية لعلوم الاقتصاد الشرقية ، ودرس اللهجات ، ومنها العربية سنة ١٨٩٠م .

٧ - في إنجلترا : أنشأت جامعة لندن في أوائل القرن التاسع عشر فرعا فيها لتدريس العربية الفصحى والعامية ، وكان من

مدرسيها : حبيب أنطوان السلمونى ، الألفانى ، ولما ذهب الى لندن
أحمد فارس الشدياق ، اقترح عليه تأليف كتاب فى العربية المحكية ،
أى العامية ، فوضعه باللغة الانجليزية سنة ١٨٥٦م وسماه « أصول
اللغة العربية المحكية » (٤٠) .

والأمر الواضح — رغم خداع بعض المسميات — أن الهدف
الحقيقى لتلك المدارس أو المعاهد وفروعها هو تبيان صعوبة الفصحى
ومشكلاتها بجانب سهولة العامية ، مما يخدم فكرهم وفكرتهم ،
ويحقق هدفهم .

وإذا نظرنا الى داخل مصر نرى أن دعوة الأجانب الى العامية ،
قد بدت بوضوح فى كثرة مؤلفاتهم ، التى تدعو الى تيسير اللهجات
العامية ونبذ الفصحى ، تحقيقا لأغراضهم .

من هذه المؤلفات (٤١) :

١ — « قواعد العربية العامية فى مصر » للدكتور ولهم سببنا
الألفانى الذى كان يعمل مديرا لدار الكتب المصرية .

٢ — « اللهجة العربية الحديثة فى مصر » للدكتور كارل فوارز
الألمانى وكان مديرا — كذلك — لدار الكتب المصرية ، وأحد كتاب
دائرة المعارف الإسلامية .

٣ — « العربية المحكية فى مصر » للكاتب الانجليزى سلدن ولور .

٤ — « المقتضب فى عربية مصر » للمقاضى الانجليزى بالمحاكم
الأهلية المصرية « فيلوت باول » .

(٤٠) تاريخ الدعوة الى العامية فى مصر ص ٩ وما بعدها . ننوسة

زكريا .

(٤١) السابق ص ١٧ — وما بعدها .

• — محاضرة لمهندس الري الانجليزى بالقاهرة « ولكوكس »
بعضران : لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن ؟ « وذلك فى
سنة ١٨٩٣م • وفيها نسب تأخر المصريين الى تمسكهم باللغة العربية
الفصحى •

وهذه الدعوة التى دعا اليها وتحمس اليها الأجانب وبعض
المستشرقين وجدت من يؤيدها ويدافع عنها فى داخل الأمة العربية ،
حيث اتفقت أهدافه ومآربه مع أهداف خصوم الفصحى من خارج
البلاد ، وان كن بعض الداعين الشرفاء لدراسة العامية لم يكن لهم
منهج الخصوم ، ولا هدفهم ، وانما كانت تدفعهم عوامل أخرى تتفق
مع ما يهدف اليه « علم اللغة الحديث » من خلال فرع مهم من
فروعه ، وهو علم اللهجات ، وذلك لغرض الارتقاء بالعامية الى
الفصحى ، والوقوف بهذه الدراسة على مناحى التغيير والانصراف ،
وعوامل انحدار الفصحى الى العامية ، لوضع القواعد والضوابط للحد
من هذا التردى ، ومعالجة أوجه التصور فى الأسباب •

ولكننا حينما نواجه الواقع اللغوى منذ بداية هذا القرن حتى
الآن ، لا بد أن نعترف بوجود الثنائية اللغوية ، أو الازدواجية كما
يذهب بعض الباحثين (٤٢) ، مع استمرار الصراع بين الاختين
وانقسام العلماء حول هذه القضية • فعلى حين يذهب فريق الى أن
الثنائية من دلائل تحضر الانسان ، يرى فريق آخر أنها بالية
عظيمة (٤٣) • وقد يبدو من هذه العبارة مناصرة الفريق الثانى للعربية
الفصحى فحسب ، وهذا وهم ، لأنه يقترح اقتراحات صنف فى

(٤٢) ينظر فقه اللغة ص ١٤٥ د • اميل يعقوب •

(٤٣) السابق ص ١٤٨ •

اتجاهات خمسة فوجزها ثم نعقب عليها بالتعليق والرأى
فيما يلي (٤٤) :

الاتجاه الأول : يدعو الى السمو بالعامية الى الفصحى .

الاتجاه الثانى : يطالب بالتخلى عن الفصحى والعامية الى لغة
أجنبية يرى حسب زعمه أنه تحيينا علميا ، وثقافيا ، واقتصاديا .

الاتجاه الثالث : يدعو الى نوع من الملاقاة ، أو التقارب بين
العامية والفصحى .

الاتجاه الرابع : يدعو الى ما يسمى اللهجة العربية المحكية
المشتركة ، وهى كما يرى أصحاب هذا الرأى لغة المتأدبين فى الأقطار
العربية . ولها أسماء عديدة ، منها : اللغة المتوسطة ، عند ساطع
الحرى ، واللغة الثالثة ، عند توفيق الحكيم ، واللغة العربية الحديثة،
عند يوسف الخال الخ .

ومن أهم خصائص هذه اللغة سقوط الأعراب ، واتصافها كما يقول
أنيس فريجة « بنورم » (٤٥) مشترك ، واعتمادها النصيحى معيناً .

الاتجاه الخامس : يرى اعتماد العامية فى الكناية العلمية والأدبية،
وفى مختلف الشئون التى تستخدم فيها الفصحى . أى الدعوة الى
العامية الخالصة .

(٤٤) السابق ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٤٥) هو المصطلح الانجليزى ، أو الفرنسى

وقد عربه فريجة الى النورم وفق الوزن العربى « فعلل » وهو كما يوضحه

فريجة : المشترك ، أو النموذج العام أو المؤلف ، أو العادى المتفق عليه

والمقبول (هامش ص ١٥٠ من السابق) .

والاتجاه الأول : صعب التحقيق ، بعيد المنال في عصر انحسار القيم الدينية والقردي الاجتماعي ، والانحراف اللغوي .

والثاني : مرفوض ، وغير مقبول ، لأنه يمثل دعوة خارجية على المؤلف ، ومنافية لكل للقيم ، وكأنها دعوة بغير دعاة ، أو صوت بغير صدى ، وإن نقف عندها ، لأنها لا تستحق النظر والمناقشة .

الاتجاه الثالث : نراه مقبولا من الناحية النفسية واللغوية ومن الممكن تحقيقه منهجيا وواقعيا ، وسوف نعرض له بالتفصيل في العلاقة بين العامية والفصحى .

أما الاتجاه الرابع : الذي يدعو الى ما يسمى بالفصحى المخففة ، أو اللهجة العربية الحديثة المشتركة ، فهو رأي نرفضه كذلك ، لأنه يجرد الفصحى من أهم خصائصها ، وأبرز سماتها ، وهو الأعراب . بل إن أصحاب هذا الاتجاه يذهبون أبعد من ذلك . فأنيس فريجة (٤٦) ، يدعو الى : الاقتصاد في الضمائر ، وأحكام العدد والمعدود ، والتركيب النحوي ، وغير ذلك من قضايا النحو الأساسية .

ودعوة أنيس فريجة في الشام لها ما يفاظرها في مصر ، فالدكتور محمد كامل حسين دعا الى ما يسمى بالفصحى المخففة (٤٧) ، أو اللغة العربية المعاصرة . ومن خصائصها كما يقول : « عدم التمسك بالأعراب ، إلا الحالات الواضحة جدا ، وإطراد أبواب الفعل ، وصيغ المصائر ، وجموع التكسير إلا شيئا ، هو مشهور ، والمعدول عن مطابقة الفعل

(٤٦) ينظر فقه اللغة للدكتور اميل يعقوب .

(٤٧) انظر اللغة العربية المعاصرة ص ٨٨ وما بعدها للدكتور محمد

كامل حسين ، ومجلة مجمع اللغة العربية العدد ٣٩ ص ٦٠ دراسة حول

هذا الموضوع للأستاذ محمد شوقي أمين . (صيغة الفصحى المخففة) .

عندما يكون هذا مثني ، واغفال مخاطبة الرجال والنساء في حالات الجمع ، وإباحة النطق بالكلمات غير المعروفة للكاتب ، أو القارئ . بالصيغ المختلفة ، بحيث لا يتوقف عندها للتفكير في صحتها ، من ذلك مثلا : الأوجه العديدة في النطق بكلمات « القزم ، والحنق ، والسخط ، والحقبة » (٤٨) .

وهذا الاتجاه لا يقل خطورة عن الاتجاه الذي يدعو الى ترك الفصحى ، والالتزام بالعامية ، بل هو أكثر خطورة منه ، لأنه دعوة مقنعة ، عربية فصحى في ظاهرها ، لها قواعدها التي تدرس ، وهي في واقع الأمر وحقيقته معاول تهدم العربية من الداخل ، لأنها فصلا تماما بين التراث الاسلامي كله وبين حاضر ذلك الجيل الذي يتعلم قواعد هذه اللغة ، التي ليست على سنن القدماء ، التي دون بها تراثهم وحضارتهم ، وعلى القمة من هذا كله كتابهم المقدس ، القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، ولذا لم يلق قبولا عند جمهور العلماء والمثقفين .

والاتجاه الخامس : وهو الداعي الى ترك الفصحى ، واتخاذ العامية لغة أدب وثقافة ، ودراسة وكتابة ، فلن ندفعه بأكثر مما ندفعه السابقون .

(٤٨) اللغة العربية المعاصرة ص ٩٣ .

القزم : بفتح القاف وسكون الزاي الرجل ذو القصر وذو الدناءة ، والقزم : بفتحتين : الضئيل الجسم القصير القامة ، والقزم : بفتح وكسر كالقزم بفتحتين (الوسيط مادة قزم) . والحنق : بفتح الحاء والنون : شدة الغيظ (السابق مادة حنق) . والسخط (بفتح السين والحاء : وبضم السين وسكون الحاء : الكره والغضب) (السابق مادة سخط) والحقبة : (بكسر الحاء) من الدهر المدة ، أو الزمن أو السنة (السابق مادة حقب) .

فالأستاذ عباس حسن عقب على هذا الرأي بقوله « لا أريد أن أدفعه بأكثر مما دفعه به علماء الاجتماع الأوروبيون ، والمستشرقون في مؤتمراتهم وغيرهم من كبار الباحثين بعد دراسة طويلة ، ومبحث مستفيض ، فقد عرضوا للمشكلة من حيث هي موضوع اجتماعي ، وموضوع علمي فني ، لا تتفرد به أمة ، وركزوا بحثهم في الإجابة عن السؤال الآتي :

أهن الخير أن ترتفع اللغة العامية الى مستوى الفصحى ، أم الخير في أن تترك الفصحى الى درك العامية ؟

جاءت الإجابة صريحة قاطعة ، في أن الخير كله في رفع العامية ، لا العكس وحججهم في هذا ناصعة ، يعيننا منها قولهم : أن العامية لا ضوابط لها تحددها ، ولا قواعد جمع تستاقها ، وأنها تختلف اختلافا واسعا بين أمة وأخرى .. » (٤٩) .

وفي عالمنا العربي تختلف العامية فيه كذلك بين أقطاره ، بل أن القطر الواحد تختلف فيه اللهجات بين محافظات ، أو مديرياته .

وفي عصر ابن خلدون في القرن الثامن الهجري كان فيه ما يشبه ذلك ، فما بالنا اليوم في عصر تداخلت فيه المصالح بين دول العالم كله ، وتتنوع وسائل المدنية والتحضر ، وكثرت الاختراعات الحديثة التي فرضت مسمياتها في كثير من الأحيان على اللغات المغايرة لها ، مما أحدث فروقا بين اللهجات ولغتها ، « وهذه الفروق كما لا يخفى على من يلقى سمعه اليها عظيمة جدا ، فلهجة أهل مصر تختلف لهجة أهل الشام ... وكلا اللهجتين تباين لهجة المغاربة ، وتغاير اللهجات الثلاث لهجة سكان الحجاز ، ولهجة السودان لا توافق واحدة مما ذكر ، بل

إذا أخذنا لهجة واحدة من هذه اللهجات ، كلهجة المصريين مثلا ، نجدها متنوعة تنوعا عظيما ، وإن كانت معدودة واحدة في مقابلة لغة المغاربة أو السودان ، أو الشاميين ...» (٥٠) •

فكيف اذن يتيسر لنا وضع قواعد وضوابط ومعاجم لتلك اللهجات المتباينة في الأقطار العربية ، بل في كل قطر منها تتباين لهجات المحافظة الواحدة وإذا كان دعاة العامية يشكون صعوبة الفصحى الواحدة، التي تجمع وتوحد ، فكيف تكون صعوبة العامية المتباينة ، التي تفرق وتبدد ؟ !

وعلى أية حال فان سنهام هذه الدعوة ردت الى نحور دعايتها ، وكان لها أثرها المحمود ، دون قصد منهم « ورب ضارة نافعة » •
أثر الدعوة الى العامية :

كان من أثر العامية تلك الدراسات الجادة ، والأبحاث القيمة في دراسة اللهجات العامية ، واللهجات الفصيحة ، والعلاقة بين العامية والفصحى ، مما كان له عظيم الأثر في خدمة الفصحى ، والارتقاء بالعامية من وهدتها لتقترب من الفصحى ، وارتدت دعوتهم الى عكس ما كانوا يهدفون ، وخلاف ما يتصورون ، فكانت فاتحة للدراسة العلمية المنهجية التي ينشدها علم اللغة في فرع من فروع وهو دراسة اللهجات •

وبدأ العلماء والباحثون يولون هذه الدراسة الجديدة اهتماما خاصا، وتركزت بحوثهم في عقد الصلة بين الفصحى واحدى لهجاتها أو العامية ولهجات الفصحى المكشف عن العلاقة بين كل منهما، ومعرفة الخصائص المشتركة ، وأوجه الخلاف وأسبابه لوضع الحاول والقواعد التي تنقل

المهواة بين العامية والفصحى ، وغير ذلك مما يخدم العربية من مجالات الدراسة ، كعلاقة المقراءات القرآنية باللهجات العربية •

وسوف نورد هنا بعض هذه البحوث في المجالين : اللغة العربية الفصحى ولهجاتها ، واللهجات العامية ، وعلاقتها بالفصحى :

أولا : من الدراسات في اللهجات العربية الفصحى :

١ — لهجات العرب للأستاذ أحمد تيمور طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب •

٢ — في اللهجات العربية دكتور ابراهيم أنيس الانجلو •

٣ — اللهجات العربية في المقراءات القرآنية د / عبده الراجحي دار المعارف •

٤ — اللهجات العربية نشأتها وخصائصها د / عبد الله ربيع — د / عبد العزيز علام طبع سنة ١٣٩٧ — ١٩٧٧ المكتبة التوفيقية •

٦ — اللهجات الحجازية د / ابراهيم محمد نجا مطبعة السعادة •

٧ — اللهجة الحجازية في كتاب البحر المحيط لأبي حيان (رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر عبد الفتاح أبو الفتوح ابراهيم) •

٨ — في اللهجات العربية د / محمد أحمد خاطر دار الطباعة المحمدية •

٩ — العربية ولهجاتها د / عبد الرحمن أيوب سجل العرب •

ثانيا : من الدراسات في اللهجات العامية ، وعلاقتها بالفصحى :

١ — مميزات لغات العرب للأستاذ حفنى ناصف مطبعة السعادة سنة ١٣٣٥ هـ •

٢ - المحكم في أصول الكلمات العامية د / أحمد عبس مصطفى البابى
الحلبى سنة ١٤٥٨ هـ - ١٩٣٩ م *

٣ - معجم تيمور الكبير أحمد تيمور الهيئة المصرية العامة للكتاب *

٤ - لهجة القاهرة (رسالة دكتوراه من لندن) د / إبراهيم أنيس *

٥ - لهجة الكرنك (رسالة ماجستير من لندن) د / تمام حسان *

٦ - لهجة عدن (رسالة دكتوراه من لندن) د / تمام حسان *

٧ - لهجة النوبة (رسالة دكتوراه من لندن) د / عبد الرحمن

أيوب *

٨ - دراسة نحوية في اللهجة اللبنانية (رسالة دكتوراه من لندن)

د / كمال بشر *

٩ - لهجة البدو في اقليم ساحل مريوط دراسة لغوية (رسالة

ماجستير د / عبد العزيز مطر مطبعة الهيئة العامة للكتاب *

١٠ - لهجة شمال سيناء (رسالة دكتوراه كلية اللغة العربية جامعة

الأزهر) و محمد سعد أبو عبا *

١١ - معجم شمال المغرب نظوان وما حولها د / عبد المنعم سيد

عبد العال دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م *

١٢ - بحوث سائرة في مجالات مجمع اللغة العربية وبخاصة العدد

٢٤١ (٢٥) ٢٤ لسنة ١٣٩٨ - ١٩٧٨ الذى كرس لهذه البحوث ، والعدد

٢٨ ، ٣٩ *

(٥٢) بهذا العدد ثمانية بحوث عن العامية والفصحى ، حيث

خصص لهذه الدورة الرابعة والأربعين للمجمع الذى كان موضوعها الرئيسى

« العلاقة بين الفصحى والعامية » *

وغير ذلك من بحوث المستشرقين : منها :

- ١ - العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب تأليف يرهان فك *
المطبعة العربية الحديثة .
- ٢ - مقدمة في العامية العربية في مصر ، للباحث الانجليزي ن يشيل
(طبع في لندن سنة ١٩٥٦ م) .
- ٣ - أصوات العامية في مصر للباحث الأمريكي د.س. هاريل (طبع
في نيويورك سنة ١٩٥٧) .

أغراض البحوث في العامية وعلاقتها بالفصحى

أما أغراض البحوث في العامية فمن أهمها :

- ١ - الوقوف على أصول الكلمات العامية لمعرفة ما أصابها من
تغيير أو تحريف في المستويات اللغوية الصوتية، والتركيبية ، والمصرفية،
والدالية .
- ٢ - التقريب بين العامية والفصحى ، أو الارتقاء بالعامية الى
مدارج الفصحى .
- ٣ - رصد حركة الدخيل من الكلمات الأجنبية في لهجاتنا العامية،
وكذا في لغتنا الفصحى ، والتي أصبحت تمثل خطرا داهما على اللغة ،
والوقوف أمام تيارها الجارف ، والحد من هذا السيل المستمر منها ،
وذلك بالتعريف بخطورة هذا الطوفان وتعريف هذه المصطلحات ،
والاستعاضة عن الكلمات الأجنبية بالكلمات والمصطلحات العربية .

ولأهمية هذه الدراسات أُلقت في مجمع اللغة العربية بالقاهرة لجنة
علمية لدراسة اللهجات العربية الحديثة ، ومن أغراضها « دراسة

اللهجات العامية في مصر وسائر الأقطار العربية» (٥١) ، وهي كما يقول الأستاذ العقاد « من أنفع أغراض المجمع في خدمة اللغة الفصحى ، لأننا نساير اللهجة العامية في تعبيراتنا ، وتصرفنا فيها ، ونقيس عليها ، فنخلص من المشابهة حيناً ، والمخالفة حيناً آخر الى شئ من الأصول التي جرت عليها اللغة الفصحى فيما يقابل هذه التعبيرات أو هذه التصرفات » (٥٣) .

ثم ذكر أغراض المبحوث في الفصحى والعامية ، وسوف سنذكر غرضين أساسيين ومهمين هما (٥٤) :

- ١ - بحث يراد به التقريب بين اللغة الفصحى واللهجة العامية .
- ٢ - بحث يراد به الانتفاع من دراسة اللهجة العامية في توضيح بعض القواعد التي استقرت عليها اللغة الفصحى .

ثم وضع الغرضين السابقين بقوله :

- ١ - ومما لا شك فيه أن التقريب بين الفصحى والعامية ممكن ، وأنه يزداد امكاناً في العصر الحاضر ، لأن أسباب التشعب والتفرع كانت وفيرة في العصور الماضية ، ولم تكن الى جانبها أسباب للتوحيد والتقريب تضارعتها في قوتها وأثرها ، فتوافرت هذه الأسباب في العصر الحاضر بعد شيوع الصحافة والاذاعة ، والصور المتحركة ، وقوالب الحكاكي المشهور باسم الاسطوانات .

(٥١) بحوث في اللغة والأدب ص ٣٨ للأستاذ عباس العقاد « آمال

من اللهجات العامية .

(٥٣) السابق ص ٣٨ .

(٥٤) السابق ص ٤٢ بحث بعنوان « أغراض البحوث في الفصحى

والعامية » .

ومما يرجى من آثار هذا التقريب أن ييسر فهم الفصحى لغير المتعلمين وأن يدخل في الفصحى مفردات نافعة من ألفاظ الحضارة يمكن أجراءها مجرى المفردات الفصيحة بغير تعديل أو ببعض التعديل •

٢ - أما الانتفاع من دراسة اللهجة العامية في توضيح قواعد الفصحى فمن الأغراض التي يقل فيها الخلاف بين الأطراف ، لأن تعريفات اللهجة العامية واشتقاقاتها ، وتركيب عباراتها يجرى بين أيدينا وعلى مسمع منا ، ومنها ما يتعلق بالإبدال وتغير الحركات ، وخصائص الجملة الاسمية ، ومعاني الأضداد واختزال الحروف من اللكمات للدلالة على التنفيس أو على الحال إلى أشباه ذلك من مواضع المقارنة التي تفيد في الرجوع إلى عوامل التطور في اللغة الفصحى قبل استقرار قواعدها أو في سبيلها إلى الاستقرار •

وحينما وضع العلامة أحمد تيمور معجمه الكبير في الألفاظ العامية قال في مقدمته : « غرضنا الأول من وضع الكتاب إحياء اللغة العربية الصحيحة بذكر العامي وتفسيره ، ورده إلى نصابه من الصحة ، أن كان عربى الأصل ، أو بيان مرادفه أن لم يكن كذلك ليحل محله ، ويرجع إليه في الاستعمال » (٥٥) •

وأحياء الفصحى من خلال البحوث في العامية ، ونجاح محاولات التقريب بين العامية والفصحى ، تؤكد العلاقة بينهما ، وهذا يساعد على تحقيق الهدف في الوصول إلى لغة فصحى معاصرة « لغة أخطأ العاميون التسامى إليها ، كما أخطأ المتفادون النزول عندها » (٥٦) هي « فصحى مفسرة ، شفافه ناصعة ، تنزل بيسرها ووضوحها عند سفوح

(٥٥) مقدمة معجم تيمور الكبير ١/ ١٨ •

(٥٦) أزمة التعبير الأدبي بين العامية والفصحى ص ٧٨ للأستاذ

إبراهيم الأبياري ، والأستاذ رضوان إبراهيم •

العامية ، وترتفع بما فيها من طاقات حيوية دافقة الى الفنية المبلورة التي عرفها التاريخ وواقع الحياة بما في جواهرها من عناصر البقاء والخلود » (٥٧) •

وسوف يتحقق التقارب التام في القريب ، حيث ان العامية بنت الفصحى التي تحتاج الى تهذيب وتصحيح وتقويم ، كما أن هذه الفصحى المعاصرة ، ليست دعوة جديدة ، انما هي احياء لها منذ بدأت وسادت في العصر العباسي ، فلقد « استطاع الأدباء في أثناء ذلك أن ينفذوا الى أسلوب جديد غزوه بعقولهم الخصية ، وما أثاروه من المعانى المبتكرة ، مع احتفاظهم فيه للفصحى بكل مقوماتها ، وأوضاعها النحوية والصرفية ، وهو أسلوب نهض على أساسين لفظيين ، هما : نداء الألفاظ الحوشية الجافية ، ونبذ الألفاظ العامية المسقة المبتذلة ، أسلوب وسط بين الغرابة والابتذال » (٥٨) •

وهذه الفصحى المعاصرة ، قد تهيأ في هذا العصر ما يساعدها على الانتشار والذيع ، وفرض سيطرتها لغة حديث وأدب وكتابة ، وازاحة العامية المطلقة من طريقها وهذا وقع نلمس تباشيره جميعا في شتى الآداب والفنون « فاللهجة العامية المستخدمة في كثير من القصص والمسرحيات المعاصرة ، ليست هي نفس اللهجة العامية المتداولة كما قد يظن كثير من الناس ، بل هي لهجة وسطى بين العامية والفصحى ، وهذا نفسه يلاحظ في الأرجال الشعبية المعاصرة ، فلغتها تقترض كثيراً من كلمات الفصحى المعاصرة وتراكيبها ، ومعنى ذلك ، أن الفنون الأدبية

(٥٧) السابق ص ٧٩ •

(٥٨) انظر مجلة مجمع اللغة العربية العدد ٤١ بحث بعنوان

« الفصحى المعاصرة » د • شوقي ضيف ص ١٩ •

في العامية تتدفع في عصرنا الى الاقتراب من الفصحى ، اندفاعا ييثر
بأنها ستصبح يوما لغتها السائدة « (٥٩) •

وسوف نذكر بعض النماذج اللغوية لتوضيح وشائج القربى بين
العامية والفصحى ، منبهين الى أمرين :

الأول : من مظاهر الخلاف ، ترك الاعراب في الأعم الأغلب في
اللهجة العامية •

الثاني : كثير من كلمات العامية الشائعة ما يزال عربيا فصيحاً لم
يصبه تحريف أو تغيير مثل : جمل ، باب ، كتاب ، حيوان ، انسان
جامع ، أكل ، ضرب ، شرب ... الخ وغير ذلك كثير •

أولاً : المستوى الصوتي :

١ - تسهيل الهمزة : وهذا شائع في العامية يقولون فاس راس ،
فار ، في مأس ، ورأس ، وفأر •

والمعروف أن تسهيل الهمزة من خصائص اللهجة الحجازية ، كما
أن التحقيق من خصائص بنى تميم •

٢ - من الشائع في العامية قلب الألف المتطرفة همزة يقولون في
لا لاً • ولعل ذلك نوع من التحقيق المشهور في بنى تميم •

٣ - كسر أوائل الكلمات :

المشهور أن أحرف المضارعة دائماً مفتوحة ما لم يكن الفعل رباعياً
فتضم ، ولغة بهراء كسرهما مطلقاً فيقولون في نحو « تعلم » بالفتح
تعلم بالكسر • وقيل إنها منسوبة لبنى أسد ، وقيس وقيس وربيعة
والمعروف أن بهراء بطن من تميم •

وهذه الظاهرة تسمى « تلتلة » ، وعليها قراءة يحيى بن وثاب
« ولا تركنوا الى الذين ظلموا ... » بكسر التاء في « تركنوا » (٦٠)
وهي قراءة شاذة .

وعليها قول شاعر بنى تميم :

أو قلت ما في قومها لم تبثم تفضلها في حسب وميسم

وهذه التلتلة شائعة في مدن مصر وقراها (٦١) .

وكما أن كسر أوائل الأفعال كان شائعا في بعض اللهجات القديمة
فكذلك كسر أوائل الأسماء : حيث أثر عن بنى تميم كسر ما يفتح عندها
أهل الحجاز يقولون : بعيد ، وشعير ، وسرير . بالكسر .
وهذا أيضا شائع في العامية المصرية .

ثانيا : المستوى الصرفي :

— يشيع في بنية الكلمات العامية ظاهرة القلب والابدال : حيث
نرى كثيرا من الكلمات وقد أبدلت حروفها بحروف تقرب منها مخرجا
أو صفة ، أو صفة ومخرجا .

فيقولون مثلا : في بحثر : بحتر ، بقلب التاء تاء ، وفي ثعلب ثعلب ،
قال آل ، بقلب القاف همزة ، وهكذا .

كما يشيع عندهم هيلهم الى تغيير حركتى الضم والكسر على بعض
الصيغ الى الفتح مثل :

(٦٠) سورة هود آية ١١٣ .

(٦١) انظر الصحابي لابن فارس ص ٢٧ والخصائص لابن جنى

١٢/٢ ، والبحر المحيط لأبى حيان ٢٢/١ والنشر ٢٧٢/٢ واللهجات تيمور

ص ٨٦ ومميزات لغات العرب ص ٢٣ ، ٢٤ لحفنى ناصف .

١ - فعلول بضم الفاء : غيرها العامة الى فعلول بفتحها مثل
خرطوم ، وصندوق وعربون •

٢ - فعليل (بكسر الفاء) غيرها العامة الى فعليل بفتحها مثل
قنديل •

٣ - مفعلة (بكسر الميم) غيرها العامة الى مفعلة بفتحها مثل
مدخنة ، مكتبة •

الشائع في هذه الصيغ وغيرها ميل العامة الى الفتح لسهولة
٢ - ويلاحظ كذلك ميلهم الى حذف آخر حروف الجر يقولون :
خرجت من البيت •

يقولون : خرجت م البيت ، ع الشارع ، ف المدرسة •
والمشهور في بعض اللهجات العربية حذف نون من الجارة ، واللام
والألف من « على » •

« من » (٦٢) - المشهور في نون من الجارة أن تبقى دائما سواء
وليها متحرك أو ساكن • الا أنها تكون ساكنة اذا وليها متحرك ،
ومكسورة اذا وليها ساكن غير أل ، ومفتوحة اذا وليها أل •

مثالها في المواضع الثلاثة « من ابتداء الساعة الأولى من يوم
الجمعة ما رأيت أحدا من الناس » الأولى مكسورة ، والثانية ساكنة ،
والثالثة مفتوحة •

وخثعم وزبيد من قبائل اليمن يحذفون النون اذا وليها
ساكن فيقولون : خرجت ما لدار ، وجئت لمسجد •

وقال شاعرهم :

لقد ظفر الزوار أقفية العدا بما جاوز الآمال ملأ سر والمقتل

وهي مستعملة عند العامة في مصر وغير مصر ، وكثير من الشعراء
تتابعهم في ذلك :

وتجاذب الخلاء كاسات بها

ملأ نس أعذب من سلافة صرخد

ومطارغا ملود يلتحفونها

يرخي الحفى على الحفى بمحفد

وصرخد اسم بلدة بالشام تنسب اليها الخمر الجيدة ، والحفى
الصديق النصوح ، والمحفد : طرف القوب .

— « على » (٦٣) لغة بلحرث حذف اللام والألف من «على» الجارة
إذا وليها ساكن . فيقولون : (ركبت عفرس) ورأيت كأنى أمشى
علماء) .

وهذه اللغة لا يكاد يستعمل سواها عند العوام ، فيقولون : أقعد
عكرسى ، وصل عالنبي .

ثالثا : المستوى النحوى :

١ — من مظاهر العامية في هذا المستوى ترك الأعراب . ويتمثل
ذلك في تسكين أواخر الكلمات يقال : أخى سافر ، أو يسافر بتسكين
الفعل ، كما يقال : شربت شراب ، وأكلت طعام . بتسكين أواخر
الأسماء .

٢ — حذف نون الرفع لغير ناصب أو جازم يقولون : أنتم تحبوا
الخير ، والمشهور في الفصحى « تحبون » (٦٤) .

(٦٣) السابق ص ٣٥ .

(٦٤) مشكلات اللغة العربية ص ١٩٠ محمود تيمور .

٣ - الوقوف على المنقوص باثبات الياء يقال : الدنيا قلاهي ،
وتسالي ... » وحكى عن العرب جوازها ، وبه قرىء قوله تعالى :
« ولكل قوم هادي » (٦٥) وقوله تعالى « وما لهم من دونه من
والي » (٦٦) . وذلك في حالة الوقف (٦٧) .

يقول ابن الجزري : قرأ ابن كثير هاد ووال وواق وما عند الله
باق . بالتثوين في الرصد ، فاذا وقف ، وقف بالياء في هذه الأربعة
الأحرف حيث وقعت لا غير ، والباقيون يصلون بالتثوين ، ويتنون
بغير ياء (٦٨) .

٤ - في التصحيح والاعلال (٦٩) : المشهور بقاء الألف من المقصور
على حالها عند الإضافة نحو هذا فتاك إذا فتى . وهذيل تقلبها ياء
إذا أضيف الاسم لياء المتكلم ، فيقولون : عصى مع فتى ، قال شاعرهم
(أبو ذؤيب الهذلي) :

سبجوا هوى واعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع
وسائر سكان مصر يقلبون ألف التثنية ياء عند الإضافة للياء
فيقولون : رجلى ، وعينى : أى رجلاى وعيناي فلعل ذلك توسع منهم
في لغة هذيل .

رابعاً : المستوى الدلالي :

لا شك أن كثيرا من الألفاظ العامية التي لها أصل في النصحى ،

(٦٥) سورة الرعد آية ٧ .

(٦٦) سورة الرعد آية ١١ .

(٦٧) مشكلات اللغة العربية ص ١٩١ .

(٦٨) انظر تحرير التيسير لابن الجزري ص ١٢٨ .

(٦٩) مميزات لغات العرب ص ٢٩ .

لم تتغير دلالتها في الاستعمال العامي • بل ان بعض هذه الألفاظ عربي صحيح وقد يظنه بعض المثقفين أنها عامية •

الألفاظ يظنها البعض عامية مثل :

١ — كلمة « مدشوش » (٧٠) يقال عدس مدشوش « ويحاول بعض الناس تصحيحها الى مجروش » (٧١) • وكلاهما لفظان عربيان صحيحان •

٢ — رز (٧٢) : ذلك النبات ذو الحب المعروف : يظن العامة أن الصواب أرز • ولكنهما كلمتان فصيحتان ، بل ان الفراء قال : رز ولا نقل أرز •

٣ — شب (٧٣) : يقال : « شب فلان على قدميه » وهذه الكلمة صحيحة في العامية • فالشب : الارتفاع •

— ألفاظ حرفتها العامة بابدال الحركات ولم تتغير دلالتها (٧٤) :

١ — الدكة : بفتح الدال ما يقعد عليه ، وينطقها العامة بكسر الدال • •

٢ — اللثة : بكسر اللام وفتح الثاء اللحم حول الأسنان ، والعامة ينطقونها بفتح اللام •

٣ — رزمة : تقول رزمة من الورق والجمع : رزم بكسر الراء وقد تفتح ، وهي ضروب متنوعة ، وأخلاق مختلفة شدد بعضها الى بعض ، والعامة تنطقها بضم الراء •

(٧٠) الوسيط مادة د ش ش •

(٧١) السابق مادة ج ر ش وجرش الحب : لم ينعم دقة ، ومثله دش

(٧٢) انظر السابق مادة أرز ورز ولسان العرب •

(٧٣) الوسيط مادة (شب) •

(٧٤) يرجع الى معاجم اللغة وبخاصة الوسيط في معاني هذه

الألفاظ •

— الألفاظ أخطأ العامة في معانيها :

١ — يقولون : خط شنبه • والصواب طر شاربه ، أى نبت : أما الشنب : فهو رقة الأسنان وعذوبتها •

٢ — يقولون : فلان غاو لكذا — والصواب هاو أو محب له • أما الغاوى فهو الضال : يقال غوى يغوى غواية فهو غاو •

٣ — يقولون : استلمت كذا : ويذيلون الكتابة بقولهم : المستلم والصواب تسلمت — المتسلم •

ففى معاجم اللغة : تسلم منى الشئ قبضه وأخذه ، والفاعل متسلم ، وسلمت الشئ اليه فتسلمه أى : أخذه •

ويقال : استلم الحجر الأسود : أسه بالقبلة أو اليد ، واستلم الزرع : أخرج سنبله •

— أما الألفاظ التى اخترعها العامة ، فهى نادرة وقليلة ، جداً ، وتذكر فى موطن التندر والتفكه •

ومعاجم العامية بها المئات من الألفاظ التى لها علاقة جد وثيقة بالفصحى ، وكذا الكتب التى تناولت هذه الظاهرة بالبحث والدراسة ، التى تأكد من خلالها تحقيق الهدف الأسمى من بحوث التقريب بين العامية والفصحى ، ونضوج العامية وارتقائها الى الفصحى ، فيما يسمى بالفصحى المعاصرة •

ونختتم هذا البحث بمجموعة من الآراء والمقترحات التى تساعد فى تحقيق هذا الأمل المرجو ، القريب تحقيقه بإذن الله •

من هذه لاقتراحات ما دعا اليه الدكتور شوقي ضيف « من وضع معجم فى كل بلد عربى يستقصى فيه الألفاظ العامية العربية الأصل التى

تشيع في ألسنة أبنائه مع النص على المشترك من هذه الألفاظ بين البلاد العربية ليستغل ذلك كله الأدباء المعاصرون في كتاباتهم القصصية والصحفية « (٧٥) » .

بالإضافة الى :

— جمع الكلمات الأجنبية المستعملة في اللهجات المنتشرة في البلاد العربية ، وتدوين ما يقابلها من الألفاظ العربية في معجمات خاصة بكل بلد ، ثم جمعها في مجمع موحد للبلاد العربية كلها (٧٦) .

وهذا العمل يحتاج الى تضافر جهود المجمع العربية كلها والهيئات اللغوية والجامعات المهتمة بالدراسات العربية ، والتزام من جميع المؤسسات والهيئات والوزارات وغيرها بقرارات ومقترحات المجمع العربية الموحدة . وهذا ضمانا لوحدة المصطلحات ، وعدم تعددها في كل قطر ، والقضاء على تلك الفوضى اللغوية .

— سن قانون يلزم استخدام العربية في كل المجالات ، ولا يصرح بتراخيص المحال التجارية والشركات والمؤسسات الا بأسماء عربية .

— أن يكون لجمع اللغة العربية سلطة لغوية ، ويسلزم ذلك اتصاله بكل الهيئات والمؤسسات ذات التأثير اللغوي والأدبي كالجامعات وعلى قممها جامعة الأزهر وبعض الوزارات ، والصحافة ، ووسائل الأعلام جميعها ، ومؤسسات الطباعة والنشر الكبرى لاهدادها بآراء ومقترحات المجمع ، وتصحيح وتقويم ما تظهر من مصطلحات جديدة ،

(٧٥) مجلة مجمع اللغة العربية العدد ٤١ ص ١٧ (انظر)

الفاصلة) .

(٧٦) السابق ص ١٧ .

أو ايجاد البدائل العربية للألفاظ والمصطلحات التي تستخدم في هذه المواقع كلها .

وحينما ادعو الى سن قانون ملزم للعربية الفصحى ، لا ادعو الى بدعه ، وانما متأسيا بدولة عربية شقيقة هي العراق ، حيث اقترح المجمع العلمي العراقي خطة للنهوض باللغة العربية والمحافظة على سلامتها، فأصدرت الدولة القانون ٦٤ لسنة ١٩٧٧م وهو قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية ، وقد نشر في الجريدة الرسمية في العدد ٢٥٨٧ في ١٦/٥/١٩٧٧م واعتبر نافذا بعد ثلاثة أشهر .

وقد أوجب القانون اعتماد اللغة العربية في كل المجالات (٧٦) ، نعم ان الدستور في مصر ينص على أن العربية هي اللغة الرسمية ، ولكننا نريد قانونا ملزما ، والله الحافظ للغة قرآنه ، والغد مبشر ، وانى متفائل بقرب تحقيق الأمل .

دكتور / عبد الفتاح أبو الفتوح ابراهيم

(٧٧) انظر تفصيل القانون في مجلة مجمع اللغة العربية العدد ٤١
عن ١٧ بحث للدكتور حسين علي محفوظ بعنوان « تهريب العامية من
الفصحى » .

مصادر البحث

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - أخبار النحويين البصريين للسيرافي - تحقيق الأستاذين طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي - مطبعة ونشر مصطفى البابي الحلبي .
- ٣ - الأخطاء اللغوية الشائعة للأستاذ محمد علي النجار .
- ٤ - أدبيات اللغة العربية ج ١ للأستاذ محمد عاطف بك وآخرين المطبعة الأميرية بمصر الطبعة الأولى ١٩٠٦ م .
- ٥ - أزمة التعبير الأدبي بين العامية والفصحى للأستاذين ابراهيم الابياري ورضوان ابراهيم - دار الطباعة الحديثة ١٩٥٨ م .
- ٦ - البحر المحيط لأبي حيان النحوي الأندلسي - مطبعة السعادة - ١٣٢٨ هـ .
- ٧ - بحوث في اللغة والأدب للأستاذ عباس محمود العقاد - مكتبة غريب للطبع والنشر .
- ٨ - البيان والتبيين للجاحظ - دار صعب - بيروت .
- ٩ - تاريخ الدعوة الى العامية في مصر - دكتورة نفوسة زكريا - دار المعارف .
- ١٠ - تاريخ اللغات السامية - دكتور اسراييل ولفنسون - مطبعة الاعتماد - الطبعة الأولى .
- ١١ - تحبير التيسير في قراءات الأئمة العشرة - لابن الجزري - تحقيق الشيخين / عبد الفتاح القاضي ، ومحمد الصادق قمحاوي - دار التراث بمصر .
- ١٢ - الخصائص لابن جني - تحقيق الأستاذ محمد علي النجار - دار الهدى للطباعة والنشر بيروت .

- ١٣ - درة الغواص في أوهم الخواص للحريرى - تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم - دار نهضة مصر بالقاهرة .
- ١٤ - ذيل فصيح ثعلب لعبد اللطيف بن محمد البغدادي نشر وتعليق دكتور محمد عبد المنعم خفاجى - المطبعة النموذجية - الطبعة الأولى ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م .
- ١٥ - الصاحبى لابن فارس - تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر - مطبعة عيسى البابى الحلبي .
- ١٦ - فصول في فقه العربية دكتور رمضان عبد التواب - مكتبة الخانجي بالقاهرة .
- ١٧ - فقه اللغة - للدكتور على عبد الواحد وافي - دار نهضة مصر - الطبعة السابعة .
- ١٨ - فقه اللغة العربية وخصائصها دكتور اميل بديع يعقوب - دار العلم للملايين بيروت .
- ١٩ - فى اللهجات العربية - دكتور إبراهيم أنيس - مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة الخامسة .
- ٢٠ - لسان العرب - لابن منظور - دار المعارف .
- ٢١ - لغتنا والحياة - دكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) - معهد البحوث والدراسات العربية سنة ١٩٦٩م .
- ٢٢ - اللغة لفندريس - ترجمة الدكتور الدواخلى والدكتور القصاص - مطبعة لجنة البيان العربى - نشر الأنجلو المصرية .
- ٢٣ - اللغة العربية خصائصها وسماتها - دكتور عبد الغفار حامد خليل - مطبعة الحضارة المصرية .
- ٢٤ - اللغة العربية المعاصرة - دكتور محمد كامل حسين - دار المعارف .
- ٢٥ - اللغة والنحو بين القديم والحديث - للأستاذ عباس حسن - دار المعارف .

٢٦ - اللغة والنحو - دراسات تاريخية وتحليلية مقارنة - للدكتور
حسن عون - مطبعة رويال بالاسكندرية - الطبعة الأولى سنة
١٩٥٢م .

٢٧ - لهجات العرب - للأستاذ أحمد تيمور - الهيئة المصرية العامة
للكتاب .

٢٨ - اللهجات العربية - نشأتها وخصائصها - دكتور عبد الله ربيع ،
دكتور عبد العزيز علام - المكتبة التوفيقية - الطبعة الأولى
١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .

٢٩ - مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة - طباعة الهيئة العامة لشئون
المطابع الأميرية .

(أ) الجزء الثامن والعشرون - رمضان ١٣٩١هـ - نوفمبر ١٩٧١م
(ب) الجزء التاسع والثلاثون - جمادى الأولى ١٣٩٧هـ - مايو
١٩٧٧م .

(ج) الجزء الحادى والأربعون - جمادى الأولى ١٣٩٨هـ - مايو
١٩٧٨م .

٣٠ - مشكلات اللغة العربية للأستاذ محمود تيمور - المطبعة النموذجية
- الطبعة الأولى ١٩٥٦م .

٣١ - مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى - تحقيق الأستاذ محمد
أبو الفضل ابراهيم - دار نهضة مصر بالقاهرة .

٣٢ - معجم تيمور الكبير - للأستاذ أحمد تيمور - اعداد وتحقيق
دكتور حسين نصار - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٣٣ - المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية بالقاهرة - الطبعة الثانية
- دار المعارف .

٣٤ - المقدمة لابن خلدون - طبعة دار الشعب .

- ٣٥ - مميزات لغات العرب - للأستاذ حفيظ ناصف - مطبعة السعادة -
الطبعة الثانية سنة ١٣٣٠ هـ .
- ٣٦ - المنجد في اللغة والأعلام - دار المشرق بيروت - الطبعة
السبعة والعشرون .
- ٣٧ - مولد اللغة - للأستاذ أحمد رضا - دار التراث العربي ، بيروت
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
- ٣٨ - نزهة الألباء لابن الأنباري - تقديم الأستاذ علي يوسف . جميعه
أحياء مآثر علماء العرب .
- ٣٩ - النشر في القراءات العشر لابن الجزري . تصحيح ومراجعة الشيخ
محمد علي الضباع - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٤٠ - الوسيط في الأدب العربي وتاريخه للشيخ أحمد الاسكندري
والشيخ مصطفى عناني - مطبعة المعارف بالفجالة - الطبعة
السادسة ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٧ م .

هذا وبالله التوفيق .

ابن النافظ ومذهب الخوئي

د. أحمد مرسى أحمد الجمل

أستاذ مساعد ورئيس قسم اللغويات بالكلية

عصر ابن النافظ والحركة العلمية

عاش ابن النافظ في النصف الثاني من القرن السابع الهجري —
على أرجح الأقوال — بدمشق *

وإذا ألقينا نظرة سريعة على عصره والحركة العلمية فيه نجد
أن القرن السابع الهجري قد بدأ والعالم العربي يهوج بفتن واضطرابات
سياسية شملت كل جزء فيه من شرقه الى غربه *

ففي الشام كانت الدولة العباسية في « بغداد » ضعيفة الحول
والطول حيث كان النفوذ الفعلي للسلاجقة في كثير من بلاد الشرق ، فلما
كانت سنة (٦٥٦ هـ) أغار القطار بقيادة « هولأكو » على « بغداد »
بمساعدة الوزير ابن العلقمي الرافضي (١) وتديره ، فاستولى القطار
عليها وقتلوا الخليفة « المستعصم بالله » آخر الخلفاء العباسيين ،
وبذلك انتهى حكم العباسيين والسلاجقة *

وفي مصر كانت الدولة الأيوبية في أخريات أيامها ، وقد لاقت
كثيرا من العناء والضعف بسبب الحروب الصليبية وغارات الفرنجة
وملوك الشام وقد سقطت الدولة الأيوبية سنة (٦٤٨ هـ) وقامت على
أنقاضها دولة المماليك البحريةية *

أما بلاد الأندلس فقد كان المسلمون في غاية الضعف بسبب
تفرقهم واختلافهم ، وتنافسهم على الملك ، الأمر الذي أدى الى

(١) انظر : الاسلام والحضارة العربية : محمد كرد علي ١/٣٢٣ *

استقيلاء « الأسبان » على أكثر حصون البلاد ومدنها الشهيرة ، ولم يبق للمسلمين في « الأندلس » سوى « غرناطة » وضواحيها ، وضعف أمر الموحدين •

هذه هي الحالة السياسية للعالم العربي في القرن السابع الهجري ، ولا شك أن هذه الأحداث والاضطرابات السياسية ، وما تبعها من فساد اجتماعي واقتصادي من شأنها أن تجعل سوق العلم راكدة بوجه ما ، وأن تطبع التأليف بطابع خاص (٢) •

ولنرجع إلى الوراء قليلا لنتعرف على حالة النحو فهو الذي يعنينا في هذا المقام فنقول : حين أظلم القرن السادس الهجري كانت مسائل النحو قد أشبعت درسا وتعليلا ، ولم يبق إلا المصنف البارع الذي يجيد صياغة هذا الموروث الضخم ليفيد منه المبتدئ والمنتهى على السواء • ولقد شهدت نهاية القرن السادس وأوائل القرن السابع ثلاثة من الرجال حملا هذه الأمانة وقاموا بهذا الواجب خير قيام ، حيث بسطوا قواعد النحو وبوبوا مسائله وفصلوا فروعها ، وهم ، ابن معط المتوفى (٦٢٨ هـ) ، ابن الحاجب المتوفى (٦٤٦ هـ) ، وابن مالك المتوفى (٦٧٢ هـ) ، وعلى شروح هؤلاء الرجال استوى النحو على مسوقه وأينع وأثمر •

وفي القرن السادس ازدهرت علوم العربية من نحو ، ولغة ، وعروض ، وبيان ، وتاريخ ، وسير ، وفيها يتصل بالدراسات النحوية شهد العالم العربي في هذا العصر علماء أفذاذا خطوا بالدراسات النحوية خطوات واسعة نحو الكمال نذكر منهم الجزولي ، والسهيلى ، والشلوبين ، وابن معط ، وابن خروف ، وابن عصفور ، وابن مضاء ، وابن مالك ، وغيرهم •

(٢) الفتح المبين في طبقات الأصوليين • عبد الله مصطفى المراغى

وفي القرن السابع شهدت البلاد العربية في المشرق والمغرب أحداثا واضطرابات سياسية — كما أسلفنا — كان من شأنها أن تضعف الحياة العلمية وحركة التأليف ، ولكن لما كانت العصور تتداخل ولا يمكن الفصل بينها بدقة ، فقد بقيت الحركة العلمية مزدهرة — بوجه ما — في المشرق والمغرب ، وان كانت حركة التأليف قد طبعت بطابع خاص ، فبدأ عهد جديد من التأليف هو عهد المتن والمختصرات مما دفع العلماء إلى العناية بشرحها ووضع الحواشي على تلك الشروح ، الأمر الذي أدى إلى صرف الهمم عن التفكير والاجتهاد ، فإذا ظهر من بينهم مجتهد كان ذلك من الأندرة بمكان فظهر في هذا العصر — في المشرق والمغرب — علماء أسهموا أسهاما كبيرا في شرح وتفسير هذا الموروث من المتن والمختصرات نذكر منهم :

أبا اليمن الكندي (٦١٣هـ) ، وسليمان بن بنين الدقيقي (٦١٤هـ) ، وابن الرماح بن عبد الصمد (٦٣٣هـ) ، وابن الخباز (٦٣٧هـ) ، وابن يعيش (٦٤٣هـ) وعلم الدين البخاري (٦٤٣هـ) وابن الحاجب (٦٤٦هـ) وابن اياز (٦٨١هـ) وهؤلاء هم أبرز نحاة القطارين في عصر ابن الناظم .

« ابن الناظم » :

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك بن بدر الدين الشافعي الطائي الكناني الدمشقي (٣) . عرف بابن الناظم وبخاصة عند شراح الألفية ، ويرى بعض الباحثين المحدثين أن أول من سماه بهذا الاسم هو أبو حيان الأندلسي ، ثم جاء بعده ابن هشام وغيره من النحاة فتابعوا أبا حيان في ذلك حتى صار علما عليه . والسبب في تلك التسمية واضح ، فأبوه هو ابن مالك صاحب

(٣) الوافي بالوفيات ٢٠٤/١ ، ومعجم المؤلفين ٢٣٩/١١ ، وروضات

الألفية وابن مالك يعرف عند شراح الألفية بالناظم ، فأطلقوا على ابنه
— بدر الدين — ابن الناظم .

ولما كان بدر الدين هو أول من شرح ألفية أبيه فقد أطلق عليه
بعض شراح الألفية — كالمكودي ، والأثموني — الشارح ، فإذا
ذكرت كلمة « الشارح » عندهما كان المعنى بها : بدر الدين بن
الناظم (٤) .

هذا ولم تذكر المصادر التي ترجمت له سنة ولادته ، ولقد رجح
محمد كامل بركات الذي حقق التسهيل لابن مالك أنه ولد سنة ٦٤٠ هـ
أو بعدها بقليل (٥) ، أما سنة وفاته فقد أجمع المترجمون على أنه توفي
سنة ٦٨٦ هـ بسبب قرحانج كان يعتريه فيجد منه ألما شديدا ، ودفن
بمقابر باب الصغير في دمشق يوم الاثنين التاسع من المحرم (٦) .

ولم يكن ابن الناظم ذا حظ كبير عند المترجمين له ، فلم يذكروا
على وجه التحديد المكان الذي ولد فيه ، ولا البلاد التي طوف بها ،
ولا من التقى به وقررد عليه ، غير ما ذكر من أنه أقام ببعلبك مدة بعد
مغادرته دمشق غاضبا من أبيه ، وأيضا لم يثيروا إلى صفاته وأخلاقه
اللهم إلا ما ذكر عنه من أنه كان ماجنا يحب اللهو ومعاشرة قرناء
السوء الأمر الذي جعل أباه يقصيه عنه ، فأقام ببعلبك كما أسلفنا (٧) .

ولقد ذكر « الصفدي » أنه قصة يؤخذ منها أنه كان فظا غليظا
لا يراعى حرمة من هو أكبر منه سنا وأكثر منه علما حيث قال : قيل
أنه حضر مجلس الشيخ شمس الدين الأيلى ، وكان الشيخ يعرف

(٤) نشأة النحو : ٢٣١ .

(٥) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ١٤ .

(٦) شذرات الذهب ٣٩٨/٥ .

(٧) نشأة النحو ٢٣٠ .

الكشاف لازمه خشي معرفة مليحة ، فقعد بدر الدين لا يتكلم والشيخ يلقى درسه ، فقال له الشيخ : مالك لا تتكلم ؟ فقال : ما أقول ومن وقت كلمت فيه الآن عددت عليك احدى وثلاثين لحنة (٨) .

فأنت ترى أنه لم يرع حرمة لهذا الشيخ في مجلسه وبين طلابه ، فإذا كانت هذه أخلاقه مع العلماء فكيف به مع سائر الناس ؟ وليس هذا بمستغرب من شخص نقد أباه ولاحقه في مسائل كثيرة بحق وبغير حق كما سنوضح ذلك في حينه .

« شيوخه وتلاميذه »

لم يذكر المترجمون له شيوخا أخذ عنهم غير أبيه « ابن مالك » ، وقد ذكر في شرحه على الكافية شيخا له سماه « تقى الدين » (٩) ولم تعرف ترجمة لتقى الدين هذا ، ومن المتوقع طالما أن يكون له شيوخ لأخذ عنهم غير أبيه ، ولكن أدنى لنا أن نعرف عنايتهم .

أما تلاميذه فهم قليلون أيضا ، ولعل السر في ذلك سوء معاملته ومعاشقته للناس ، وبخاصة أنه وجد في عصره كثير من العلماء الأفاضل الذين تشدد اليهم الحال ، ويؤكد ما ذهبنا إليه أن معظم تلاميذه معروفين في مجال الدراسات النحوية واللغوية وهم :

١ — بدر الدين بن جماعة المتوفى سنة ٧٣٣ هـ ، فقد ذكر السبكي أنه أخذ عن بدر الدين بن مالك (١٠) .

٢ — شمس الدين الأذري ، المولود سنة ٦٤٤ هـ ، فقد ذكر النعيمي أنه أخذ عن بدر الدين بن مالك (١١) .

(٨) انوافى بالتوفيات ٢٠٥/١ .

(٩) شرح الكافية لابن الناظم ق ٨٦ .

(١٠) طبقات الشافعية ٢٣٠/٥ ، والدرر الكامنة ٢٨٠/٣ .

(١١) المدارس في تاريخ المدارس ٥٥٩/٢ .

٣ - أبو بكر الصواف المتوفى سنة ٥٧١٥ هـ •

قال ابن الجزري : انه قارئ متصدر مشهور تلا السبع على الكمال الضرير ، ومرتضى بن جماعة ، وروى الشاطبية عنهما عن محمد ابن النازم (١٢) •

٤ - كمال الدين بن الزملكاني المتوفى سنة ٥٧٢٧ هـ •

قال السبكي : قرأ الأصول على الشيخ صفى الدين الهندي والنحو على الشيخ بدر الدين بن مالك (١٣) •

٥ - صدر الدين بن الوكيل المتوفى سنة ٥٧١٦ هـ •

قيل : انه أخذ الأصلين عن صفى الدين الهندي ، والنحو عن بدر الدين بن مالك ، وقيل عنه لم يكن قويا في النحو فكان يقع في اللحن كثيرا (١٤) •

٦ - نجم الدين العبادي المأود سنة ٦٤١ هـ •

ذكر السيوطي أنه قرأ التسهيل لابن مالك على بدر الدين ابن مالك (١٥) •

« مكانته ونشاطه العلمي » :

لم تذكر المصادر التي عرفت بالترجمة لابن النازم شيوفا أخذ عنهم غير أبيه كما قلنا آنفا ، وقلنا أيضا ان ذلك مستبعد ، فلا بد أن

(١٢) غاية النهاية في طبقات القراء ١/١٨١ •

(١٣) طبقات الشافعية ٥/٢٥٢ •

(١٤) المدارس في تاريخ المدارس ١/٢٧ ، والدرر الكامنة ٣/٤٧٣ •

وشذرات الذهب ٦/١١٨ •

(١٥) بغية الوعاة ٢/٣٥١ •

يكون له أكثر من واحد اخذ عنه وبخاصة انه برع في كثير من علوم عصره ، كما نص على ذلك المترجمون له ، فبرع في النحو ، والبلاغة بفروعها ، والعروض ، والمنطق ، والتفسير ، والقراءات ، والفقه . والأصول ، الحديث (١٦) ، وليس من المعقول أن يتلقى ذلك كله عن أبيه ، وعلى كل حال فقد تعددت ثقافته ، وغلب عليه الجانب المنطقي والعقلي .

وما ذكره السيوطي لهو أكبر ما ذهبنا اليه ، فقد قال : سئل الشيخ بدر الدين بن العلامة جمال الدين بن مالك — رحمه الله تعالى : « ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتوارا وهم معرضون » (١٧) فأجاب ان الآية على صورة الضرب الأول من الشكل الأول من القياس الأول المؤلف من متصلين لأنها مشتملة على قضيتين متصلتين موجبتين كليتين وبيניהما حد أوسط هو قال في الصغرى مقدم في الكبرى ، وذلك يستلزم قضية أخرى متصلة مركبة من مقدم الصغرى وتالى الكبرى وهو « ولو علم الله فيهم خيرا لتولوا وهم معرضون » (١٨) . ثم يستمر السيوطي في ذكر جواب ابن النياط في تفسير تلك الآية على النحو المنطقي الذي رأيت مما يؤكد ما ذهبنا اليه من غلبة المنطق والتفسييمات العقلية على ثقافته ، والذي انتشرت فيه مصنفات من سمات العصر الذي عاش فيه ، والذي انتشرت فيه مصنفات المشاركة ذات الطابع العقلي كمصنفات الزمخشري والسكاكي ، ولقد أكسبه كتاب مفتاح العلوم للسكاكي تلك النزعة العقلية والفلسفية

(١٦) الوافي بالوفيات ٢٠٤/١ ، وغاية النهاية في طبقات القراء

١٨١/١ .

(١٧) الأنفال ٢٣ .

(١٨) الأشباه والنظائر ٣٠٣/٤ ، ٣٠٤ .

حيث عكف على دراسته وقام باختصار قسم المعاني منه ، وكلنا نعرف كتب السكاكي وما فيها من منطق ونزعة فلسفية لا تبارى .

وكان تفوق ابن النازم وبراعته في كثير من العلوم السبب في جعله محط أنظار الدارسين ومحل تقدير من الجميع ، فقصده للتدريس في « بعلبك » في الفترة التي قضها هناك ، فالتفت الناس حوله وأعجبوا بعلمه وثقافته .

ولما توفي والده تاركاً وراءه المشيخة الكبرى في المدرسة العادلية بدمشق (١٩) اتجهت الأنظار الى ابنه ، ووجدوا فيه خير خلف لخير سلف ، فغادر بغداد متوجهاً الى دمشق وتولى مكان أبيه الذي كان يرنوا اليه ويطمع فيه الشيخ شهاب الدين الشاغوري ، وبرى أنه الأحق والأجدر بأن يخلف ابن مالك ، فلما أخذ أهل دمشق وفضلاؤا بدر الدين عليه ترك دمشق وتوجه الى اليمن متأماً غاضباً (٢٠) .

ولعل تفضيل الدمشقيين لبدر الدين وتقديرهم على الشيخ شهاب الدين الشاغوري كان نوعاً من الوفاء لابن مالك لا لأنه أعلم منه ، لأن الشاغوري مشهوراً له بالعلم حتى قيل عنه : كان يلقي ثلاثين درساً في ثلاثين علماً (٢١) .

« مؤلفاته » :

برع ابن النازم في كثير من علوم عصره ، وتعددت مواهبه وتنوعت ثقافته ، فآلف في عديد من العلوم وبخاصة علوم اللغة العربية ، وكانت أغلب مؤلفاته عبارة عن شروح لمتون وضعها سابقوه — كشأن غيره من

• (١٩) الوافي بالوفيات ٢٠٤/١

• (٢٠) بغية الوعاة ٤٧٣/١

• (٢١) الدرر الكامنة ٤٦٨/١

نحوى ذلك العصر — وبخاصة مؤلفات أبيه التي شاعت في ذلك الوقت
وحظيت بعناية الدارسين .

واليك قائمة بمؤلفاته :

• شرح الكافية الشافية لابن مالك (٢٢) .

والكافية الشافية عبارة عن منظومة في النحو والصرف من بحر
الرجز تقع في سبعة وخمسين وسبعمائة وألفي بيت (٢٧٥٧) وقد
اختصرها ابن مالك في ألفيته المشهورة .

٢ — شرح لامية الأفعال لابن مالك :

وهو عبارة عن شرح مختصر لمنظومة وضعها والده في مائة
وأربعة عشر بيتا (١١٤) على حرف اللام تحدث فيها عن أبنية الأفعال،
وهذه المنظومة تتضمن خمسة أبواب : باب أبنية الفعل المجرد
وتصاريفه ، باب أبنية الفعل المزيد فيه ، باب أبنية أسماء الفاعلين
والمفعولين ، باب أبنية المصادر ، باب مفعول ومفعول ومعانيهما ، وقد
حظيت هذه المنظومة بعناية كثير من الشراح ، وكان بدر الدين أول
من شرحها .

٣ — شرح ألفية ابن مالك ، المعروف بشرح ابن الناطم .

حظيت ألفية ابن مالك بما لم يحظ به مؤلف نحوى من قبل ومن
بعد ، نعم لقد سبقها كثير من أمهات كتب النحو ، ولكن لم تنتشر هذه
الكتب بين الدارسين انتشار الألفية ، ولعل سر شهرتها يكمن في أنها
نظمت النحو وعرضته بطريقة سهلة تتناسب وعقلية العصر الذي
نظمت فيه والعصور التي جاءت بعده ، أما الكتب التي سبقتها كانت

تتطلب في الدارس أن يكون إذا خلفية عريضة في النحو تكفيه الإشارة
عن طول العبارة •

ومن ثم شاعت الألفية وانتشرت وشدت انتباه النحاة ، فوضعوا
عليها الشروح والمختصرات والحواشي والتقاريرات ، ولقد ذكر صاحب
كتاب كشف الظنون ما يقرب من أربعين شرحاً عليها لفحاة مختلفين (٢٣) •
وكان أول من شرحها ومهد السبيل لمن جاء بعده ابنه
بدر الدين (٢٤) ولقد نال هذا الشرح إعجاب المؤرخين فهذا «الصفدي»
يقول : وهو شرح فاضل منقح ، ولم تشرح الخلاصة بأحسن ولا أسد
ولا أجزل على كثرة شروحها ، وأراها في الشروح كالشرح الذي
لابن يونس على التنبيه (٢٥) • وقد اعتمد عليه النحاة من بعده ، فأخذوا
عنه كأبي حيان في كتابه « ارتشاف الضرب من لسان العرب » ، ومنهج
السالك إلى ألفية ابن مالك ، وكابن عقيل في شرحه على الألفية
والتسهيل •

ولقد ذكر لنا ابن الناطم منهجه في مقدمة شرحه فقال : فاني ذاكر
في هذا الكتاب أرجوزة والدي — رحمه الله — في علم النحو المسماة
بالخلاصة ، ومرصعها بشرح يحل منها المشكل ويفتح من أبوابها كل
مقفل ، جانبت فيها الإيجاز المخل والأطراب الممل ، حرصاً على
التقريب لفهم مقاصدهم ، والحصول على جملة فوائدها (٢٦) •

ثم توالت الشروح على الألفية بعد ذلك ، ولعل أهم الشروح هي
الموجودة بين أيدينا الآن ونرجع إليها دائماً كمنهج السالك في الكلام.

(٢٣) كشف الظنون ١/١٥١ •

(٢٤) نشأة النحو ٢٣١ •

(٢٥) الوافي بالوفيات ١/٢٠٥ •

(٢٦) شرح ابن الناطم على الألفية ص ٢ •

على ألفية ابن مالك لأبى حيان الأندلسى (٥٧٤٥هـ) وهو شرح لم يكتمل
 إذ وصل في شرحه الى باب « أفعل التفضيل » وأوضح المسالك الى
 ألفية ابن مالك لابن طشام (٥٧٦١هـ) ، وهو عبارة عن نثر للألفية ،
 وتقريرات عليها يمتاز ببساطة العرض وجزالة الأسلوب ووضوح
 العبارة مع كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية والشواهد الشعرية .
 وشرح ابن عقيل (٥٧٦٩هـ) وهو شرح سهل العبارة يفيد منه المبتدئ
 والمنتهى على السواء ، وشرح المكودى وهو أبو زيد عبد الرحمن بن
 على المكودى (٨٠٧هـ) والمكودى شرحان على الألفية (٢٧) المطبوع
 منهما هو الشرح الصغير ، والبهجة المرضية في شرح الألفية
 للسيوطى (٩١١هـ) وهو شرح موجز الفائدة ، وشرح الأشمونى (٩٢٩هـ)
 وهو منهج المسالك الى ألفية ابن مالك ، وهو من الشروح النافعة
 الجامعة لكثير من الفوائد النحوية .

٤ - شرح كافية ابن الحاجب .

نص على ذلك السيوطى (٢٨) وسماه الحاجية ، ونقل عنه الشيخ
 خالد الأزهري في موضعين من كتابه « التصريح على القوضيح »
 وسماه « نكت الحاجية » .

الموضع الأول حين قال : ويطلق الكلام لغة ويراد به المفرد نحو
 « زيد » في نحو قولهم : من أنت ؟ زيد عند سيبويه ، قاله ابن الفناظم
 في نكت الحاجية (٣٩) .

والموضع الثانى حين قال : واختلف في تكوين المقرفم والغالى
 على أقوال ****

-
- (٢٧) كشف الظنون ١/١٥١ .
 - (٢٨) بغية الوعاة ١/٢٢٥ .
 - (٢٩) التصريح على التوضيح ١/٢٨ .

والثالث وهو الحق كما قال ابن مالك في التخفة وتبعه ابنه في نكت الحاجبية أنهما ليسا بمتنوين بل هما نونان زیدتا في الموقف (٣٠) •

٥ - شرح شافية ابن الحاجب :

ذكر صاحب كشف الظنون شراح الشافية ، ولم يذكر منهم ابن النافظ (٣١) ، ووجدت الشيخ خالد الأزهرى يشير الى أنه شرح الشافية حيث صرح بذلك في موضع من كتابه ، فعند حديثه على جمع « مكان » على « أمكن » قال : وفيه شذوذان أحدهما : أنه مذكر وحق مثله أن يأتي على مثال « فعله » والثاني أنه شبه فيه الأصل بالزائد فحذف ، والزايد بالأصل فثبت فقالوا « أمكن » والقياس في بناء « مكان » على « أفعل » أن يقال « أكون » بحذف الميم الزائدة وابقاء عين الكلمة • قاله ابن النافظ في شرح شافية ابن الحاجب (٣٢) • ونسبه اليه أيضا « الأسنوى » حيث قال : ووضع ابن النافظ شرحا على غريب التصريف لابن الحاجب (٣٣) وهذا يرجح أنه شرح الشافية :

٦ - شرح ملحّة الاعراب للحريري :

وهو شرح لمنظومة الحريري صاحب المقامات تعرف بملحة الاعراب وتبلغ هذه المنظومة ٣٧٥ بيتا ، وقد شرحها الحريري نفسه وشرح ابن النافظ لها من الشروح المفقودة (٣٤) •

٧ - مقدمة في علم العروض :

-
- (٣٠) التصريح على التوضيح ٣٧/١
 - (٣١) كشف الظنون ١٠٢/٢
 - (٣٢) التصريح على التوضيح ٣١٩/٢
 - (٣٣) طبقات الشافعية ٤٥٥/٢
 - (٣٤) بغية الوعاة ٢٢٥/١ ، وكشف الظنون ١٨١٧/٢

ذكر ذلك السيوطي ، وحاجي خليفة (٣٥) ، ونسبها بعضهم لابن مالك ، وليس بصحيح .

٨ - روض الأذهان في المعاني والبيان .

نص على ذلك السيوطي ، وصاحب كشف الظنون (٣٦) .

٩ - المصباح في علم المعاني والبيان والبديع .

ويرى الدكتور أحمد مطلوب أن المصباح وهو أول تلخيص للكتاب مفتاح العلوم للسكاكي وصل إلينا (٣٧) ، وقد احتل كتابه هذا مكانا مرموقا عند البلاغيين حيث أفادوا منه واعتبروه مصدرا من مصادر مؤلفاتهم ، فاختصره ابن النحوية في كتاب له ساه « ضوء المصباح » ثم شرحه في كتاب آخر سماه « أسفار المصباح على ضوء المصباح » (٣٨) ، وأفاد منه القزويني في كتابيه : التلخيص ، والإيضاح ، واعتمده السبكي مصدرا من مصادر كتابه : عروس الأفراح ، وانتفع به السيوطي ونقل عنه في كتابيه : معترك الأقران في إعجاز القرآن ، والاتقان في علوم القرآن واعتبره من الكتب المعنية بالأعجاز وفنون البلاغة (٣٩) .

١٠ - بغية الأريب وغنية الأديب :

قال عنه صاحب كشف الظنون : مختصر في الأصول ... مرتب على أربعة مطالع وخاتمة (٤٠) .

(٣٥) بغية الوعاة ٢٢٥/١ ، وكشف الظنون ١١٣٤ .

(٣٦) بغية الوعاة ٢٢٥/١ ، وكشف الظنون ٩١٦/١ .

(٣٧) البلاغة عند السكاكي ص ١٨ .

(٣٨) الدرر الكامنة ٢٨٥/٤ ، وطبقات النحاة والمغويين ٢٧٢ .

(٣٩) الاتقان في علوم القرآن ١٩/١ .

(٤٠) كشف الظنون ٢٤٧/١ .

١١ - مقدمة في المنطق •

نص على ذلك الصفدي والسيوطي (٤١) ، ويقول الأستاذ محمد على حمزة : ويغلب على ظني أن الأصل الذي اعتمد عليه ابن النازم في تأليف مقدمته هذه هو القسم الخاص بعلم الاستدلال وما تعلق به من مبحث الحد من كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي ، ثم يقول : ومما يقرر ما ذهب إليه هو أن ابن النازم اختصر القسم الثالث من المفتاح وسماه « المصباح » دون أن يشير إلى عمله في هذا الاختصار ، بل ادعى تأليفه (٤٢) •

« مذهب النحوي » :

عرفنا مما سبق أن المترجمين لم يذكروا لابن النازم شيوخا أخذ عنهم غير أبيه ، فلا غرابة إذن أن يتأثر الابن بأبيه وينهج نهجه ويسير على طريقته ومذهبه ، وابن مالك كان بصرى المذهب بوجه عام ، ومع ذلك فقد كان يميل أحيانا إلى مذهب الكوفيين ، فتابعهم في كثير من آرائهم ، وكذلك كان ابن النازم ، ويمكن أن نقسم مذهبه إلى طورين :

الطور الأول : تأثره بأبيه واتباع مذهبه البصرى مع الأخذ بطائفة من الآراء الكوفية، وهذا الطور يمثلُه أصدق تمثيل شرحه على كافية ابن الحاجب ، ففي شرحه هذا كان صورة طبق الأصل من أبيه يتبع المذهب البصرى غالبا مع ميله أحيانا إلى المذهب الكوفي •

الطور الثاني : وفيه تأصل المذهب البصرى في دراساته النحوية ، وهذا الطور يمثلُه شرحه على ألفية أبيه ، فقد عدل في شرحه هذا عن

(٤١) الوافي بالوفيات ٢٠٥/١ ، بغية الوعاة ٢٢٥/١ •

(٤٢) ابن النازم النحوي ٤٧ •

كثير من الآراء الكوفية التي أخذ بها في الطور الأول ، واليك بعض نماذج ما ذهبنا إليه :

١ - ذهب ابن الحاجب الى أن « ان » المخففة من الثقيلة يجوز دخولها على فعل من أفعال المبتدأ خلافا للكوفيين ، وعلق على ذلك ابن النازم في « شرح الكافية » بما يبدو منه ميله الى الكوفيين ، حيث قال : للكوفيين في ذلك شواهد منها قول أسماء رضي الله عنها :

شكلك أمك ان قتلت مسلما حلت عليك عقوبة المتعمد

ومنه قولهم : « ان يزينك لنفسك وان يشينك لئيه » (٤٣) ، ثم رجع عن موافقة الكوفيين في شرح الألفية فقال (٤٤) : وإذا خفت « ان » وليها الفعل فالغالب كونه ماضيا ناسخا للابتداء نحو قوله « وان كانت لكبيرة » (٤٥) وأما نحو « وان يكادوا المذنب كفروا ليزلقونك » (٤٦) وقول الشاعر :

شلت يمينك ان قتلت مسلما حلت عليك عقوبة المتعمد (٤٧)

• (٤٣) شرح ابن النازم على الكافية ق ٩

• (٤٤) شرح ابن النازم على الألفية ص ٦٨

• (٤٥) البقرة ١٤٣

• (٤٦) القلم ٥١

(٤٧) البيت لعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل القرشية ، وهي

بنت عم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ترى زوجها الزبير بن العوام

وتسعو على قاتله عمرو بن جرموز

فأنتمة :

المشهور على ألسنة الناس « شلت يده » على صيغة ما لم يسم فاعله

وهي كما قال « تلعب » لغة رديئة ، والفصيحة « شلت » بصيغة المبني

للمفاعل ، قال الأزهري : سمعت أعرابيا يقول « شلت يد فلان » بصيغة

مما ولى « ان » المخففة فيه مضارع ناسخ للابتداء ، وماض غير ناسخ فقليل ، وأقل منه قولهم فيما حكاه الكوفيون « ان يزينك لنفسك وان يثيبك لهيه » (٤٨) •

٢ - يرى ابن الحاجب أن « اذ » ظرف لما مضى من الزمان (٤٩) ، وهو في ذلك موافق للبصريين ، أما ابن الناطم فقد مال الى مذهب الكوفيين حيث علق على ذلك بقوله « هذا في الأكثر ، وقد تجيء للمستقبل كقوله تعالى « اذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل » (٥٠) فان « اذ » مفعولة لفعل دخل عليه « سوف » وهي تخلص الفعل للاستقبال ويقع بعدها الجملتان لأنها بمعنى زمان مجرد عن الشرط فصح تفسيرها بها (٥١) •

ثم نجده في شرحه على الألفية يعود الى مذهب البصريين الذين يرون أنها ظرف لما مضى من الزمان ، يؤخذ ذلك من قوله (٥٢) ومنها « اذ » وتضاف الى جملة اسمية نحو « كان ذلك اذ زيد أمير » أو فعلية نحو « كان ذلك اذ قام زيد » ولا تفارقها الاضافة معنى ولا لفظا أيضا الا اذا عوض عن المضاف اليه بالتثنية كما في قوله تعالى « يومئذ تحدث أخبارها » (٥٣) فنلاحظ أنه عندما مثل لها لم

المبنى لغير الفاعل - ولم أسمعه من غيره ، وجعلها أبو أحمد العسكري من أوهام أبي عبيدة معمر بن المثنى • راجع في ذلك : بناء الفعل لغير الفاعل لصاحب البحث ص ١٦٣ •

• (٤٨) شرح ابن الناطم على الألفية ص ٦٨ •

• (٤٩) شرح الكافية للرضي ١٠٨/١ •

• (٥٠) غافر ٧١ •

• (٥١) شرح الكافية لابن الناطم ق ٥٣ •

• (٥٢) شرح ابن الناطم على الألفية ص ١٥٢ •

• (٥٣) الزلزلة ٤ •

يمثل الا بالماضي ، ولم يشر الى ما نص عليه في شرح الكافية من أنها
قد تأتي للمستقبل .

٣ - يرى ابن الحاجب أن الاضافة كما تكون بمعنى « من »
و « اللام » تكون بمعنى « في » فهي عنده ثلاثة أنواع : وتابعه
ابن مالك في ذلك حيث قال :

والثاني اجرر وانو من أوفى اذا
لم يصلح الا ذاك واللام خذا
لما سوى ذينك واخصص أولا
أو اعطه التعريف بالذى تلا

وسار على هذا الدرب ابن الناطم في شرح الكافية حيث قال :
بقوله - أي ابن الحاجب - : وبمعنى في ظرفه أي الزمان والمكان ،
ومنه قوله « بل مكر الليل والنهار » (٥٣) أي : في الليل ، و « يا صاحبي
السجن » (٥٥) أي : في السجن ، ولا « هو ألد الخصام » (٥٦) أي :
فيه ، ومنه : يا سارق الليلة أهل الدار (٥٧) .

ثم نجده في شرح الألفية يعدل عن اثبات الاضافة بمعنى « في »
ويرى رأي الجمهور وسيبويه القائلين بأنها اما بمعنى « من أو اللام »
فقط ، ويدافع عن ذلك ويؤكد به قوله (٥٨) : والذي عليه سيبويه وأكثر
المحققين أن الاضافة لا تعدو أن تكون بمعنى « اللام » أو بمعنى

(٥٤) سبأ ٣٣ .

(٥٥) يوسف ٣٩ .

(٥٦) البقرة ٢٠٤ .

(٥٧) شرح الكافية لابن الناطم ق ٣٦ .

(٥٨) شرح الألفية لابن الناطم ١٤٧ ، ١٤٨ .

« من » وهوهم الاضافة بمعنى « في » محمول على أنها فيه بمعنى « اللام » على المجاز ، ويدل على ذلك أمور :

أحدها : أن دعوى كون الاضافة بمعنى « في » يستلزم ادعى كثرة الاشتراك في معناها ، وهو خلاف الأصل فيجب اجتنابها •

الثاني : أن كل ما ادعى فيه أن الاضافة بمعنى « في » حقيقة يصح فيه أن يكون بمعنى « اللام » مجازا ، فيجب حملة عليه لوجهين :

أحدهما : أن المصير الى المجاز خير من المصير الى الاشتراك •
والثاني : أن الاضافة لمجاز الملك •

والاختصاص ثابتة بالاتفاق كما في قول الشاعر :

إذا كوكب الخرقاء لاح بسحره سهيل أذاعت غزلها في الغرائب (٥٩)
وقول الآخر :

إذا قال قدنى قال بالله حلقة لتغنى عنى ذاناثك أجمعا

والاضافة بمعنى « في » مختلف فيها ، والحمل على المتفق عليه أولى من الحمل على المختلف فيه •

قال ابن الحاجب : إذا عطف على الضمير المرفوع المتصل أكد بمنفصل (٦٠) • وهو في ذلك موافق للبصريين (٦١) ولقد مال ابن النازم في تعليقه على قول ابن الحاجب الى رأى الكوفيين حيث قال : ليس

(٥٩) البيت لا يعرف قائله ، وهو من شواهد المقرب لابن عصفور

٢١٣/١ والمحتسب لابن جنى ٢٢٨/٢ ، واللسان (غرب) ، والمنفصل ٦٠

(٦٠) شرح الكافية للرضي ٢٩٥/١ •

(٦١) الانصاف : مسألة ٦٦ •

التوكيد والفصل لازما ولا بد، قال الله تعالى «ما أشركنا ولا آباءنا» (٦٢) ولا يقال حصل فصل «بلا» لأنها بعد حرف العطف فلم يفصل ، وفي حديث علي - رضي الله عنه - : رحمك الله أبا بكر فلقد كنت كثيرا ما أسمع كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول كنت وأبو بكر وعمر ، وانطلقت وأبو بكر وعمر * قال الشاعر :

وقال الأخطيل مع سفاهة رأيه
ما لم يقل وأب له لينا (٦٣)

وقال آخر :

قلت اذا أقبلت وزهر تهادي
كنعاج الفلا تعسفن رملا (٦٤)

ولا يقال هذا للضرورة ، لأن نصبهما على المفعول معه كان ممكنا فعلم أنه رفعهما اختيارا (٦٥) *

(٦٢) الأنعام ١٤٨ *

(٦٣) البيت في ديوان جرير برواية «ورجا» ص ٣٦٢ *

وهو من شواهد : الكامل ١/١٨٩ ، والانصاف ١/٢٥٣ ، والأشمون

٣/١١٤ ، والهمع ٢/١٣٨ ، ولاتصريح ٢/١٥١ *

والشاهد في «أب» حيث عطف على الضمير المستتر المرفوع في

«يقل» من غير توكيد ولا فصل *

(٦٤) البيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٤٩٨ ، وهو أيضا في

ديوان العرجي ص ١٢٣ وهو من شواهد : الكتاب ١/٣٩٠ ، والكامل

١/١٨٩ ، والانصاف ٢/٢٥٢ ، والحزانة ٤/١٦١ *

والشاهد : في «زهر» حيث عطف على الضمير المستتر المرفوع

«أقبلت» من غير توكيد ولا فصل *

(٦٥) شرح الكافية لابن الناظم ق ٣٩ *

وهو في هذا متأثر بأبيه وسائر على مذهبه حيث سبقه الى ذلك في كتابه شواهد التوضيح (٦٦) ، فهناك أورد على هذه المسألة حديث على - كرم الله وجهه - السابق ذكره ، وحديث عمر - رضى الله عنه - وهو : كنت وجار لى من الأنصار » ، ثم قال : وتضمن الحديث صحة العطف على ضمير الرفع المتصل غير المفصول بتوكيد أو غيره ، وهو مما لا يجيزه النحويون في النثر الا على ضعف ، ويزعمون أن بابه الشعر ، والصحيح جوازه نثرا ونظما ، فمن النثر ما تقدم من قول على وعمر - رضى الله عنهما - ومثلهما قوله تعالى « ولو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا » .

ثم نجده في شرح الألفية يعود الى ما قرره البصريون ، فيقول : وأما المتصل فاما مرفوع أو منصوب أو مجرور ، فان كان مرفوعا فهو والمستقر سواء في أنه لا يحسن العطف عليهما الا مع الفصل والغالب كونه بضمير منفصل مؤكدا للمعطوف عليه كقوله تعالى « ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم » (٦٧) وقد يفصل بمفعول أو غيره كقوله تعالى « يدخلونها ومن صالح من آباءهم » (٦٨) وربما اكتفى بفصل « لا » بين العاطف والمعطوف عليه كقوله تعالى « ما أشركنا ولا آباؤنا » (٦٩) وأجاز صاحب الكشاف في قوله تعالى « أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون » (٦٩) أن يكون « آباؤنا » معطوفا على الضمير في « المبعوثون » للفصل بالهمزة (٧١) ، وقد يعطف على الضمير المتصل المرفوع بلا فصل كقول جرير :

(٦٦) شواهد التوضيح والتصحيح على مشكلات الجامع المسحيج

ص ١١٢ .

(٦٧) الأنعام ٩١ .

(٦٨) الرعد ٢٣ .

(٦٩) الأنعام ١٤٨ .

(٧٠) الصافات ١٦ ، ١٧ ، والواقعة ٤٧ ، ٤٨ .

(٧١) الكشاف ٥٩/٤ .

ورجا الأخيطل من سفاهة رأيه ما لم يكن وأب له لينالا
وقول عمر بن أبي ربيعة :

قلت اذا أقبلت وزهر تهادي كنتعاج الملا تعسفن رملا

— وليس بمقصود على الشعر ، حكى سيبويه « مررت برجل
سواء والعدم » يعطف « العدم » على الضمير في « سواء » ومع ذلك
فهو قليل في الكلام ضعيف في القياس لما فيه من إيهام عطف الاسم
على الفعل (٧٢) •

هذا قليل من كثير ، ويكفي ذلك في تأكيد ما قررناه سابقا ، ثم
تأصل المذهب البصري في دراساته النحوية فصار على طريقتهم واتبع
مذهبهم ، واليك ما يؤكد ذلك :

١ — يرى البصريون أن خبر « ما » الحجازية منصوب بها ،
وذهب الكوفيون الى أنه منصوب بنزع الخافض (٧٣) • تابع ابن الناظم
البصريين في ذلك حيث قال : ألحق أهل الحجاز « ما » النافية بـ « ليس »
في العمل إذ كانت مثلها في المعنى فرفعوا بها الاسم ونصبوا الخبر
نحو « ما هذا بشرا » (٧٤) و « ما هن أمهاتهم » (٧٥) وأهملها
القيميون لعدم اختصاصها بالأسماء (٧٦) •

٢ — ذهب البصريون الى أن « ان » وأخواتها تنصب الاسم
وترفع الخبر فهي المعاملة في الجزئين ، بينما يرى الكوفيون أن الاسم
منصوب بها ، أما الخبر فهو باق على ما كان عليه قبل دخولها (٧٦) •

(٧٢) شرح الألفية لابن الناظم ص ٢١١ ، ٢١٢ •

(٧٣) الاتصاف : مسألة ١٩ •

(٧٤) يوسف ٣١ •

(٧٥) المجادلة ٢ •

(٧٦) الانصاف : مسألة ٢٢ ، والتصريح ١/ ٢١٠ •

وسار ابن النازم على مذهب البصريين حيث قال : وهذه الحروف
شبيهة « كان » لما فيها من سكون الحشو وفتح آخر ، ولزوم المبتدأ
والخبر ، فعلت عكس عمل « كان » أيكون المبتدولان معها كمفعول
تقدم وفاعل آخر ، فيثبتين فرغيتها فلذلك نصبت الاسم ورفعت
الخبر (٧٧) •

٣ - يرى البصريون أن المصدر أصل للفعل وجميع المشتقات ،
بينما ذهب الكوفيون إلى أن الفعل وهو الأصل (٧٨) • وسلك ابن النازم
طريق البصريين ، قال في باب « المفعول المطلق » عند شرح قول
ابن مالك :

بمثله أو شغل أو وصف نصب ويكونه أصلا لهذين انقلب

قوله « ويكونه أصلا لهذين انقلب » لأن المصدر أصل للفعل
ولأن وصف في الاشتقاق وذهب الكوفيون إلى أن الفعل أصل للمصدر ،
وهو باطل لأن الفرع لا بد فيه من معنى الأصل زيادة ، ولا شك أن
الشغل يدل على المصدر والزمان ففيه معنى المصدر وزيادة فهو فرع ،
والمصدر أصل ، لأنه دال على بعض ما يدل عليه الفعل ، وبأنفس ما يثبت
به فرعوية الفعل يثبت فرعوية الصفات من أسماء الفاعلين ، وأسماء
المفعولين وغيرهما ، فإن « ضاربا » مثلا يتضمن المصدر وزيادة الدلالة
على ذات الفاعل للضرب ، و « مضروبا » يتضمن المصدر وزيادة الدلالة
على ذوات الواقعة به للضرب فهما مشتقات من « الضرب » وكذا سائر
الصفات (٧٩) •

٤ - يرى البصريون أن الظرف منصوب بالواقع فيه من فعل
أو شبه فعل مظهرا أو مقدرا ، وذهب الكوفيون إلى أنه منصوب على

(٧٧) شرح الألفية لابن النازم ٦٢ •

(٧٨) الانصاف : مسألة ٧٨ •

(٧٩) شرح الألفية لابن النازم ١٠٢ ، ١٠٣ •

الخلافة (٨٠) • تابع ابن النازم المذهب البصري في ذلك حيث قال في باب « المفعول فيه » عند شرحه لقول النازم :

فانصبه بالواقع فيه مظهرا كان والا فانوه مقذرا

قوله « فانصبه بالواقع فيه مظهرا • • البيت » معناه : أن الذي يستحقه الظرف من الاعراب وهو النصب ، وأن الناصب له هو الواقع فيه من فعل أو شبهه أما ظاهرا نحو « جلست أمام زيد ، وصمت يوم الجمعة ، وزيد جالس أمامك ، وصائم يوم الجمعة » وأما مضمرا جوازا كقولك لمن قال : كم سرت ؟ فرسخين ؟ ولأن قال : ما غبت عن زيد • بلى يومين ، وجوبا فيما وقع خبرا أو صفة أو حالا أو صلة نحو « زيد عندك ، ومررت بطائر فوق غصن ، ورأيت الهلال بين السحاب ، وعرفت الذي معك » (٨١) •

٥ - المفعول معه منصوب بما تقدم عليه من فعل أو شبهه عند البصريين ، وعند الكوفيين منصوب على الخلافة (٨٢) • ووافق ابن النازم رأى البصريين في ذلك كما فعل أبوه من قبل حيث قال في الألفية :

بنصب تالي الواو مفعولا معه

في نحو سـيرى والطريق مسرعه

بما من الفعل وشبهه سبق

ذا النصب لا بالواو في القول الأحق

وعلق ابن النازم على ذلك بقوله : ثم ان ناصب المفعول معه ما تقدم عليه من فعل ظاهر أو مقدر ، أو من اسم يشبه الفعل ، مثال

(٨٠) الانصاف مسألة ٢٩ ، وشرح الكافية للرضي ٨٣/١ •

(٨١) شرح الألفية لابن النازم ١٠٧ ، ١٠٨ •

(٨٢) الانصاف • مسألة ٣٠ ، وشرح الكافية للرضي ١٧٨/١ •

الفعل الظاهر : استوى الماء والخشبة ، وجاء البرد والطياشة « ومثال
الفعل المقدر : « كيف أنت وقصعة من ثريد » تقديره : كيف تكون
وقصعة من ثريد ، ومثال الاسم المشبه للفعل « حسبك وزيدا درهم »
أى : كافيك وزيدا درهم (٨٣) •

٦ - يرى البصريون أن « أفعل » في قولك « ما أفعله » فعل
ماض لا يتصرف ، وذهب بعض الكوفيين الى أنه اسم (٨٤) اسم
بدليل تصغيره في قول الشاعر :

يا ما أميلح غزلانا شدن لنا من هؤليائكن الضال والسمر (٨٥)

وتمسك ابن الناظم بمذهب البصريين ، ورد أدلة الكوفيين وضعف
مذهبهم ، فقال في « باب التعجب » وأحسن فعل ماض لا يتصرف
مسندا الى ضمير « ما » والدليل على فعاليته : لزومه متصلا بياء المتكلم
نون الوقاية نحو « ما أعرفنى بكذا » ولا يكون كذلك الا الفعل ،
وعند بعض الكوفيين أن « ما أفعل » في التعجب اسم لجيئه مصغرا
نحو قول الشاعر :

يا ما أميلح غزلانا شدن لنا من هؤليائكن الضال والسمر

(٨٣) شرح الألفية لابن الناظم ١١٠ •

(٨٤) الانصاف • مسألة ١٥ •

(٨٥) نسب هذا البيت لأكثر من قائل :

فقييل هو للعرجي ، أو المجنون ، أو ذى الرمة ، أو الحسين بن عبد الله

أو كامل الثقفي ، أو لعل بن بدال •

وهو في ديوان العرجي ص ١٨٣ ، والخزانة ٤٥/١ ، ٤٥/٤ •

والانصاف ٧٤/١ ، واللسان ، والصحيح (ملح) برواية « عطون »

هؤليائين « وشدن : ماضى : شدن يشدن شدونا : أى قوى وطلع قرناه

واستغنى عن أمه •

• وإنما التصغير للاسماء •

ولا حجة فيما أورده لشذوذه ، ولأمكن أن يكون التصغير دخله
التشبيه بأفعل لفظا ومعنى ، والشئ قد يخرج عن بابه لجرد التشبيه
بغيره (٨٦) •

٧ — نعم وبئس : فعلان عند جميع البصريين ، والكسائي من
الكوفيين ، واسمان عند باقي الكوفيين (٨٧) •

أخذ ابن الناظم برأى البصريين في تلك المسألة الخلافية ، ورد
على « الفراء » الذي يمثل المذهب الكوفى فقال : نعم وبئس فعلان
ماضيان اللفظ لا يتصرفان ، والمقصود بهما انشاء المدح والذم ، والدليل
على فعليتهما جواز دخول تاء التأنيث الساكنة عليهما عند جميع العرب ،
واتصال ضمير الرفع البارز بهما في لغة قوم ، حكى الكسائي عنهم
« الزيدان نعما رجائين ، والزيدون نعموا رجالا » ، وذهب « الفراء »
وأكثر الكوفيين الى أنهما اسمان ، واحتجوا بدخول حرف الجر عليهما
كقول بعضهم وقد بشر يثبت « والله ما هي بنعم الولد نصرها بكاء
وبرها سرقة » وقول الآخر « نعم السير على بئس العير » ...
ولا حجة فيما أورده ، وارجع الى شرحه على الألفية لقرى فريدا من
الكلام على رد مذهب الكوفيين وتقنيده أدلتهم (٨٨) •

٨ — يرى البصريون ان الخبر اذا كان جامدا لا يتحمل ضميرا
يعود على المبتدأ خلافا للكوفيين (٨٩) •

وقد وافق ابن الناظم أباه في الأخذ برأى البصريين في تلك
المسألة ، فقال عند قول أبيه :

-
- (٨٦) شرح الألفية لابن الناظم ١٧٧ •
 - (٨٧) الانصاف — مسألة ١٤ ، والتصريح ٩٤/٢ •
 - (٨٨) شرح الألفية لابن الناظم ١٨١ ، ١٨٢ •
 - (٨٩) الانصاف — مسألة ٧ ، والتصريح ١٦٠/١ •

والمفرد الجامد فارغ وان يشتق فهو ذو ضمير مستكن

الخبر المفرد لا يخلو اما أن يكون جامدا أو مشتقا ، فان كان جامدا لم يتحمل ضمير المبتدأ خلافا للكوفيين ، لأن الجامد لا يصلح لتحمل الضمير الا على تأويله بالمشتق ، كقولك « زيد أسد » والمجارية قمر « على تأويل : هو شجاع ، وهى منيرة ، والجامد اذا كان ضميرا لا يحتاج الى ذلك لأنه يكفى فى صحة الاخبار به كونه صادقا على ما صدق عليه المبتدأ ، وذلك كقولك « زيد أخوك » وهذا عبد الله « وما أشبه ذلك (٩٠) »

٩ - الاسم الواقع بعد « لولا » مرفوع بالابتداء عند البصريين ، وهو عند الكوفيين مرفوع بها (٩١) .

أخذ ابن النازم بمذهب البصريين فى هذه المسألة حيث قال عند شرحه لقول أبيه : « وبعد لولا غالبا حذف الخبر » .

حاصله : أن ما يجب حذفه من الاخبار أربعة : الأول خبر المبتدأ بعد « لولا » الامتناعية بشرط تعليق امتناع الجواب على نفس المبتدأ ، وهو المغالب كقولك : « لولا زيد لزلزلك » تقديره لأجل ضرورة تصحيح الكلام « لولا زيد مانع لزلزلك » ثم التزم فيه حذف الخبر للعلم به وسد جواب «لولا» مسده (٩٢) .

ثم قال فى موضع آخر : المبتدأ والخبر مرفوعان ، ولا خلاف عند البصريين أن المبتدأ مرفوع بالابتداء واما الخبر فالصحيح أنه مرفوع بالمبتدأ ، قال سيبويه : فأما الذى يبنى عليه شىء هو هو فان المبنى عليه يرتفع به كما ارتفع هو بالابتداء ، وذلك كقولك : عبد الله منطلق ،

(٩٠) شرح الألفية لابن النازم ٤٣ .

(٩١) الانصاف - مسألة ١٠ .

(٩٢) شرح الألفية لابن النازم ٤٨ .

وقيل رافع الجزئين هو الابتداء لأنه اقتضاهما فعمل فيهما وهو ضعيف لأن أقوى العوامل وهو الفعل لا يعمل رفعين بدون اتباع فما ليس أقوى أولى ان لا يعمل ذلك ، وعند « المبرد » أن الابتداء رافع للمبتدأ وهما رافعان للخبر وهو قول بما لا نظير له ، وذهب الكوفيون الى ان المبتدأ والخبر مترافعان ، ويبطله أن الخبر يرفع الفاعل كما في نحو : «زيد قائم أبوه» ، فلا يصلح لرفع المبتدأ لأنه أقوى العوامل وهو الفعل لا يعمل رفعين بدون اتباع فما ليس أقوى لا ينبغي له ذلك (٩٣) .

١٠ - أي الموصولة تبني على الضم بشرطين : أن تكون مضافة ، وأن يكون صدر صلتها ضميراً محذوفاً ، وذلك عند البصريين أما الكوفيون فيعربونها مطلقاً (٩٤) .

وسار ابن الناطم في هذه المسألة على مذهب البصريين حيث قال : من الأسماء الموصولة : « أي » وأعربت دون أخواتها لأن شبهها بالحرف في الافتقار الى جملة معارض بلزومها الاضافة في المعنى فبقيت على الأصل في الأسماء ، وقد تبني وذلك اذا صرح بما تضاف اليه وكان العائد مبتدأ محذوفاً كقوله تعالى « ثم لننزعن من كل شعبة أيهم أشد على الرحمن عتياً » (٩٥) تقديره : أيهم هو أشد ، ومثل ذلك قول الشاعر :

إذا ما لقيت بنى مالك فسلم على أيهم أفضل (٩٦)

(٩٣) شرح الألفية لابن الناطم ٤٣ .

(٩٤) الانصاف - مسألة ١٠٢ ، وأسرار العربية ٣٨٢ .

(٩٥) مريم ٦٩ .

(٩٦) البيت لغسان بن ولاة .

وهو من شواهد : الفصل ٨٤/١ برواية « بنى عامر » والمغنى

٧٢/١ ، واللسان مادة « أيا » والخزانة ٥٢٢/٢ ، والأشعموني ١٦٦/١

وشرح فصول ابن معط. للخوى ٤٥٥ .

وأما إذا لم يكن العائد مبتدأ محذوفا فلا بد من اعراب « أي » سواء كان العائد مبتدأ مذكورا نحو « مررت بأيهم هو أفضل » أو غيره نحو « امرر بأيهم قام أبوه » وكذا إذا لم يصرح بما تضاف إليه « أي » فلا بد من اعرابها سواء كان العائد مبتدأ محذوفا نحو « امرر بأي أفضل أو لم يكن نحو « امرر بأي هو أفضل ، وأي قام أبوه » .

ومن العرب من يعرب « أيا » مطلقا (٩٧) ، وعليه قراءة بعضهم « ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد » بالنصب (٩٨) انتهى كلام ابن النازم (٩٩) .

من كل ما تقدم يتضح لنا أن ابن النازم كان بصري المذهب وبخاصة في طوره الثاني الذي يمثله أصدق تمثيل شرحه على ألفية أبيه .

« موقف ابن النازم من أبيه »

قلنا فيما سبق أن مذهب ابن النازم قد مر بطورين : في الطور الأول كان متأثرا بأبيه ، سالكاً مذهبه وهو الأخذ بمنهج البصريين مع

(٩٧) انظر : الكتاب ٣٩٧/١ ، والأشمونى ١٦٦/١ .

(٩٨) قال أبو حيان : الرفع قراءة الجمهور ، والنصب قراءة طليعة

ابن عسروفا ومعاذ بن مسلم الهراء - أستاذ الفراء - وزائدة عن الأعمش على أنه مفعوله « لننزعن » ؛

انظر البحر ٢٠٨/٦ ، والكشاف ٢٦/٣ .

والكوفيون يرون أن الضمة في القراءة المشهورة ضمة اعراب

لا ضمة بناء .

انظر : معاني القرآن للفراء ٤٧/١ ، ٤٨ ، والكشاف ٣٤/٣ .

(٩٩) شرح الألفية لابن النازم ٣٦ .

ميله أحيانا الى المنهج الكوفي ، وفي الطور الثاني تمكن منه المذهب البصري أيضا تمكن فخالف أباه في كثير من الحدود والضوابط وطائفة من المسائل النحوية .

وقد أرجع الأستاذ محمد علي حمزة (١٠٠) السبب في مخالفته لأبيه في الحدود النحوية الى اختلاف ثقافته عن ثقافة أبيه ، فكان ابن النازم من الدارسين المنطقيين المعروفين في ذلك العصر ، فلا غرو إذن أن يهتم بالحدود النحوية التي هي من مظاهر علم المنطق في الدراسات النحوية ، أما أبوه فقد غلب عليه طابع الحفظ والرواية ، ولذا قل اهتمامه بالحدود النحوية من حيث كونها جامعة مانعة .

أما سبب مخالفته لأبيه في كثير من المسائل النحوية فهو غلبة الاتجاه البصري على دراساته النحوية وعزوفه عن الاتجاه الكوفي ، أما أبوه فقد ظل ثابتا على مذهبه وهو الأخذ بمذهب الكوفيين في طائفة من المسائل النحوية ، فخالفه ابنه فيها ، واليك بعض نماذج من تلك المخالفات .

١ - قال ابن مالك في حد الضمير :

فما لذى غيبة أو حضور كأنت وهو سم بالضمير

علق ابن النازم على ما قاله أبوه بقوله « المضمير ما دل على نفس المتكلم أو المخاطب أو الغائب كأنا وأنت وهو ، وقد أدرج قسمي المتكلم والمخاطب تحت ذي الحضور ، لأن المتكلم حاضر للمخاطب والمخاطب حاضر للمتكلم ، لكن فيه إيهام ادخال اسم الإشارة في المضمير ، لأن الحاضر ثلاثة : متكلم ومخاطب ولا متكلم ولا مخاطب وهو المشار اليه (١٠١) .

(١٠٠) ابن النازم النحوي ١٨٠ .

(١٠١) شرح الألفية لابن النازم ٢٠ .

٢ - قال ابن مالك في حد الحال :

الحال وصف فضله منتصب مفهم في حال كفرها أذهب

وعلق على هذا التعريف ابن النازم بقوله : قوله « الحال وصف فضلة منتصب مفهم في حال » أي في حال كذا ، فيه مع ادخال حكم في الحد بقوله « منتصب » أنه حد غير مانع ، لأنه يشمل النعت ، ألا ترى أن قولك « مررت برجل راكب » في معنى مررت برجل في حال ركوبه ، كما أن قولك « جاء زيد ضاحكا » في معنى جاء زيد في حال ضحكه ، فلأجل ذلك عدلت عن هذه العبارة إلى قولي « المذكور فضلة لبيان هيئة ما هو له ، وحق الحال النصب لأنها فضلة ، والنصب اعراب الفضلات » (١٠٢) .

وتابعه ابن هشام في ذلك المخالفة حيث قال : وفي هذا الحد نظر ، لأن النصب حكم والحكم فرع التصور ، والتصور متوقف على الحد فجاء الدور (١٠٣) وبعد أن شرح الشيخ خالد الأزهرى كلام ابن هشام نقل ما ينفي الدور عن حد ابن مالك ، ولكنه عاد ونقل ما يثبت كلام ابن النازم وابن هشام ، فقال شارحا كلام ابن هشام : وفي الحد الذي ذكره النازم نظر لأن المقصود من الحد تصور ماهية المحدود وهي لا تتصور إلا بجميع أجزاء الحد ، وقد جعل النصب جزءا من الحد مع أنه حكم من أحكام المحدود والحكم فرع التصور ، إذ لا يحكم على شيء إلا بعد تصوره ، والتصور لماهية المحدود موقوف على جميع أجزاء الحد ومن جعلتها النصب وهو حكم فجاء الدور ، وهو توقف الشيء على ما يتوقف عليه . . . والدور مبطل للحد ، وأجيب باختلاف الجهة ، فإن الحكم ليس موقوفا على التصور بكنه الحقيقة

(١٠٢) المصدر السابق ١٢٤ .

(١٠٣) أوضح المسالك ٢/٢٩٦ .

المتوقفة على الحد حتى يلزم البطلان ، وانما هو متوقف على التصور
بوجه ما ، وذلك لا يتوقف على الحد ، فلا يلزم البطلان ، وفيه نظر
لأن الفرض من الحد معرفة الحدود بكنهه حقيقته ليحكم عليه والتصور
يوحه ما لا يكفي في ذلك (١٠٤) *

٣ - قال ابن مالك في تعريف الئعت :

واقعت بمشتق كصعب وذرب وشبهه كذا وذى والمنقصب

علق ابن الناطم على ذلك بقوله : المشتق ما أخذ من لفظ المصدر
للدلالة على معنى منسوب اليه ، فلو قال : « وانعت بهوصف مثل صعب
وذرب » كان أمثل ، لأن من المشتق أسماء الزمان والمكان والآلة ،
ولا ينعت بشيء منها انما ينعت بما كان صفة وهو ما دل على حدث
ومصاحبه كصعب وذرب ، وضارب ومضروب ، وأفضل منك ، أو اسما
مضمنا معنى الصفة اما وضعنا كاسم الاشارة وذى بمعنى صاحب أو
بمعنى الذى وكأسماء النسب ، واما استعمالا كة ولهم « مررت بقاع
عرفج كله ، أى : خشن » (١٠٥) *

٤ - قال ابن الناطم : من مواضع حذف الخبر وجوبا : خبر
المبتدأ اذا كان مصدرا عاملا في مفسر صاحب حال واقع بعده نحو
« ضربى العبد مسيئا » أو أفعل تفضيل مضافا الى المصدر المذكور نحو
« أتم تبينى الحق منوطا بالحكم » فمسيئا حال من الضمير في « كان »
المفسر بمفعول المصدر المقدر مع الفعل المضاف اليه الخبر ، وكذلك
« منوطا » والتقدير : ضربى العبد اذا كان مسيئا ، وأتم تبينى الحق

(١٠٤) شرح التصريح ٣٦٧/١ ، وانظر فى ذلك أيضا : حاشية

الشيخ يس على التصريح *

(١٠٥) شرح الألفية لابن الناطم ١٩٣ *

إذا كان منوطاً بالحكم ، وقد التزم في هذا النحو حذف الخبر للعلم به
وسد الحال مسده (١٠٦) .

من النص السابق يتضح لنا أن ابن الناظم سلك مسلك جمهور
البصريين حيث جعل الخبر محذوفاً مقدراً « باذا كان » ، أما أبوه فقد
اختار مذهب الأخفش الذي يرى أن الخبر محذوف مقدر بمصدر
مضاف إلى صاحب الحال ، فيقدر في « ضربى العبد مسيئاً » ضربه
مسيئاً (١٠٧) .

• قال ابن الناظم شارحاً قول أبيه :

ووصل ما بدى الحروف مبطل أعمالها وقد يبقى العمل

تدخل « ما » الزائدة على « ان وأخواتها » فتكفيها عن العمل
الا « ليت » ففيها وجهان ، تقول : انما زيد قائم ، وكأنما خالك أسد ،
ولكنما عمرو جبان ولعلما أخوك ظافر ولا سبيل إلى الأعمال ، لأن
« ما » قد أزلت اختصاص هذه الأحرف بالأسماء فوجب إهمالها ،
وتقول : ليتما أباك حاضر وان شئت قلت « ليتما أبوك حاضر » لأن
« ما » لم تزل اختصاص « ليت » بالأسماء ، فلك أن تعملها إلى بقاء
الاختصاص ، ولك أن تهملها نظراً إلى الكف كما قال الشاعر :

قالت أليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد (١٠٨)

(١٠٦) شرح الألفية لابن الناظم ٤٩ .

(١٠٧) أوضح المسالك ٢٢٧/١ .

(١٠٨) البيت للناطقة الديباني . يحكى من امرأة أنها رأت سرباً

من الحمام يطير ، فتمنت أن يكون لها مثل مقدار هذا الحمام أو نصفه ،

فإذا حصل لها ذلك فقد كفها وأغناها .

يروى بنصب « الحمام » ورفعته ، وذكر ابن برهان أن الأخفش
 روى « إنما زيدا قائم » وعزا مثل ذلك إلى الكسائي وهو غريب (١٠٩) .
 فابن الناطم يرى أن « ما » الزائدة إذا دخلت على « أن
 وأخواتها » أزلت اختصاصها بالأسماء بوجوب أن تكفيها عن العمل ،
 ويعرب ما بعدها مبتدأ الا « ليت » فيجوز فيها الوجهان ، وهو بذلك
 مخالف لأبيه الذي يرى جواز الأعمال بدون استثناء ويؤخذ ذلك من
 قوله السابق « وقد يبقى العمل » .

٦ - قال ابن مالك في شروط أعمال اسم الفاعل :

كفعله اسم فاعل في العمل
 أن كان عن مضييه بمعزل
 وولى استقهما أو حرف ندا
 أو نفيا أو جاسفة أو مسندا

من نص ابن مالك السابق يتضح لنا أن من شروط أعمال اسم
 الفاعل اعتماده على حرف النداء ، ولم يوافق ابنه على ذلك حيث قال :
 وقوله « أو حرف ندا » مثاله « يا طالعا جبلا » والمسوغ لأعمال
 « طالعا » هنا هو اعتماده على موصوف محذوف تقديره « يا رجلا
 طالعا جبلا » وليس المسوغ الاعتماد على حرف النداء لأنه ليس

قال الخطيب التبريزي : يروى « الحمام » بالرفع والنصب ، وكذلك
 « نصفه » فإذا نصبت تكون « ما » زائدة ، وإذا رفعت تكون « ما »
 كافة « الليت » عن العمل ويصير ما بعدها مبتدأ وخبرا كما تقول : إنما
 زيد منطلق . انظر : أوضح المسالك ٢/٣٤٩ .

وقد : اسم فعل بمعنى يكفى ، أو اسم بمعنى كاف .

(١٠٩) شرح الألفية لابن الناطم ٦٦ .

كالاستقهام والنفي في التقريب من الفعل لأن النداء من خواص
الأسماء (١١٠) *

وقد تابعه ابن هشام في تلك المخالفة حيث قال : ومنه « يا طالعا
جبلأ » أى : يا رجلا طالعا جبلا ، وقول ابن مالك انه اعتمد على حرف
النداء سهو لأنه مختص بالاسم فكيف يكون مقربا من الفعل (١١١) *

هذا قليل من كثير وما ذكرناه كاف في اعطاء صورة لمذهب وثقافة
كل من الأب والابن ، تلك الثقافة هي التي كانت السبب الحقيقي وراء
تلك المخالفات التي ذاعت وانتشرت بين النحاة ، وقد نوه بها بعض
الباحثين المحدثين كالشيخ الطنطاوى حيث قال عن شرح ابن الناظم :
يغلب على الظن أنه أول شرح على الألفية مهد السبيل لمن شرحوها
بعده ، فنقلوا عنه وعنوا ببسط ما فيه حتى امتاز أن يصير علما بالغلبة
« للشارح » اذا أطلق في هذه المصنفات ، وقد تعقب ابن الناظم أباه
دون هواده ، وربما حمله التعقب على الاتيان ببيت يدل بيت الناظم ..
الا أن الشراح بعده كابن هشام وابن عقيل والأشمونى وغيرهم
تصدوا للرد عليه بما جعل حملاته على الناظم طائشة (١١٢) *

رحم الله الأب والابن وجزاها عن النحو العربى خير الجزاء ..

(١١٠) شرح الألفية لابن الناظم ١٦٣ *

(١١١) أوضح المسالك ٢١٩/٣ *

(١١٢) نشأة النحو ٢٣١ *

موضوعات البحث

- ١ - عصر ابن الناظم والحركة العلمية .
- ٢ - ابن الناظم .
- ٣ - شيوخه ، وتلاميذه .
- ٤ - مكانته ، ونشاطه العلمي .
- ٥ - مؤلفاته .
- ٦ - مذهبه النحوى .
- ٧ - موقف ابن الناظم من أبيه .

المراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - الاتقان فى علوم القرآن - السيوطى . مطبعة المشهد الحسينى . القاهرة ١٩٦٧م .
- ٣ - الاسلام والحضارة العربية . محمد كرد على .
- ٤ - الأشباه والنظائر فى النحو - السيوطى - طبعة دار الكتب العلمية بيروت - لبنان .
- ٥ - الانصاف فى مسائل الخلاف - الأتبارى - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد (ط ٣) ١٩٥٥م .
- ٦ - أوضح المسالك الى ألفية ابن مالك . ابن هشام - تحقيق محمد محيى الدين (ط ٦) ١٩٧٤م .
- ٧ - ابن الناظم النحوى - محمد على حمزة - مطبعة أسعد ببغداد .
- ٨ - البحر المحييط : لأبى حيان - مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٩هـ .
- ٩ - بغية الوعاة - السيوطى - مطبعة السعادة بمصر (ط ١) ١٣٢٦هـ .
- ١٠ - البلاغة عند السكاكى - أحمد مطلوب - مكتبة النهضة - بغداد ١٩٦٤م .

- ١١ - تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد - ابن مالك تحقيق محمد كامل
بركات - القاهرة ١٩٦٨م .
- ١٢ - التصريح على التوضيح - خالد الأزهرى - طبعة الحلبي .
- ١٣ - خزانة الأدب - البغدادى - طبعة بولاق .
- ١٤ - الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة - ابن حجر العسقلانى -
تحقيق محمد سيد جادالحق - دار الكتب الحديثة - القاهرة ١٩٦٦م
- ١٥ - المدارس فى تاريخ المدارس - النعيمى - تحقيق جعفر الحسنى -
مطبعة الترقى ١٩٤٨م .
- ١٦ - ديوان جرير - طبعة بيروت ١٩٦٤م .
- ١٧ - ديوان عمر بن أبى ربيعة - شرح محمد محيى الدين (ط ٢)
١٩٦٠م .
- ١٨ - ديوان العرجى - تحقيق خضر الطائى ، ورشيد العبيدى -
بغداد ١٩٥٦م .
- ١٩ - ديوان النابغة - تحقيق وشرح كرم البستانى - بيروت ١٩٦٠م
- ٢٠ - روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات - الخواتسارى -
طبع حجر .
- ٢١ - شرح ألفية ابن مالك - ابن الناظم - منشورات ناظر خسرو
بيروت لبنان .
- ٢٢ - شرح التسهيل - ابن عقيل (المساعدة على تسهيل الفوائد) تحقيق
محمد كامل بركات - نشر مركز البحث العلمى بجامعة أم القرى .
- ٢٣ - شرح الكافية - الرضى - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
- ٢٤ - شرح الكافية - ابن الناظم - مخطوط - الأسكوريال رقم ٢٠٠ .
- ٢٥ - شرح فصول ابن معط - الحوى - تحقيق أحمد مرسى الجمل
« رسالة دكتوراه » .

- ٢٦ - شرح الاشمووني على ألفية ابن مالك مع حاشية الصبان - طبعة الحلبي
- ٢٧ - شواهد التوضيح والتصحيح على مشكلات الجامع الصحيح - ابن مالك - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار العروبة ١٩٥٧م
- ٢٨ - طبقات الشافعية - السبكي - المطبعة الحسينية بمصر (ط ١) .
- ٢٩ - طبقات النحاة واللغويين - ابن قاضي شهاب - تحقيق محمد عياض - طبع العراق ١٩٧٣م .
- ٣٠ - غاية النهاية في طبقات القراء - ابن الجزري - مطبعة الخانجي ١٩٣٢م
- ٣١ - الفتح المبين في طبقات الأصوليين - عبد الله مصطفى المراسي - مطبعة دار السنة ١٩٤٧م .
- ٣٢ - كتاب سيبويه - طبعة بولاق - مصر ١٣١٦هـ .
- ٣٣ - كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون - حاجي خليفة (ط ٣) - طهران ١٩٤٧م .
- ٣٤ - الكشف - الزمخشري - دار المعرفة - بيروت لبنان .
- ٣٥ - لسان العرب - ابن منظور - طبعة بيروت ١٩٥٦م .
- ٣٦ - معجم المؤلفين - عمر رضا كحانة - مطبعة الترقى - دمشق ١٩٥٧م
- ٣٧ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي - دار الحديث - القاهرة .
- ٣٨ - معاني القرآن - الفراء - تحقيق أحمد نجاتي ومحمد النجار - دار الكتب (ط ١) ١٩٥٥م .
- ٣٩ - نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة - الشيخ محمد الطنطاوي - تحقيق عبد العظيم الشناوي ومحمد عبد الرحمن الكردي (ط ٢) ١٩٦٩م .
- ٤٠ - الوافي بالوفيات - الصفدي - استانبول ١٩٣١م .

التجويد

وعلاقته بالأصوات والقراءات

الدكتور عبد الفتاح أبو الفتوح إبراهيم
مدرس بقسم أصول اللغة — جامعة الأزهر

التجويد : تعريف وأهمية :

التجويد : مصدر ، من جرد الشيء تجويدا إذا حسنه وأتقنه ،
والاسم منه الجودة ، ضد الرداءة « (١) » .

وفي القرآن الكريم : الاتيان بالقراءة مجودة الألفاظ ، بريئة من
الرداءة في المنطق . ومعناه : انتهاء الخاية في التصحيح ، وبلغ النهاية
في التحسين « (٢) » .

وفي تعريف آخر : « التجويد لغة : الاتيان بالجيد ، واصطلاحا :
علم يعرف به اعطاء كل حرف حقه ومستحقه من الصفات والمدود ، وغير
ذلك ، كالترقيق ، والتفخيم ، ونحوهما » (٣) في ألفاظ القرآن الكريم

(١) انشر في القراءات العشر لابن الجزرى ٢١٠/١ .

(٢) السابق .

(٣) هداية المستفيد في أحكام التجويد للشيخ محمد محمود ص ٥ .

(وحق الحروف صفاتها الذاتية اللازمة لها ، كالجهر والشدة والاستعلاء ،
فإنها لازمة لذوات بعض الحروف غير منفكة عنها ، فإن انفكت يكون
الانفكاك لحنا جليا في بعض الصفات ، ولحنا خفيا في بعض .

وأن مستحقها : ما ينشأ عن تلك الصفات الذاتية اللازمة كالتفخيم

التي هي موضوع هذا العلم : وكلام النبي صلى الله عليه وسلم عند بعض العلماء .

ويصفه ابن الجزري موضحا لكيفية الاتقان والتحسين بقوله : « هو حلية التلاوة ، وزينة القراءة ، وهو اعطاء الحروف حقوقها ، وترتيبها مراتبها ، ورد الحرف الى مخرجه وأصله ، والحاقه بنظيره ، وتصحيح لفظه ، وتلطيف النطق به على حال صيغته ، وكمال هيئته ، من غير اسراف ولا تعسف ، ولا افراط ، ولا تكلف » (٤) .

وأهمية هذا العلم تتضح من خلال الغرض منه : وهو بلوغ الغاية

فانه ناشئ عن كل من الاستعلاء ، والتكرير . وكالتريق : فانه ناشئ عن الاستفال ، وذلك أن التفخيم الناشئ عن الاستعلاء والتكرير يكون في الحرف حال سكونه ، وتحريكه بالفتح والضم فقط . واما حال تحريكه بالكسر فلا يوجد فيه التفخيم بل ضده وهو التريق ، لأن بين الكسر والتفخيم مانعة الجمع ، اذ الكسر يستدعي انخفاض اللسان والتفخيم يستدعي ارتفاعه .

وأن التريق الناشئ عن الاستفال المذكور يكون في الراء حال كسرها ، وفي اللام اذا لم تكن في الاسم الجليل وقبلها ضم أو فتح . . أما حال سكون الراء مع انتفاء سبب التريق قبلها وتحريكها بغير الكسر فلا يكون فيها تريق مع أنها مستقلة . وكذلك اللام اذا كانت في الاسم الجليل وقبلها فتح أو ضم فلا يكون فيها تريق مع أنها مستقلة أيضا . (نهاية القول المفيد ص ١٠ ، ١١ - للشيخ محمد مكي نصر) .

وتفخيم اللام المستقلة المسبوبة بضم وفتح يرجع الى تأثر الأصوات بعضها ببعض ، حيث أن الضمة والفتحة من أصوات الاستعلاء .

في اتقان لفظ القرآن الكريم على ما تنقش من الحضرة النبوية « (٥) » لأن به « صون اللسان عن الخطأ في كتاب الله ، أو اللحن فيه » (٦) ، وذلك بالمعرفة التامة لقواعد النطق الصحيحة ، ومخارج الأصوات السليمة ، ولذا يقول ابن الجزري : « ان أولى العاروم ذكرا وفكرا ، وأشرفها منزلة وقدر ، وأعظمها ذخرا وفخرا كلام من خلق من الماء بشرا فجعله نسبا ، وصورا ، فهو العلم الذي لا يخشى معه جهالة ، ولا يغشى به ضلالة ، وان أولى ما قدم من علومه ، ومعرفة تجويده ، وإقامة ألفاظه » (٧) .

ولقد ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ما يدعو بل ما يوجب علينا نحن المسلمين تحسين القراءة وتجويدها .

من ذلك قوله تعالى : « وقل القرآن ترتيلا » (٨) « ورتلناه ترتيلا » (٩) .

والترتيل في القراءة : تبين حروفها ، والتأني في أدائها ليكون أدعى إلى فهم معانيها « (١٠) » .

ولقد ورد عن السلف في تفسير هذه الآية ، ما نقله الطبري بسند

(٥) هداية المستفيد في أحكام التجويد ص ٥ .

(٦) السابق .

(٧) التمهيد في علم التجويد لابن الجزري ص ٥٢ تحقيق غانم قدوري

(٨) سورة المزمل آية ٤ .

(٩) سورة الفرقان آية ٣٢ .

(١٠) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني

صحيح عن مجاهد ، في قوله تعالى : « ورتل القرآن » قال : بعضه في
اثر بعض على قودة • وعن قتادة قال : بينه بياناً (١١) •

وعن حفصة أم المؤمنين فيما أخرجه مسلم في أثناء حديث « كان
النبي صلى الله عليه وسلم — يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول
منها » (١٢) •

وفي حديث علقمة ، أنه قرأ على ابن مسعود ، فقال (له) « رتل
فذاك أبي وأمي ، غانه زينة القرآن » (١٣) •

وعن عبد الله بن معقل قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم
يقراً وهو على ناقته — أو جملة — وهي تسير به ، وهو يقرأ سورة
الفتح ، أو من سورة الفتح ، قراءة لينة ، يقرأ وهو يرجع » (١٤) •

والترجيع : هو تقارب ضروب الحركات في القراءة ، أصله : التردد
وترجيع الصوت : ترديده في الحلق • وهو قادر زائد على الترتيل ، قال
الشيخ أبو محمد بن أبي حمزة : معنى الترجيع : تحسين التلاوة ،
لا ترجيع الغناء (١٥) •

وعن أبي موسى — رضى الله عنه — أن النبي صلى الله عليه وسلم

(١١) السابق ٧٠٧/٨ •

(١٢) السابق ٧٠٩/٨ •

(١٣) السابق ٧٠٩/٨ •

(١٤) السابق ٧١٠/٨ •

(١٥) السابق •

قال له : يا أبا موسى لقد أوتيت مزامرا من مزامير آل داود « (١٦) » .

وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله « من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل ، فليقرأ قراءة ابن أم عبد » . يعنى عبد الله ابن مسعود . وكان رضى الله عنه قد أعطى حظا عظيما فى تجويد القرآن وتحقيقه وترتيبه (١٧) .

كما ورد عن ابن مسعود قوله : « جودوا القرآن ، وزينوه بأحسن الأصوات ، وأعربوه ، فانه عربى ، والله يحب أن يعرب به » (١٨) .

وغير ذلك كثير مما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن الصحابة والسلف الصالح مما يؤكد أن تجويد القرآن الكريم ليس من كمال القراءة وجوهرها ، ومن تمام العبادة . فعدم الالتزام بأحكام التجويد يعد لحنا ، وخروجا على الفصاحة ، ومخالفة لآداب القراءة القرآنية ، بل أكثر من ذلك عند جمهرة العلماء ، حيث ورد فى شأن دراسة قواعد هذا العلم وتعلم أحكامه بأنه : « فرض كفاية ، والعمل به »

(١٦) السابق ٧١١/٨ . (آل داود : قال الخطابى : قوله « آل داود »

يريد داود نفسه ، لأنه لم ينقل أن أحدا من أولاد داود ولا من أقاربه كان أعطى من حسن الصوت ما أعطى .

والمراد بالمزمار : الصوت الحسن ، وأصله الآلة : قيل هى آلة تشبه العود وقيل : الناي . وأطلق اسمه على الصوت للمشابهة - انظر فتح

البارى السابق ٧١٢/٨) .

(١٧) النشر فى القراءات العشر ٢١٢/١ .

(١٨) السابق ٢١٠/١ .

فرض عين على كل مسلم ومسلمة من المكلفين ، وقد ثبتت فرضيته
بالكتاب والسنة ، واجماع الأمة « (١٩) » .

ويؤكد هذه الحقيقة ابن الجزري بقوله : « لا شك أن الأمة كما هم
متعبدون بفهم معاني القرآن ، وإقامة حدوده ، متعبدون بتصحيح ألفاظه
 وإقامة دروفه على الصفة الملقاة من أئمة القراءة المتصلة بالحضرة
 النبوية الأفضحية ، العربية ، التي لا يجوز مخالفتها ، ولا العدول عنها
 إلى غيرها » (٢٠) .

وأشار إلى مثل ذلك السيوطي بقوله « وقد عد العلماء القراءة
 بغير تجويد لحنا » (٢١) . كما ذكر الشيخ برهان الدين القليوبي أن النبي
 صلى الله عليه وسلم سمي قارئ القرآن بغير تجويد فاسقا ، وهو مذهب
 الامام الشافعي رضي الله عنه (٢٢) .

وقال الشيخ الامام أبو عبد الله نصر بن علي بن محمد الشيرازي
 « ان حسن الأداء فرض في القراءة ، ويجب على القارئ أن يقرأ القرآن
 حق تلاوته ، صيانة للقرآن أن يجد اللحن والتغيير اليه سبيلا » (٢٣) .

علاقة التجويد بالأصوات :

لا يستطيع من أوتي حظا قليلا من العلم أن ينكر العلاقة المتلازمة
 بين التجويد والأصوات ، وأهمية كل منهما في العربية ، لاتصالهما
 بالقرآن الكريم .

(١٩) نهاية القول المفيد ص ٧ للشيخ محمد مكي .

(٢٠) النشر ٢١٠/١ .

(٢١) الاتقان في علوم القرآن ١٣٢/١ .

(٢٢) نهاية القول المفيد ص ٩ .

(٢٣) النشر ٢١١/١ .

فالتجويد : هو العلم الذي يدرس الصوت اللغوي في نطاق الفاظ القرآن الكريم بخاصة .

أما الأصوات : فهو العلم الذي يدرس الصوت اللغوي بوجه عام .
أو هو « العلم الذي يدرس الصوت الانساني من وجهة النظر اللغوية » (٢٤)
فهو فرع من علم اللغة ، يعنى « باللغة المنطوقة دون أشكال الاتصال
الأخرى المنظمة ، كاللغة المكتوبة ، ورموز الصمم البكم ، وعلامات
البحارة المتفق عليها ... الخ .

ومن ثم فعلم الأصوات لا يهتم إلا بالتعبير اللغوي دون المضمون
الذى يقوم تحليله على القواعد والمعجم ، أى الجانب النحوى
والدلالى للغة » (٢٥) .

وهذا العلم يشتمل على أربعة أفرع .

١ - علم الأصوات العام : وهو دراسة الأماكن الصوتية
الفيزيائية للإنسان ، ودراسة تشغيل جهازه الصوت .

٢ - علم الأصوات الوصفى : وهو دراسة الخصائص الأصواتية
للغة معينة ، أو لهجة .

٣ - علم الأصوات التطورى أو التاريخى : وهو دراسة التغيرات
الأصواتية التى تتعرض لها لغة معينة من خلال تاريخها . (ويمكن أن
يكون لعلم الأصوات التطورى جانب عام يدرس فيه العوامل العامة

(٢٤) علم الصوتيات ص ١١ دكتور عبد الله ربيع ، د . عبد العزيز

علام .

(٢٥) علم الأصوات ص ٦ برتيل مالبيرج ترجمة دكتور عبد الصبور

نصاين .

التي تحكم التطور الصوتي) •

٤ - الضبط ، أو علم الأصوات المعيارى : وهو مجموعة القواعد التي تحكم النطق السليم للغة معينة ، فالضبط يستلزم وجود معيار للنطق الصحيح داخل مجموعة لغوية ، دولة كانت ، أو مقاطعة ، أو وحدة ثقافية ، أو مجموعة اجتماعية (٢٦) •

ولعل الفرع الأخير هو أكثر الفروع اتصالاً وتشابهاً بأحكام التجويد ، وعلى ذلك فالعلاقة بين الأصوات والتجويد علاقة العموم والخصوص •

اجادة القراءة القرآنية ، واتقانها وفقاً لأحكام التجويد ، لا تقتضى إلا بالمعرفة التامة الواعية ، لمخارج الأصوات ، وصفاتها ، والمدرس والتمرين على كيفية النطق الصحيح ، لأن أى انحراف عن مخرج الصوت ، أو صفته ، يترتب عليه خلط الأصوات اللغوية ، واختلال المعانى • فمثلاً (٢٧) : « الحاء والعين » مخرجهما واحد وهو الحلق ، ولكن الذى يفرق بينهما اختلاف صفة كل منهما • فالحاء : صوت حلقى احتكاكى مهموس (غير مهتز) • والعين : صوت حلقى احتكاكى (رخو) • مجهور (مهتز) •

(٢٦) السابق ص ٧ ، ٨ •

(٢٧) اعتمدنا فى ذكر الحقائق الصوتية على الكتب الآتية :

- ١ - الأصوات اللغوية د • ابراهيم أنيس •
- ٢ - الأصوات د • كمال بشر •
- ٣ - علم الصوتيات د • عبد الله ربيع ، د • عبد العزيز علام •
- ٤ - أصوات اللغة العربية د • عبد الغفار حامد هلال •

والفرق بينهما هو الجهر (الاهتزاز) في العين ، وعدمه (الهمس) في الحاء .

وعلى ذلك : لو أن قارئاً قرأ « الحمد » ولم يعط صوت « الحاء » حقه من الصفة المذكورة لانحرف الى صوت العين لتصير الكلمة « العمد » . مما يترتب على ذلك عدم صحة القراءة ، ولو كانت في صلاة بطلت عند بعض العلماء ، يقول ابن الجزرى : « أجمع من نعلمه من العلماء على أنه لا تصح صلاة قارئ خلف أُمى ، وهو من لا يحسن القراءة ، واختلفوا في صلاة من يبدل حرفاً بغيره ، سواء تجانسا (٢٨) ، أم تقارباً (٢٩) ، وأصح القولين عدم الصحة ، كمن قرأ « الحمد » بالعين ، أو « الدين » بالتاء أو « المغضوب » بالحاء أو الظاء ، ولذلك عدم العلماء القراءة بغير تجريد لحنا ، وعدوا القارئ بها لحاناً (٣٠) .

(٢٨) التجانس : الاتحاد فى المخرج ، والاختلاف فى الصفة ، كالعين والحاء فى المثال المذكور والبدال والتاء كذلك فلا يصح ابدال الغين جاء فى المغضوب حتى لا نصير « المغضوب » (وانظر فى تعريف التجانس تقريب النشر لابن الجزرى ص ٩) .

(٢٩) التقارب : هو تقارب الحرفين مخرجاً وصفة . كالتاء والثاء . فالتاء مخرجه طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا ، والثاء : طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا ، فتقارباً مخرجاً ، وهما مجهوران ولكن التاء صوت شديد ، والثاء رخو فتقارباً صفة . وفى الأمثلة المذكورة انضاد والظاء ، فالضاد من مخرج التاء ، والظاء من مخرج الثاء . وكلاهما صوتان مطبقان مجهوران ، ولكن الظاء رخو ، والضاد شديد . فلا يصح ابدال الضاد ظاء حتى لا نصير « المغضوب » (وانظر فى تعريف التقارب السابق ص ٩) .

(٣٠) النشر ١/ ٢١١ .

كل هذا وغيره من الآراء التي يؤيدها التطبيق الفعلي من الناحية الصوتية لتبيان اللحن واختلال المعاني مما لا يتسع المجال لذكره وسرده من عدم اتقان النطق واجادة القراءة . ويؤكد الأهمية البالغة لعلم الأصوات وقيمتها التوظيفية في خدمة القرآن الكريم ، من خلال التلازم بينه وبين علم التجويد .

ولقد نبغ في تلك الدراسات الصوتية أعلام العربية القدماء وآوارها اهتماما عظيما في مؤلفاتهم كالخليل بن أحمد ، وسيبويه ، وابن جني ، وابن سينا ، وابن الجزري وغيرهم ، وليس ذلك الا لمعرفة المراجعة لقيمة تلك الدراسات الصوتية في العربية ، ثم قام على أمرها المحدثون استمرارا لجهود القدماء ، واستكمالا لبعض الجوانب .

ومع وضوح تلك القيم الصوتية قديما وحديثا في الدراسات العربية عامة ، والقرآنية بخاصة نرى بعض الذين قلت بضاعتهم من العلم والمعرفة ، يعدون دراسة الأصوات ترفا علميا أو فضلة لغوية ويتشددون بعدم جدواها ، وانعدام نفعها ، ولو أنهم أحسنوا لأنصفوا ، وأو كان عذرهم الجهل لوجب عليهم العلم ، والتعمق فيه لسبر أغوار تلك الدراسة للوقوف على حقيقتها وطبيعتها ، وأهميتها ، ثم لهم بعد ذلك أن يحكموا اما عليها أولاها .

ولو أنهم عرفوا الاثم لاواقع على من لا يحسن قراءة القرآن ، وفقا للمقاييس الصوتية ، والأحكام التجويدية المؤسسة على تلك المقاييس لما استهانوا بها وكفى تلك الدراسة شرفا وفخرا ، وقيمة ومنزلة ما تقوم به في تقويم الألسنة ، وتصحيح النطق ، وتجويد القراءة ، ليس في القرآن الكريم فحسب ، أو في حديث رسول الله ﷺ ، بل في العربية بوجه عام ، فمن المضحك والمؤسف معا أن تنطق أصوات العربية دون إعطائها حقها ومستحقها كأصوات القرآن الكريم ، لأن

الخطأ واحد واللاحن لا يتجزأ • فانظر مثلاً : الى من ينطق « القاهرة »
 وقد رقق القاف والراء فيها أو أحدهما • ومثل ذلك في « مصر » فيمن
 يسلب الصاد تفخيمها • ومن أمثلة القاف : القلب ، القط ، قنطار ،
 قليل ، قلق ، دق ، شق ... الخ • وانظر كيف يتغير المعنى تماماً في
 كثير من الكلمات حينما تسلب التفخيم من هذه الكلمات ، فالصوت
 حينئذ سوف يتبدل الى نظير آخر وهو الكاف •

ومن أمثلة الصاد : صار ، صام ، صبر ، أصر : حيث يتبدل الصاد
 بسلبه التفخيم الى سين ، ... الخ • والأمثلة بالقياس على ذلك كثيرة ،
 مما يجعلنا نستمسك بقواعد النطق الصحيحة ، وهذا يستلزم تدريباً
 وتمريناً ، ورياضة صوتية تمكن من تحقيق الغاية في الجودة والانتقان ،
 لأن المرء لا يستطيع أن يبلغ الغاية في هذا الفن الا بعد مران وتدريب ،
 وممارسة ، وتلق ومشافهة ، من دارس متخصص في تلك الدراسات
 الصوتية والتجريدية بصفة خاصة حتى لا ينحرف القارىء عن قواعدها
 وأحكامها ، فتصبح قراءته مجوجة ، وتلاوته مرزولة ، أو ملحونة ،
 يقول ابن الجزرى : « ولا أعلم سبباً لبارغ نهاية الانتقان ، والتجويد ،
 ووصول غاية التصحيح والتسديد ، مثل رياضة الألسن ، والتكرار على
 اللفظ المتلقى من فم المحسن ، وأنت ترى تجويد حروف الكتابة كيف
 يبلغ الكاتب بالرياضة وتوقيف الأستاذ » (٣١) • فكما أننا نعلم النشء
 كيفية الكتابة منذ نعومة أظفارهم حتى يبلغوا فيها مبلغ الجودة
 والاحسان ، يجب كذلك علينا أن نعلمهم كيفية النطق الصحيح للأصوات
 حتى يشعروا وقد بلغوا منها الغاية في الانتقان •

والله در الحافظ أبى عمرو الدانى — رحمه الله — حيث يقول :

« ليس بين التجويد وتركه الا رياضة ان تدبره بفكّه ، فلقد صدق وبصر ،
وأوجز في القول وما قصر . فليس التجويد بتمضيغ اللسان (٣٢) ،
ولا بتقعر الفم (٣٣) ، ولا بتعويج الفك (٣٤) ، ولا بترديد الصوت (٣٥) ،
ولا بتمطيط الشد (٣٦) ، ولا بقتطيع المد ، ولا بقتنين الغنات (٣٧) ،
ولا بحصرمة الرئات (٣٨) ، قراءة تنفر عنها الطباع ، وتمجها القلوب

(٣٢) يمضغ اللسان : يلوكه ويحركه كما يحرك الطعام ، وهذا
يخرج القراءة عن صحتها ، وينحرف بالأصوات عن صفاتها وطبيعتها .
(٣٣) التقعر في القراءة : أن ينطق الأصوات بتكلف شديد وكأنه
يخرجها جميعها من أقصى الحلق وهو ما نسميه بالعامية « يحزق في قراءته »
(٣٤) تعويج الفك تحريكه يمنة ويسرة ، مما يترتب عليه انحراف
الأصوات عن طبيعتها ، وهذا يخل بجودة القراءة .

(٣٥) ترديد الصوت : اخراجه بقوة شديدة كصوت الرعد المفزع
مما يسبب غشا شديدا وارهقا للمقاريء ونفورا للسامع .
(٣٦) تمطيط الصوت المشدد : هو المبالغة والافراط في تشديده ،
وتلويته ومدّه مما يفقده حذف حرف منه عند التلاوة بهذه الكيفية (نهاية
القول المقيّد ص ٩) .

(٣٧) الغنة : لغة : صوت في الحيشوم ، واصطلاحا صوت انديد
مركب في جنس النون والميم ، فهي ثابتة فيهما مطلقا ، الا أنها في المشدد
اتصل منها في المدغم .
(انظر نهاية القول المقيّد ص ٥٩ والمصباح المنير مادة غن) .
وتتضمن الغنة : زيادة رنينها والتماوج عند النطق بها مما يخرجها عن
مدارها وهو حركتان كالمد الطبيعي لا يزيد ولا ينقص (القول المقيّد
السابق) .

(٣٨) حصرمة الرئات : تضيق المخرج عن طبيعته عند النطق
باراء مما يعوق تكريرها .

والأسماع ، بل القراءة المسهلة العذبة ، الحارة اللطيفة التي لا مضغ فيها ولا لوك ، ولا تعسف ، ولا تكلف ، ولا تصنيع ولا تنطع (٣٩) ، ولا تخرج عن طباع العرب ، وكلام الفصحاء بوجه من وجوه القراءات والأداء » (٤٠) .

وهذا التدريب العملي على كيفية النطق الصحيح ، وتلك الرياضة الصوتية تمر بمرحلتين تقومان على مبدأ التدرج ، فإمرحلة الأولى يكون التدريب فيها على الأصوات المغردة ، صوتاً صوتاً ، والمرحلة الثانية تقوم على الحروف المركبة في كلمات . وفي هذا يقول ابن الجزري ان « أول ما يجب على مرید اتقان قراءة القرآن ، تصحيح اخراج كل حرف من مخرجه المختص به تصحيحاً يمتاز به مقاربه ، وتوفية كل حرف صفته المعروفة به ، توفية تخرجه عن مجانسه ، بعمل لسانه وفمه ، بالرياضة في ذلك أعمالا يصير ذلك له طبعاً وسليقة ، فكل حرف شارك غيره في مخرج فانه لا يمتاز عن مشاركته الا بالصفات ، وكل حرف شارك غيره في صفاته فانه لا يمتاز عنه الا بالمخرج .

فاذا أحكم القارئ النطق بكل حرف على حدته ، موف حقّه ، فليعمل نفسه بأحكامه حالة التركيب ، لأنه ينشأ عن التركيب ما لم يكن حالة الافراد وذلك ظاهر ، فكم ممن يحسن الحروف مفردة ولا يحسنها مركبة ، بحسب ما يجاورها من مجانس ، ومقارب ، وقوى ، وضعيف ،

(٣٩) التنطع : التكلف والمخالاة .

(٤٠) النشر ١/٢١٣ .

(اعتمدنا في شرح المعاني السابقة غير ما ذكر على لسان العرب

والمعجم الوسيط) (١/٢١٣) .

ومفخم ومرفق ، فيجذب القوى الضعيف (٤١) ، ويغلب المفخم المرفق ، فيصعب على اللسان النطق بذلك على حقه الا بالرياضة الشديدة حالة التركيب ، فمن أحكم صحة اللفظ حالة التركيب حصل حقيقة التجويد بالاتقان والتدريب « (٤٢) » .

ولن نزيد أو نضيف أدلة أكثر من ذلك لمستزيد يمارى في حقيقة العلاقة بين الأصوات والتجويد لننهى بحثنا بالعلاقة بين التجويد والقراءات .

التجويد والقراءات

القرآن الكريم : هو كلام الله القديم الذى نزل به الأُميين جبريل على سيدنا محمد - ﷺ - بلسان عربى مبين ، باللفظ والمعنى ، للتعبد بتلاوته ، والعمل بأحكامه . وهو المعجزة الكبرى الخالدة على مر السنين وكر الدهور .

والمقراءات القرآنية : هى اختلاف ألفاظ الوحي فى الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد ، وغيرهما (٤٣) ، كالفك والادغام ، والفتح والامالة ، وتحقيق الهمزة وتسهيلها ، وغير ذلك من مظاهر القراءات .

وعلم القراءات : علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافهما معزو

(٤١) منال ذلك انطاء والتاء - فالطاء صوت مفخم ودقيق اقوى من

التاء الضعيفة ولذا نرى أنها تفنى فى الأداء حيث تطلب طاء وتدغمان كما فى قوله تعالى « لئن بسطت الى يدك » سورة المائدة ٢٨ .

(٤٢) النشر ١/ ٢١٣ .

(٤٣) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١/ ٣١٨ .

لنقله (٤٤) ، وموضوعه : كلمات القرآن الكريم من حيث أحوال النطق بها وكيفية أدائها • وفائدته : العصمة من الخطأ في النطق بالكلمات القرآنية ، وصيانتها من التحريف والتعبير ، والعلم بما يقرأ به امام من أئمة القراء ، والتمييز بين ما يقرأ به ، وما لا يقرأ به • • • ويستمد هذا العلم من النقول الصحيحة والمتواترة من علماء القراءات الموصولة بالسند الى رسول الله - ﷺ (٤٥) •

والمقريء : هو العالم بالقراءات ، رواها مشافهة عن شيوخه بها « (٤٦) ، وواضعه من الراجع أن أول من دون القراءات هو أبو حنيفة القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ « (٤٧) •

ويرجع أسباب اختلاف القراءات عند جمهرة العلماء الى اختلاف اللهجات العربية ، وفي ذلك تخفيف على القراء المنسوبين الى تلك القبائل المتباعدة في بعض المظاهر اللغوية •

ولقد وردت أحاديث كثيرة في هذا الشأن منها :

— ما روى عن رسول الله ﷺ : « أن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فآرأوا ما تيسر منه » (٤٨) •

— وعن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ قال :

(٤٤) منجد المقرئين لابن الجزري ص ٦١ •

(٤٥) انظر الارشادات الجلية ص ٥ • سالم محيسن ، والبدر

الزاهرة ص ٥ للمشيخ عبد الفتاح القاضى •

(٤٦) منجد المقرئين ص ٦١ •

(٤٧) النشر ٣٤/١ •

(٤٨) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٦٤٣/٨ •

« أقرأني جبريل على حرف فراجعته ، فلم أزل أسقريده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف » (٤٩) •

وبالمقارنة بين التجويد والقراءات ترى :

١ - أن التجويد يهتم بكيفية الأداء الصحيح المتقن للألفاظ القرآنية بما فيها اختلاف القراء في كيفية القراءة ، في القراءات الصحيحة الموصولة بالسند برسول الله ﷺ •

أما القراءات فتهم باختلاف كيفية القراءة تبعاً لاختلاف القراء •

٢ - كلا العلمين يقوم على أساس علم الأصوات ، ولا يستقيمان إلا بالالتزام بقواعده وأحكامه •

٣ - يفرد علم التجويد ببعض الأحكام التي لا تتمثل بخلافات القراء وتتنوع القراءات كالقلب والاختفاء ، والظهار والغنة ، وغير ذلك من أحكام التجويد •

وسوف نذكر مثالين اثنين لتوضيح تلك العلاقة :

- في قوله تعالى « من آمن » يجب أظهار النون الساكنة الواقعة قبل الهمزة من الناحية التجريدية • وليس في النون ذاتها قراءة أم خلاف بين القراء فيها ، وإنما الخلاف في الهمزة الواقعة بعد النون حيث تقرأ الهمزة الأولى بالتحقيق • عند بعض القراء ، وهي لهجة تميم ، وتقرأ عند البعض بالتسهيل حيث تصير مدا • وهي لهجة أهل الحجاز •

- الإدغام بغنة مع النون الساكنة والتثوير •

(٤٩) السابق ٦٣٩/٨ • (واختلف في معنى الأحرف فقليل لهجات ،

وقراءات ، وأوجه وغير ذلك وكلها تؤدي إلى معنى المراد من التيسير والتسهيل كما اختلف في حقيقة العدد سبعة ، والأرجح أنه يفيد الكثرة ولا يعني التحديد) انظر السابق ٦٤٤/٨ ، والنشر ٢٥/٢ ، ٢٦ •

— في قوله تعالى : « هدى ورحمة » حيث ادغمت الواو في القنوين مع الغنة وهنا قراءة في « هدى » حيث تقرأ بالفتح أو الامالة وكتبا القراءتين لا تؤثر على الحكم التجويدي * والمعروف ان الفتح لهجة قريش والامالة لبنى تميم *

وكتب التجويد والقراءات مملوءة بكثير من هذه النماذج التي يتضح من خلالها علاقة التجويد بالقراءات وعلاقة كليهما بالأصوات *

دكتور عبد الفتاح أبو الفتوح ابراهيم
مدرس بقسم أصول اللغة — جامعة الأزهر

المراجع والمصادر

- ١ — القرآن الكريم •
- ٢ — الأصوات ، د. كمال بشر ، دار المعارف •
- ٣ — الأصوات اللغوية د. إبراهيم أنيس ، مكتبة الانجلو المصرية •
- ٤ — أصوات اللغة العربية ، د. عبد الغفار حامد هلال ، الطبعة الثانية مطبعة الجبلاوى •
- ٥ — الانتقان في علوم القرآن ، للسيوطي ، مصطفى البابي الحلبي •
- ٦ — الارشادات الجلية في القراءات السبع من طريق الشاطبية —
دكتور محمد سالم محيسن — الشركة المصرية للطباعة والنشر
١٣٩٦ هـ •
- ٧ — المبدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة للشيخ عبد الفتاح
المقاضي — مطبعة دار العالم العربي ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م •
- ٨ — البرهان في علوم القرآن للزركشي — مطبعة الحلبي ١٣٨٢ هـ —
١٩٦٣ م •
- ٩ — تقريب النشر لابن الجزري — تحقيق ابراهيم عطوة — مصطفى
البابي الحلبي •
- ١٠ — التمهيد في علم التجويد لابن الجزري — تحقيق غانم مدوري —
مؤسسة الرسالة بيروت — الطبعة الأولى ١٩٨٦ م •
- ١١ — علم الأصوات — برقييل مالمبرج — ترجمة د. عبد الصبور شاهين
مكتبة الشباب ١٩٨٧ م •
- ١٢ — علم الصوتيات — د. عبد الله ربيع ، د. عبد العزيز علام •
المكتبة التوفيقية ١٩٧٧ م •

١٣ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني -
المكتبة السلفية •

١٤ - لسان العرب لابن منظور - دار المعارف •

١٥ - المصباح المنير للفيومي - المكتبة العلمية - بيروت •

١٦ - المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية بالقاهرة) الطبعة الثانية
دار المعارف •

١٧ - منجد المقرئين لابن الجزري - تحقيق د. عبد الحى الفرماوى
دار المطبوعات الدولية •

١٨ - النشر فى القراءات العشر لابن الجزري - تصحيح ومراجعة
الشيخ على الضباع - دار الكتب العلمية - بيروت •

١٩ - نهاية القول المفيد - للشيخ محمد مكى نصر - مصطفى البابى
الحنبل •

٢٠ - هداية المستفيد فى أحكام التجويد - للشيخ محمد الحمود -
عالم الفكر •

محتويات العدد

صفحة

- افتتاحية العدد
بقلم الأستاذ الدكتور محمود السمان عميد الكلية ٣
- التقديم والتأخير بين الامام عبد القاهر والمتأخرين
د. الشحات محمد عبد الرحمن أبو ستيت ٧
- الحاسة الأدبية عند عبد الملك بن مروان
د. محمد كريم ٦٨
- نقد الاختيار والامانة
د. محمد ابراهيم خليل ١٢٤
- الغرية النفسية في شعر العقاد
د. رزق محمد داود ١٥٦
- قصيدة السفينة والطوفان للدكتور صابر عبد الدايم
تحليل ونقد الدكتور محمد علي داود ١٨٠
- السفاوى ومنهجه في كتابه الاعلان بالتوبيخ ...
د. محمد نيسان سليمان ٢٠٩
- العامية والفصحى
د. عبد الفتاح أبو الفتوح ابراهيم ٢٣٣
- ابن النازم ومذهبه النحوى
د. أحمد مرسى أحمد الجمل ٢٧٦
- التجويد وعلاقته بالأصوات والقراءات
د. عبد الفتاح أبو الفتوح ابراهيم ٣١٣

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٦١٩٦

مطبعة الامانة
شارع بنزينة بداران شبراخيت

